«رواية»

قدمي اليسرى

كريستي براون



ترجمة: خالد الغنامي

نبذة عن المترجم:

خالد بن عاذي الغنامي العتيبي. ولد عام 14 يناير 1966 في الخبر. المملكة العربية السعودية.
يحمل درجة بكالوريوس في اللغة الانكليزية وآدابها من جامعة الملك سعود - كلية التربية 1992. ويعمل معلماً في وزارة التربية والتعليم منذ 1992 حتى الآن.
كاتب في الصحف السعودية منذ عام 2001 في صفحة الرأي مقالات فكرية وسياسية. له حضور في القنوات الفضائية ومشاركات في الحوارات الفكرية والإصلاحية الاجتماعية كما شارك في عدد من البرامج على القنوات الفضائية .

نبذة عن المؤلف:

ولد كرستي براون في 5 يونيو 1932 لعائلة من الطبقة العاملة في مدينة دبلن - إيرلندا. بمرور الأيام أصبح كريستي رساماً وفاز بجائزة محلية على لوحاته وأقام معرضاً للرسم. ثم أنه شعر أن اللوحات لا تكفي للتعبير عما في نفسه من أسىٍ مخزون فانتقل إلى الرواية والشعر. وقد ترك عدداً من المؤلفات. وتعد هذه السيرة الذاتية "قدمي اليسرى" أشهرها. وقد وضعه بعض النقاد في مرتبة مجاورة لمرتبة مفخرة إيرلندا الروائي جيمس جويس . توفي كرستي براون في 7 سبتمبر 1981 .

قدمي اليسرى

تأليف: كريستي براون

ترجمة: خالد الغنامي

مراجعة: د. أحمد خريس

الطبعة الأولى 1433هـ 2012م
حقوق الطبع محفوظة
© هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة «مشروع كلمة»

RC388 .B712 2012
Brown, Christy, 1932-1981.
[My left foot]
قدمي اليسرى / تأليف كريستي براون ؛ ترجمة خالد الغنامي؛ مراجعة أحمد خريس- أبوظبي: هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، كلمة، 2012.
ص 227 : 12.5×20 سم.
ترجمة كتاب: My left foot
تدمك: 978-9948-17-068-6
1 - Brown. Christy. 1932-1981
2 - الشلل الدماغي.
أ-غنامي، خالد. ب-خريس، أحمد.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنجليزي:
Christy Brown
My Left Foot
Copyright© Christy Brown1954
First published as My Left Foot by Secker
The author has asserted her right to be identified as the author of this work.



www.kalima.ae

ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 451 6515 2 971+ فاكس: 127 6433 2 971+

هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة
ABU DHABI TOURISM & CULTURE AUTHORITY

إن هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة «مشروع كلمة» غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وتعبر وجهات النظر الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف وليس بالضرورة عن الهيئة.

المحتويات

مقدمة المترجم

تعرفت إلى كريستي براون -أول مرة- عندما شاهدت الفيلم السينمائي (قدمي اليسرى) (my left foot) منذ قرابة عشرين عاماً في مدينة لندن، وقد نال هذا الفيلم اهتماماً كبيراً حينها؛ فاز بجوائز سينمائية متعددة، وفاز الممثل دانيال داي لويس بجائزة أفضل ممثل لأدائه شخصية كريستي براون المذهل، كما فازت الممثلة الإيرلندية برندا فركر بأوسكار الممثلة المساعدة لأدائها دور والدة كريستي.

– دعاني الفيلم إلى اقتناء الكتاب، لأنني شعرت بأن لدى هذا الكاتب العبقري المزيد كي يقوله، ولاسيما أنه يتحدث عن معاناة شريحة كبيرة من الجنس البشري، وأعني بها أولئك الذين يعيشون في عالم ذوي الاحتياجات الخاصة. عندما قرأت هذه السيرة الذاتية أول مرة شعرت بمرارة عميقة امتزجت بروحي، وشعرت عندها بضرورة أن أنقلها يوماً ما إلى العربية، لأننا مازلنا نتعامل في عالمنا العربي مع هذه الشريحة بطريقة تحتاج إلى إعادة نظر، فنحن نعيرهم شفقة لايطلبونها، ونحرمهم من أشياء ما انفكوا يصرحون عن حاجتهم إليها. إن قارئ هذه السيرة سيعيد حساباته كثيراً كلّما التقى من يعاني إعاقة. وها أنا اليوم أحقق هذه الرغبة بعد عشرين عاماً وأقدمها هدية خجولة إلى كل من حاصره جسده وظل عقله حراً طليقاً.

المذهل في كريستي براون تلك العبقرية الفذّة، والقدرة العالية على وصف مشاعره الدقيق، والجمع بين العقل والعاطفة في آن معاً. إن هذا المزاج العنيد جعله يسخر من كل شيء، حتى نفسه. وثمة هذه الزئبقية في الانتقال من مزاج عالٍ ضاحك، إلى درجة تجعل القارئ يلهث للحاق بمستوى سخريته، ثم يهوي به فجأة إلى أسفل درجات اليأس والإحباط والألم التي لا يمكن احتمالها، وسأترك الحديث لكريستي براون نفسه كي يسرد قصته، لكنني أود، قبل ذلك، أن أشكر أختي المترجمة الأستاذة عجايب الغنامي، التي قامت بمراجعة النص وبذلت الكثير من الوقت والجهد في إنجاز هذا العمل.

خالد الغنامي

9 يناير 2011.

الإهداء

إلى أمّنا..

الفصل (1)

الحرف (A)

ولدت في مستشفى «روتوندا» في الخامس من شهر يونيو سنة 1932. وُلِد قبلي تسعة، واثنا عشر بعدي، وبذا أكون ممن توسطوا اثنين وعشرين مولوداً. عاش سبعة عشر منا بعد الولادة، ومات أربعة في سن الطفولة، ليبقى ثلاثة عشر يذودون عن حصن العائلة.

كانت ولادتي صعبة، كما قيل لي؛ كادت الأم وابنها يموتان فيها، ووقف جيش من الأقارب في طوابير خارج المستشفى حتى الساعات الأولى من الصباح، ينتظرون سماع الأخبار ويتضرعون أن تكون الأخبار سارة.

بعد ولادتي، أرسلوا أمي إلى النقاهة بضعة أسابيع، وبقيت أنا في المستشفى أثناء بُعدها. مكثت هناك بعض الوقت، دون اسم، لأنني لم أتعمد، حتى تعافت أمي وأصبحت قادرة على اصطحابي إلى الكنيسة.

كانت أمي أول من لاحظ أن ثمة شيئاً غير طبيعي فيّ، كنت في الشهر الرابع، تقريباً، آنذاك. لاحظت أمي أن رأسي اعتاد السقوط إلى الخلف كلما أرادت أن تطعمني، فحاولت أن تصلح هذا الخلل بأن تضع يدها خلف رقبتي لتبقيه ثابتاً، بيد أنه كان يسقط ثانية بمجرد أن تبعد يدها؛ كان هذا أول رسالة تحذيرية. ثم إنها أصبحت تلاحظ عِللاً أخرى كلما زاد عمْري ونما جسدي، فقد رأت أن

يديّ ثابتتان طوال الوقت تقريباً، وأنهما تميلان إلى أن تلتفا خلف ظهري. كما أنهما لم تستطيعا استرجاع حلمة الرضّاعة، فحتى في تلك السن المبكرة، كان فكاي ينقفلان بشدة عليها، فيستحيل على أمي أن تفتحهما، أو أنهما كانا ينفتحان فجأة ويرتخيان، فيسحبان فمي كله إلى جانب واحد. وعندما أكملت الستة أشهر، لم أكن قادراً على الجلوس دون جبل من المخدات حولي، وبعد انقضاء اثني عشر شهراً ظلت الحال كما هي دون تغير.

نقلت أمي مخاوفها إلى أبي، وقد كانت قلقة من كل ذلك، فقررا أن يطلبا استشارة طبية دون أدنى تأخير. كنت قد تجاوزت السنة بقليل عندما بدأت رحلتي إلى المستشفيات والعيادات، وكانا على قناعة أكيدة بأن هناك خللاً ما ألّم بي؛ أمراً لم يكن بإمكانهما فهمه أو حتى تسميته، لكنه حقيقي ومزعج. كل الأطباء الذين فحصوني اعتبروني حالة جديرة بالاهتمام، وميئوساً منها كذلك. كثير منهم، أخبر أمي بلطف أنني متخلف عقلياً، وقد أبقى على تلك الحال إلى الأبد.

كان الخبر كأنه لطمة قاسية لوجه أم شابة ربت خمسة أطفال أصحاء حتى ذلك الحين، إذ إن الأطباء كانوا على درجة عالية من الثقة بأن إيمان أمي بي كان خارجاً عن السياق الموضوعي، وقد أكدوا ألا حيلة لديها في أمري. غير أن أمي رفضت قبول هذه الحقيقة، وقد بدت محتومة، أنني غير قابل للشفاء، أو الإنقاذ، ولا رجاء في حالتي. لكنها لم تكن تريد، أو تستطيع أن تصدق، أنني كنت معتوهاً بلا عقل كما أخبرها الأطباء، وألا شيء في العالم يمكنه

أن يساعدها، وأن ليس هناك أدنى دليل يمكن أن يدعم إيمانها الراسخ بأنني، وإن كان جسدي مشلولاً، فإن عقلي ليس كذلك. وبغض النظر عن كل ما قاله لها كل الأطباء والمختصين، لم تستطع أمي أن توافق عليه. لا أستطيع تصديق أنها هي نفسها كانت تعرف السبب في ذلك الرفض، لقد كانت تدرك ذلك وحسب، ولم يكن لديها أدنى شك فيه.

قررت أمي أن تتولى الأمر بنفسها، بعد أن وجدت أن الأطباء عاجزون عن مساعدتها في أي شيء سوى إخبارها ألا تعول على حالتي، أو بعبارة أخرى فقد كان من المفروض في رأيهم نسيان حقيقة أنني كائن بشري، وأن من الأفضل في رأيهم أن تعدني مجرد شيء يُطعم ويُغسل ثم يُوضع بعيداً بعدها.

لقد كنت طفلها، وبناء عليه، فأنا جزءاً من العائلة، وبغض النظر عما إن كنت سأكبر لأصبح عاجزاً أو تافهاً، فقد عقدت العزم على أن تعاملني على قدم المساواة مع بقية إخوتي، لا وفق أنني «الشاذ بينهم»، أو ذاك الذي يتم إيداعه في الغرفة الخلفية ويحظر الحديث عنه في حضور الزوّار.

كان هذا قراراً في قمة الأهمية تمركزت حوله كل حياتي المستقبلية، إذ كان يعني، أن أمي ستقف دائماً بجواري، كي تساعدني وأنا أناضل في كل معاركي القادمة. وأنها سوف تكون مصدر إلهام يمنحني قوة جديدة، كلما أوشكت على الانهزام. غير أن الأمر لم يكُن سهلاً عليها، لأن الأصدقاء والأقارب وقفوا من هذا الأمر مواقف مختلفة. لقد تنافسوا على معاملتي بالطيبة والشفقة،

لكنهم لم يأخذوني أبداً على محمل الجد. وقد قالوا لها:

- إن ما تفعلينه خطأ. حديثنا هذا من أجل مصلحتك أنتِ. لا تنظري إلى هذا الولد كما تنظرين إلى بقية أطفالك، إن هذا سيمزق قلبك في النهاية.

لحسن حظي فقد وقفت أمي، ومثلها أبي، ضد كثير منهم. لكن أمي لم تكتف بالقول إنني لست معتوهاً فقط، وإنما أعلنت أنها سوف تبرهن على ذلك، لا لإحساسها الصارم بالواجب، بل بسبب الحب، لذلك فقد نجحت نجاحاً مبهراً.

كان لديها، في ذلك الوقت، خمسة أطفال تعتني بهم، فضلاً عن الولد ذي «الحالة الصعبة». في تلك الفترة لم يكن عدد أفراد بيتنا قد اكتمل بعد. كان هناك إخوتي: جيم وتوني وبادي وأختاي الاثنتان، ليلي ومونا، وكلهم كانوا صغاراً، فثمة سنة أو ما يقرب منها بين كل واحد وآخر، لذا فإنهم أشبهوا عتبات السلالم.

انصرمت أربع سنوات وأصبح عمري الآن خمساً، ومازلت في عجز الطفل حديث الولادة نفسه. وبينما كان والدي في الخارج يعمل في مجال البناء كي يوفر لنا لقمة العيش، كانت أمي تهدم، ببطء وصبر، الجدار الذي يبدو أنه قد أقحم نفسه بيني وبين إخوتي وأخواتي، حجراً فحجراً. وبصبر وتؤدة، نَفَذت أمي مخترقة الستارة السميكة التي كانت تغطي عقلي وتعزله عن إخوتي.

مجهود صعب يحطم الفؤاد، لم تحصل على أي مقابل من ورائه، سوى ابتسامة باهتة أو قرقرة ضعيفة، إذ لم أكن قادراً على الكلام أو حتى التمتمة، أو الجلوس بنفسي دون مساعدة، دع عنك المشي. إلا

أنني لم أكن جماداً عديم الحركة، بل كانت الحركة تزلزلني، كثعبان جامح مشدود العضلات، ولم تفارقني بتاتاً إلا في أثناء نومي. تلوّت أصابعي وارتعشت باستمرار، كان ذراعاي يلتفان إلى الخلف ثم ينطلقان فجأة بهذا الاتجاه أو ذاك، ويتراخى رأسي وينحرف إلى الجانبين، كنت شخصاً صغيراً غير طبيعي.

أخبرتني أمي كيف أنها في أحد الأيام، جلست معي ساعاتٍ طوالاً في غرفة علوية، تريني صوراً في كتاب قصص كبير أهداني إياه «بابا نويل» في عيد الميلاد الماضي، وكيف أنها أخبرتني بأسماء الحيوانات المختلفة والزهور، محاولة جعلي أكرر تلك الأسماء، لكنها لم تنجح، استمر هذا لساعات، وهي تتحدث معي وتضحك. ثم –في النهاية– مالت عليّ وهمست بحنان في أذني:

– هل أحببت هذا يا كريس؟ هل أحببت الدببة والقردة وكل الزهور الجميلة؟ هُزَّ رأسك بنعم كولد طيب.

بالطبع عجزت عن إصدار أي إشارة تدل على أنني أفهمها. كان وجهها منحنياً على وجهي وكله أمل. فجأة، ودون وعي، امتدت يدي المريضة وأمسكت بخصلة من شعرها الأجعد المتناثر كثيفاً على هيئة عناقيد حول عنقها، فأرخت أصابعي المتصلبة بلطف، إلا أن نتفاً سوداء منها بقيت في تلك القبضة، ثم ابتعدت بعيداً عن حملقاتي الغريبة وغادرت الغرفة مغلقة الباب وراءها وقد أخذت تبكي.

كل شيء بدا يائساً وبلا أمل. أصبحت تشعر بأن هناك بعض المبررات لتصريحات أقاربي لها بأنني معتوه وأن مساحة الأمل لا

يمكن أن تشملني.

لقد بدؤوا الآن يتحدثون عن ملجأ يريدون إرسالي إليه.

– مستحيل.

كان هذا ردَّ أمي الغاضب عندما طُرح هذا الاقتراح:

– أنا أعرف ابني، إنه ليس معتوهاً ولا أبله، إن ما حُطم فيه هو جسده لا عقله، أنا متأكدة من هذا.

متأكدة؟!

كانت تدعو الله في نفسها أن يعطيها دليلاً يصدّق إيمانها، فقد كانت تدرك تماماً أن الإيمان شيء، وإثباته شيء آخر.

أصبحتُ الآن في الخامسة من عمري، ومازلت غير قادر على إظهار أي إشارة حقيقية تدل على أدنى نباهة، إذ لم يبدر عني أي اهتمام ظاهر بالأشياء، سوى ما كنت أبديه من خلال حركة أصابع قدمي، ولاسيما اليسرى.

وعلى الرغم من أني كنت نظيفاً فيما يتعلق بعاداتي الطبيعية، فإنني لم أقدر على مساعدة نفسي في هذا المضمار، فتولى أبي هذا الجانب. كنت أستلقي على ظهري في المطبخ طوال الوقت، أما في الأيام المشرقة الدافئة، فأتمدد في الحديقة. حزمة صغيرة من العضلات الملتوية، والأعصاب الشائهة، لكنني محاط بعائلة تحبني ولم تفقد الأمل في شفائي قط؛ عائلة جعلتني جزءاً من دفئها وإنسانيتها.

مع هذا، كنت أشعر بالوحدة، مسجوناً في عالم يخصني وحدي، وغير قادر على التواصل مع الآخرين، ومبتوراً، معزولاً عنهم كما لو أن حائطاً زجاجياً حال بين وجودي ووجودهم، وهو يدفع بي

بعيداً عن مجال حياتهم ونشاطاتهم. كم شعرت بحنين لأن أركض وألعب مع الآخرين، لكنني كنت عاجزاً عن التحرر من حالة العبودية التي أعيشها.

ثم فجأة، تغير كل شيء في لحظة، وصيغت حياتي المستقبلية في شكل نهائي وأكيد. إيمان أمي بي تمت مكافأته، وخوفها الخفي تحول إلى انتصار. حدث كل شيء بسرعة، وبساطة، بعد كل تلك السنوات من الانتظار وانعدام اليقين. إنني أستطيع أن أرى وأشعر بكل تفاصيل ذلك المشهد كما لو أنه حدث في الأسبوع الماضي. فقد كان عصر يوم ديسمبري شاحب بارد، تلألأت الشوارع في الخارج بالثلج، والتصقت رقائق الثلج البيضاء المتألقة بالنافذة ثم ذابت على اللوح الزجاجي وعلق بعضها على أغصان الأشجار كالفضة المسبوكة. الريح تعصف كئيبة، وتجلد دوامة صغيرة من طوابير رذاذ الثلج التي كانت ترتفع ثم تسقط مع كل عصفة. وفوق كل ذلك، تلك السماء المظلمة المملة التي امتدت فوقنا كمظلة سوداء في شحوب واسع لامتناه.

في الداخل، كانت كل العائلة مجتمعة حول نار المطبخ الكبيرة التي أضاءت الغرفة الصغيرة بوهجها ودفئها، وصنعت ظلالاً راقصة على السقف والحيطان.

في زاوية، كان أخواي بادي ومونا يجلسان ويتحاوران معاً وأمامهما بعض الكتب المدرسية الممزقة. كانا يكتبان بعض العمليات الحسابية على لوح قديم، ويستخدمان في ذلك قطعة من طبشور أصفر فاتح، في حين جلست قريباً منهما أتابعهما وأنا مستند على

يضع وسائد مركوزة على الجدار.

أكثر ما جذبني قطعة طبشور، كانت إصبعاً صفراء رفيعة زاهية، لم أر شيئاً مثلها من قبل، وظهر لونها جميلاً على السطح الأسود لذلك اللوح، لدرجة أنني انبهرت وفتنت بها كما لو كانت قطعة من ذهب.

فجأة، شعرت برغبة عارمة في أن أفعل الشيء نفسه الذي تقوم به أختي. ثم، دون تفكير ودون أن أعرف ما الذي كنت أفعله، التقطت إصبع الطبشور تلك من يدها بقدمي اليسرى.

لا أدري لماذا استخدمت قدمي اليسرى تحديداً لذاك الفعل. وكان هذا لغزاً حيّر كثيرين وأنا منهم. فعلى الرغم من أنني قد أظهرت اهتماماً غريباً بأصابع قدميّ منذ فترة مبكرة من عمري، فإنني لم أحاول أن أستخدم أياً منهما قبل تلك اللحظة، لأنهما كانتا في الدرجة نفسها من عدم الجدوى كيديّ. على كل حال، اتضح في ذلك اليوم أن قدمي اليسرى، وبكامل اختيارها، قد امتدت بطريقة غير مهذبة وأخذت إصبع الطبشور من يد أختي.

أمسكت الطبشور بإحكام بين أصابع قدمي، وكردة فعل لاندفاعها، كتبت على اللوح خربشة مجنونة، وتوقفت في الدقيقة التي تلتها، إذ شعرت بدوار وكثير من الدهشة. كنت أنظر إلى إصبع الطبشور الأصفر الملتصقة بين أصابع قدمي، ولا أدري ماذا سأفعل بها بعد ذلك، ولا أكاد أعرف كيف وصلت هناك. ثم نظرت حولي فأدركت أن الجميع قد توقفوا عن الكلام، وأخذوا يحدقون فيّ بصمت، ولم يتحرك أحد منهم. أخذت مونا، بشعرها المجعد الذي

يؤطر وجهها المكتنز الصغير، تحملق فيّ بعينيها الكبيرتين وفمها المفتوح. إلى جانب المدفأة، كان يجلس أبي، تضيء النيران وجهه، وهو يميل في جلسته إلى الأمام، ناشراً يديه على ركبتيه، وكتفاه قد شدّهما التوتر، فشعرت بالعرق يتفجر من جبهتي.

أتت أمي من المطبخ بقدر تغلي في يدها، ثم توقفت في منتصف الطريق بين الطاولة والنار، فاستشعرت التوتر الذي أغرق الغرفة، وتتبَّعَت نظراتهم فأوصلتها العيون إلى الزاوية، حيث أنا. أخذت تقلب عينيها فيّ، من وجهي إلى قدمي، حيث الطبشور بين أصابعي الممسكة به بإحكام، فوضعت القدر على الطاولة.

ثم إنها اتجهت نحوي وركعت على الأرض بجواري، كما كانت تفعل دائماً، وقالت:

– سأريك ما ستفعل بها يا كريس.

وبدأ وجهها يتورد في هيئة غريبة متشنجة، تكتنفها إثارة داخلية.

أخذت أمي طبشوراً آخر من مونا، وترددت قليلاً، ثم انحنت وكتبت بتروٍ على الأرض أمامي، الحرف (A).

ثم قالت وهي تنظر إليّ بثبات:

– انسخ هذا، انسخه يا كريستي.

لم أستطع أن أنسخه، ونظرت من حولي، نظرت إلى الوجوه التي وجهت إليّ كل نظراتها المتوترة، وجوه مِلْؤها الإثارة، تجمدت الآن، ثابتة، متشوّفة، تنتظر معجزة تحدث وسطها.

كان الصمت عميقاً، والغرفة مغمورة بالضياء، وأخذت الظلال تتراقص أمام عينيّ مهدهدة أعصابيَ المشدودة ودافعة بي إلى حالة بين

النوم والإفاقة. أستطيع أن أسمع صوت صنبور المياه الذي أخذ ينقط في المطبخ... ودقات الساعة العالية على رف الموقد... إلى جانب الفحيح الناعم، وقرقعة جذاذات الخشب في المدفأة المفتوحة.

حاولت مرة أخرى. وضعت قدمي وطعنت بالطبشور طعنة، فأنتجت خطاً مائلاً، لا أكثر ولا أقل، فقامت أمي بحمل اللوح لي، وثبتته جيداً ثم همست في أذني:

– حاول مرة أخرى يا كريس.

لقد فعلتها. لقد شددت جسدي ثم وضعت قدمي اليسرى للمرة الثالثة فرسمت إحدى زوايا الحرف، ثم رسمت نصف الزاوية الأخرى، غير أن قطعة الطبشور انكسرت ولم يتبق معي إلا كسرة صغيرة منها، فأردت أن أرميها مستسلماً، وشعرت بيد أمي على كتفي.

حاولت مرة أخرى، انطفأت قوة قدمي، ارتعشت متصبباً عرقاً، وشددت كل عضلة في جسدي. كانت يداي مطبقتين بإحكام لدرجة أن أظافري مزقت اللحم، شددت أسناني حتى كدت أخرم شفتي السفلية. كل شيء في الغرفة كان يسبح، حتى إن الوجوه من حولي تحولت إلى مجرد رقاع بيضاء. لكنني رسمت الحرف (A). ها هو هنا على الأرض أمامي، صحيح أنه مرتعش، وحوافّه متذبذبة غريبة، والخط في وسطه ليس مستقيماً، لكنه كان الحرف (A). رفعت رأسي إلى الأعلى ونظرت في وجه أمي لدقيقة والدموع تسيل على خديها. ثم إن أبي انحنى عليّ ورفعني على كتفه.

لقد فعلتها! لقد بدأت بالشيء الذي سيعطي عقلي الفرصة كي

يعبر عن نفسه.

لم أكن –في الحقيقة– قادراً على التكلم بشفتي، لكني صرت قادراً الآن أن أتحدث بشيء أطول عمراً من الكلمة المحكية... أعني الكلمة المكتوبة.

إن ذاك الحرف الوحيد، المخربش على الأرض بجزء من طبشور أصفر مكسور محشور بين أصابع قدمي، كان طريقي إلى عالم جديد، وكان مفتاحي إلى حريتي الذهنية. لقد زودني بمصدر للراحة من عذاب التوتر، فقد بدا شيئاً محكماً يمثلني وأنا ألهث في محاولة للتعبير عن ذاتي الرابضة خلف فم ملتوٍ مريض.

الفصل (2)

أمي

بعد أن علمتني أمي كيف أكتب الحرف (A) بقدمي اليسرى، صارت خطوتها التالية أن تعلمني بقية الحروف الأبجدية بالطريقة نفسها. فقد عقدت العزم على استغلال الفرصة الخارقة التي سنحت لها، لتساعدني على التواصل مع الآخرين عبر الكلمة المكتوبة، في حال تعذرت الكلمة المحكية.

أستحضر تلك الذكريات بوضوح والطريقة التي بدأت أمي بها الأمر. كانت تحضرني إلى الدور العلوي داخل غرفة النوم الأمامية في كل يوم لا تكون فيه شديدة الانشغال بشؤون البيت، ثم تقضي معي الساعات وهي تعلمني الحرف بعد الآخر. تكتب الحرف على الأرض بقطعة طبشور، ثم تمسحه بالممحاة، وتطلب مني أن أكتبه مرة أخرى من ذاكرتي بطبشور بين أصابع قدمي. لقد كان عملاً شاقاً لكلينا. غالباً ما تكون أمي في المطبخ تطهو طعام العشاء، عندما تسمعني أطلق صرخة مدوية، لأجعلها تصعد نحوي لترى إن كنت قد كتبت الكلمة بطريقة صحيحة. عندما أخطئ كانت تركع على ركبتيها، ويداها مغطاتان كلياً بالطحين، لتريني الطريقة الصحيحة للكتابة. أذكر أن أول شيء تعلمته أن أكتب الحرفين الأولين من اسمي c. b. على الرغم من أنني كنت أرتبك أحياناً وأقدم الحرف الثاني على الأول. وكلما سألني شخص عن اسمي، كنت ألتقط

قطعة طبشور ثم أكتب c. b. بابتهاج عميق.

بعدها بوقت قصير، أصبحت قادراً على كتابة اسمي بالكامل لا الأحرف الأولى فقط، وكنت فخوراً بنفسي لدرجة عظيمة عندما أصبحت قادراً على ذلك، وشعرت عندها بأنني شخص مهم.

وعندما كنت أقترب من سنتي السادسة، شعرت بالانزعاج من كوني لا أكتب سوى اسمي، فأردت أن أصنع شيئاً آخر، شيئاً أكبر، رغبة لم أستطع تحقيقها، لأنني لم أكن أحسن القراءة. في الحقيقة، لم أكن أعي تماماً معنى أن يحسن الإنسان القراءة، كنت فقط أعلم أن أخي جيم كان يتقن هذا الشيء، وكذلك توني ومونا وبيتر، وهذا ما جعلني راغباً في أن أحسنه أيضاً. يبدو أنه مجرد شعور بالغيرة.

ببطء، وألم كبير، شققت مع أمي الطريق مخترقين حروف الأبجدية الستة والعشرين، وتدريجياً تمكنت منها جميعاً بالترتيب. شيء ما أعطى أمي تشجيعاً كبيراً في ذلك الوقت، ألا وهو قدرتي على الإنصات والمراقبة بانتباه عميق لا يغيب إلا نادراً، ذلك عندما كانت تجلس إلى جواري وتعطيني الدروس.

أتذكر أننا كنا نجلس على أريكة كبيرة مصنوعة من شعر الحصان وأمامنا نار كبيرة في مساء شاتٍ. أخي الرضيع ينام وسط عربته في الجانب الآخر الذي تفصله عنّا المدفأة. كنا وحدنا نحن الاثنين في المطبخ والإضاءة خافتة، في حين كان أبي في اجتماع للبنائين، وإخوتي وأخواتي يلعبون في الشارع، وبين يدي أمي كتاب بيتر المدرسي تقرأ منه قصصاً عن أبناء الملك لير المساكين، الذين تحولوا إلى إوزّات بفعل زوجة أبيهم الشريرة، وعن داير مود Diarmud

وغراين Graine والملك الذي يتحول كل شيء يلمسه إلى ذهب. استمرت أمي في القراءة، حتى تحول الظل إلى ظلام غلّف الغرفة، وبكى الطفل إيمون في أثناء نومه.عندها نهضَت وأشعلَت ضوء المصباح، فاختفى مفعول السِحر وزالت معه روعة اللحظة.

معرفة الحروف الأبجدية كانت نصف انتصار في معركة، فبعدها تعلمت بسرعة كيف أضع الحروف بعضها إلى جانب بعض، مكوناً كلمات صغيرة، ثم بعد فترة أخرى بدأت أعرف كيف أرتب الكلمات معاً لأصوغ جملة. كنت أتقدم في ذلك، لكن الأمر لم يكن بالسهولة التي تبدو للسامع الآن. فلدى أمي سبعة أطفال آخرين غيري، ومن واجبها أن تعتني بهم. لحسن الحظ، كان لديها حليف حقيقي تمثل في شخص أختي ِليلي أو تيتش، كما كان الآخرون يلقبونها. لِيلي هي الأخت الكبرى وهي الأم الصغيرة في محيط العائلة. طفلة صغيرة نحيلة بشعر غزير متجعد وعينين مشعتين. بإمكانها أن تكون في منتهى اللطف والرقة عندما تشتهي ذلك وكأنها ملاك صغير، لكن هذه الملائكية تختفي تماماً، عندما تستثار. لقد شعرت لِيلي بصعوبة وضع أمي وقسوته، أكثر من أي امرأة بالغة، ثم تعاطت مع ذلك الوضع. لقد كرست جهدها للآخرين كي تتفرغ أمي للاعتناء بي، وتعطيني المزيد من الوقت، فطبخت وغسلت وألبست أخوتها الصغار وتابعت الكبار لدرجة التأكد أنهم نظفوا ما وراء آذانهم كل صباح قبل أن يتوجهوا إلى المدرسة. ربما كانت ظلاً مفعماً بالحماسة أكثر من اللازم، إذ غالباً ما كان جيم أو توني ينسلان خلسة إلى المطبخ، ووجهاهما ملوَّهما

الخجل وهما مضطران إلى أن يتجرعا مرارة أن يلقيا شهادة ما أمام لِيلي؛ ربة البيت الجادة، تنتهي وآذانهما متورمة أو بكدمات سوداء حول أعينهما.

لم أكن أجيد الكلام بطريقة مفهومة، لكنني ابتدعت نوعاً من «اللغة النخيرية» التي فهمتها العائلة بتفاوت.

وكلما وقعت في صعوبات في التعبير عما أريد قوله، كنت أشير إلى الأرض، وأكتب الكلمات بقدمي اليسرى، وعندما تكون الكلمة صعبة التهجئة أنفجر غاضباً، مما كان يجعلني أمارس النخير، بطريقة أكثر ضبابية وبُعداً عن الفهم.

مازلت لا أحسن الكلام على الرغم من أنني بلغت السابعة، إلا أنني أصبحت قادراً على الحركة وحدي. كنت أزحف على مؤخرتي، متنقلاً من مكان إلى آخر، دون أن أكسر أياً من عظامي أو الأواني الصينية الخاصة بأمي. لم أكن ألبس الحذاء ولا أغطي قدمي بأي شيء، وقد حاولت أمي أن تجعلني أعتاد تغطية قدمي في سن مبكرة، لأن قدميّ العاريتين تجعلاني أبدو وكأنني إنسان أهمله أهله. غير أنها كلما وضعت شيئاً حول قدمي، رفسته سريعاً. لقد كرهت تغطية قدميّ لدرجة أنه عندما كانت أمي تجبرني على لبس الجوارب والأحذية، كنت أشعر بمشاعر الإنسان الطبيعي عندما تكون يداه مقيدتين خلف ظهره.

بمرور الزمن، زاد اعتمادي أكثر فأكثر على قدمي اليسرى في كل أموري، فصارت وسيلة رئيسة للتواصل؛ وسيلة كي تفهمني العائلة. ببطء شديد أصبحت قدمي اليسرى شيئاً لا يمكن الاستغناء

عنه بالنسبة إلي، فبواسطتها، تعلمت كيف يمكنني تحطيم الحواجز بيني وبين الآخرين في منزلنا. لقد كانت المفتاح الوحيد لباب الشخص الذي في داخلي.

من عاداتي في ذلك الحين، أنني كلما كتبت شيئاً على الأرض أبصق عليه، وأمحوه بكعبي، ثم أعيد كتابته من الذاكرة مرة أخرى، تماماً كما علمتني أمي. ذات مرة عندما كنت في السادسة والنصف من العمر، أتى طبيب لزيارة أخ لي التوى معصمه حين كان يلعب الريغبي. بعد نزول الطبيب إلى الطابق السفلي، رآني وأنا أكتب بطبشور بين أصابعي، لم يصدق عينيه، فراح يسأل أمي أسئلة عني، في حين شَعَرت بحماس منقطع النظير وهي تظهر للطبيب أنني فهمت كل الحوار الذي دار بينهما.

حملتني ووضعتني على الطاولة، وطلبت منه أن يسألني كتابة شيء له. فكّر هنيهة، ثم أخرج دفتر التقارير الطبية الكبير من حقيبته، وعرض عليّ قلم رصاص أحمر اللون ثم طلب مني أن أكتب اسمي فيه.

أخذت القلم بين أصابعي فجذبت الدفتر باتجاهي وفرضت الهدوء على نفسي، وببطء كتبت اسمي على المساحة البيضاء في أعلى الصفحة بالحروف الكبيرة.

– مذهل، أنا مندهش يا سيدة براون، إنها...

ثم توقف وقد استولت عليه المفاجأة، في حين احمرت وجنتا أمي من فرط الارتباك، لأنني بعد تردد قليل بصقت على الصفحة وحاولت بحماس مكثف أن أمحو ما كتبت، غير قادر على الفهم،

لماذا لا يمكن محو حروف قلم الرصاص، كما تمحى بسهولة حروف الطباشير.

طرد الطبيب كل اعتذارات أمي بعيداً، بضحكة منه، وربت على رأسي وأخبرني أنني ولد رائع. ثم زارني بعدها مرات ليست بالقليلة، ولسنوات عديدة بقي ذلك الطبيب يتابع تطورات حالتي الصحية بشغف عميق.

في تلك الأثناء، تضاعف عدد العائلة بطريقة منتظمة، واستمرت درجات السلم ترتفع أعلى فأعلى. ويبدو أنني كبرت معها أنا الآخر، فقد بدأ جسدي يتضخم ويمتلئ، وقام عقلي بالشيء ذاته. فلاحظت أمي أنني قد تجاوزت مرحلة الحروف الأبجدية، وربما تجاوزت قدرتها على التعليم كذلك.

لم أعد قانعاً بمجرد الجلوس والاستماع إلى أمي وهي تقرأ لي بصوت مرتفع، وأصبحت متململاً ومتطلعاً لأن أقرأ بنفسي، مثل بيتر ومونا. أصبحت متلهفاً إلى أن أريهم أنني أستطيع أن أفعل ما يستطيعون هم أن يفعلوه، فقد صرت قادراً الآن على استخدام قلم الرصاص بدلاً من الطباشير، على الرغم من أنني لم أتعود حقيقة استخدام أقلام الحبر. حاولت ذات مرة أن أكتب اسمي مستخدماً قلم الحبر المفضل لدى والدي، في حين كان اثنان من الجيران ينظران، لكنني أحرجت أمي لأنني رميت بالقلم من قدمي مشمئزاً، عندما اكتشفت أنه عاجز عن أداء شيء، سوى الالتصاق بالورقة في كل محاولة للكتابة به.

كانت أمي قلقة، بسبب معرفتها أن من المستحيل إرسالي إلى

المدرسة كبقية إخوتي. فما أفضل طريقة تساعدني بها إذن في هذا المضمار؟ لأنها، رغم رضاها الآن بعد أن علمت أن حالتي الذهنية تكاد تكون طبيعية، تخشى أشد الخشية أن أكبر لأكون أمياً وفي حال فكرية بائسة كما هي حالتي الجسدية.

كان هذا أكبر مخاوفها التي استمرت معها، وقد مزقها هذا الخوف، ولم يكن له علاقة بالشعور بالعار من احتمال وجود ابن أميّ ومعاق في الوقت ذاته، كانت تفكر في العقبات التي يمكن أن يسببها لي هذا المصير المحتمل، عندما أكبر. أرادت لي، قبل كل شيء، أن أكون متساوياً مع إخوتي وأخواتي، في كل شيء يمكن أن نتساوى فيه، وبما أنني لا أستطيع الذهاب إلى المدرسة، فقد قامت بكل شيء ممكن للتخفيف من أضرار هذا العائق، لكنها لم تملك دائماً الفرصة أو الوقت لفعل ذلك بشكل يومي، لأن يديها كانتا مشغولتين على الدوام، فقد كافحت كي تنتشلنا جميعاً في أزمنة البطالة والمرض وتقينا مخاوف أخرى كثيرة، لدرجة أنها كانت تجد صعوبة في مجرد التبسم بعض أحيان. لكنها بطريقة ما، أفلحت معظم الوقت في الحفاظ على إشراقها.

في أوقات انشغال أمي، كنت أجاهد وحدي لصنع كلمات جديدة من كل ما يجري حولي. اعتدت أن أتهجى أسماء الأشياء من حولي في المنزل، مثل: نار، صورة، كلب، باب، كرسي... وهلم جراً. ولقد فخرت بنفسي في كل مرة تمكنت فيها من التعرف إلى كلمات جديدة، فكنت أكتبها لأمي وأريها أي عالم عظيم أنا.

في أحد الأيام، حاولت اجتياز صعوبة استثنائية بأن أكتب كلمة

جديدة وجدتها في كتاب بيتر المدرسي. بعد محاولات عديدة، نجحت وأريتها لأمي التي كانت تجلس في كرسي بجوار الموقد ترضع أخي الصغير. كان الوقت مساءً. ضوء إبريل الخافت شكل رسماً على الأرض، وظهر على السطح اللامع لطاولة صغيرة من خشب الماهوغاني، كاشفاً الشرخ المتعرج بعرض ذلك السطح. وقت تناول الشاي لم يبدأ بعد، وكل البقية كانوا في الطابق العلوي يلعبون لعبة مدرسية. جلست جاثماً في زاوية من الكنبة وكتاب بيتر أمامي وقلم رصاص في قدمي اليسرى. مرات كثيرة في ذلك اليوم نظرت فيها إلى حيث كانت تجلس أمي يائساً من كتابة تلك الكلمة بنفسي. لكن رؤيتها وهي تهز كرسيها بهدوء، ممسكة بطفلها قريباً من ثديها، جعلتني أشيح بوجهي عنها مرة أخرى. وتملكني شعور غريب بأنني لا بد أن أكتب تلك الكلمة بنفسي فعلاً ودون مساعدة منها. بعد عدة دقائق، أطلقت صيحة انتصار جعلت أمي تتحرك في حين تعكر مزاج أخي بين ذراعيها، فسألتني:

– ما الأمر يا كريس؟ سوف توقظ الطفل.

لكنني لم أهتم بذلك، بل طلبت منها بطريقة كلامي «النخيرية» الغريبة أن تأتي إليّ فوراً.

كلمة جديدة؟ أليس كذلك؟

قالتها وهي تمشي نحوي، ثم جلست على حافة الكنبة، والطفل نائم بين ذراعيها.

فنخرت، آخذاً قلم الرصاص، وكاتباً الكلمة التي حيرتني لوقت طويل. بعد الانتهاء، نظرت إلى وجهها وأنا أنتظر أمارات الرضا،

نظرت إليها وهي تحدق بصمت إلى ما كتبته على هامش الصفحة. بقيت واقفة صامتة لوقت طويل لدرجة أنني أصبت بالقلق ودفعتها برفق بقدمي، فالتفتت ووضعت يدها عليّ وابتسمت. كانت الكلمة الجديدة التي تعلمت كتابتها لأول مرة هي: أمي.

الفصل (3)

بيتنا

أصبحت الآن ابن سبع، وبدأت في الالتقاء بالأطفال الذين هم في سني. حدث هذا بمساعدة إخوتي، إذ صاروا يأخذوني معهم عند الذهاب للعب في الشوارع بعد المدرسة، يدفعون بي على عربة تحملني يسمونها التشاريوت chariot. قضيت في تلك العربة القديمة ذات الصرير والأنين والمقود الملتوي والعجلات المعقوفة، أياماً من أفضل ما عشت، عندما كان إخوتي يركضون بي عبر الشوارع نصف المضاءة، والأزقة الضبابية المظلمة، في أثناء غروب يوم من شهر يونيو الدافئ المشرق، أو ليلة ديسمبرية رمادية باردة.

بسرعة فائقة، أصبح لدي أصدقاء أشاركهم ألواناً من المتعة. أولادٌ من أبناء حارتنا، صغار وصريحون بدرجة كافية ليتقبلوني كواحد منهم دون طرح أدنى سؤال. لقد كبروا معي، وبطريقة ما، وجدوا أن من الأسهل لهم أن يتزاملوا معي كبديل مفضل على مزاملة أولاد آخرين لم يخبروهم قط. في الواقع إن كثيراً منهم كان يعد إعاقتي رمزاً غريباً للتميز، تقريباً كتميز الصالحين والقديسين، لهذا عاملوني معاملة مختلفة، كلها احترام وتبجيل، وبطريقة طفولية غريبة.

تحسنت كثيراً الآن وأصبحت قادراً على أن أجلس منتصباً في عربتي، دون وضع المخدات الداعمة خلف ظهري. تذوقت ألم سقطاتٍ كثيرةٍ في تلك الرحلات، عندما كانت العربة تنقلب على

جنبها عند انحناءة منعطف وهي تسير بسرعتها القصوى، فأتدحرج على الأرض، وسط صراخي وصياحي. غير أن هذا جعلني أنمو صلب العود، وأصبحت ماهراً فعلاً في السقوط بتلك الطريقة التي وصفتها، حتى أصبحت أسقط سقطات شنيعة، ومع ذلك لا أصاب إلا برضوض وخدش أو اثنين، بل كنت أشعر بإثارة كبيرة من ذلك كله.

عندما نكون في بيتنا، فالحدث الأعظم بالنسبة إلينا نحن الأطفال، هو الطعام. وقت الوجبات لا يأتي إطلاقاً قبل أوانه. كلنا ننتظر بصبر حتى تجهّز أمي الطاولة، ثم نصنع طابور نحلٍ في انتظار الأكل، وأنا أزحف بينهم على مؤخرتي. غالباً ما كنت آتي الأول في الطابور، وذلك عبر رمي نفسي أسفل كرسي ليرى الآخرون أنه محجوز، ويأتي أحد إخوتي الكبار فيرفعني ويجلسني على ذلك الكرسي.

ثم يبدأ العراك، كي نرى من سيهزم الآخرين في الأكل، أما الشراب فكان اهتمامنا به قليلاً. هدفنا الرئيس هو أن نملأ بطوننا بأكبر قدر ممكن من الخبز والزبد، دون أن نصل إلى حد الانفجار الفعلي، ثم ننشغل بعملية حرقه فيما بعد. بطبيعة الحال، لم أكن قادراً على إطعام نفسي، لكن هذا لم يمنعني من أخذ دور فاعل جداً في مسابقات طاولة الطعام تلك، وكانت أيديهم تتعب من عملية رفع الطعام ووضعه في فمي.

كأنك تحاول أن تملأ نهر «ليفي» بالطعام بدلاً من الماء.

هكذا كان أبي يعلن عن اعتراضه على المشهد، وهو يمد يده إلى

صحن الخبز للمرة السابعة أو الثامنة. يحاول كل واحد منّا هزيمة الآخرين، ويطلب كل واحد منّا كمية جيدة لنفسه، إلا أن بيتر كان الفائز دائماً.

عندما تقول أمنا:

– كم قطعة؟

كلنا نصرخ:

– ثلاث شرائح.

ثم بعد الشاي، عندما نقرر ألا نخرج، فإننا نجتمع كلنا ثم نلعب لعبة الاستغماية، أو لعبة ضربة الرجل الأعمى.

في مثل هذه المناسبات، عندما يرى والدي ما يجري على قدم وساق، كان ينهض فوراً من كرسيه، ويرمي جريدته، ثم يلبس معطفه وقبعته ويخرج قائلاً لأمي:

– سأعود عندما ينامون جميعاً.

وكي يتم تقرير من سيقوم بدور «الرجل الأعمى» كنا نستخدم نصف بنس للقرعة فيرتفع الصراخ:

– صورة أم كتابة؟

أحياناً نأتي بوشاح قديم، أو جورب صوف، نربطه على عيني من يتم اختياره، ثم تبدأ اللعبة. الجميع يركض حول الشخص معصوب العينين ويضحك، في حين يبحث هو بعماء، محاولاً أن يمسك ذراعاً طائرة أو ساقاً تحاول التملص، وطوال الوقت كان يتلقى ضربات بقبضة اليد وربتات ودفعات ودودة. في الحقيقة، لم تكن لعبة وديعة.

أحياناً يقع الدور عليّ للقيام بدور الرجل الأعمى، فيشدون الوشاح على عينيّ، ينتظرون حتى يجد كل واحد منهم مخبأه، ثم يصرخون:

– جاهز؟

قد أتأنى مدة دقيقة، أنتظر أن ألتقط أدنى صوت للأنفاس أو ضحكة تشير إلى مكان اختباء صاحبها، ثم بحذر شديد، أزحف باتجاه الصوت، أدفع بنفسي على مؤخرتي حتى أصل إلى النقطة المنشودة، ثم أطلق قدمي اليسرى بأصابعها المشدودة لتمسك رجل بنطلون بيتر، أو فستان مونا، وعندما أمسك بأحد، كنت أجذبه باتجاهي وألف قدميّ حوله حتى يصرخ أو يلهث قائلاً:

– أنا أستسلم.

عندها فقط كنت أطلقهم، فترفع عني عصابة العينين وتوضع على عيني من أمسكت به.

مرةً، في ليلة عيد القديسين، وكنت حينها في الثامنة من العمر، دعونا بعض أصدقائنا إلى حفلة صغيرة في أثناء خروج أمي وأبي، فأصبح البيت كله ملكنا في تلك الليلة، وقد احتجناه بالكامل، لأننا كنا كثراً، كما أن أخواتي الثلاث أحضرن رفيقاتهن أيضاً، ولهذا صار هناك سبع فتيات وضعف عددهن من الأولاد. الجميع لبس الثياب الغريبة وتنكر في أقنعة مخيفة، وقد أحضرنا بعضاً من الجوز والتفاح وبقية مستلزمات الحفلة. ثم لعبنا لعبة الاستغماية، فحاولت تلك الليلة أن أمارس التذاكي، وذلك عندما سمعت إحدى الفتيات، وتدعى سالي، وهي مخلوقة صغيرة مكتنزة، في الثانية عشرة من

العمر، لها خدان أحمران وشعر أجعد غزير ذو لون أصفر، تقول لأختي مونا إنها ستختبئ في حوض الاستحمام الكبير عند خزانة المؤن حيث لا يتفطن أحد إلى البحث هناك، لأن الجميع سيظنون أنه ممتلئ بالماء. وبالفعل كان الحوض فارغاً، فاعتقدت سالي أنها وجدت المكان المثالي للاختباء.

زحفت بكل سرعة أستطيعها إلى داخل المخزن المظلم قبل أن تصل إليه سالي، وأخفيت جسدي تحت الحوض الكبير الملمع. حولي أشياء قديمة غير ذات أهمية، كحذاء طويل قديم، وملابس وزجاجات بيرة وما شابه ذلك. في كل مرة حركتُ فيها طرف مظلة قديمة مدبباً، كان ينخس أضلاعي، لكنني تمكنت من تحمل الألم. بعد بضع دقائق، سمعت صوت شخصٍ يدخل المطبخ ويمشي باتجاه الحوض، فاختلست النظر، ومن خلال بقعة الضوء القادمة من شق في الباب في داخل المطبخ، رأيت النصف الأخير من ساقين بيضاوين نحيلتين، والصندل الذي يغطي القدمين، فعلمت أنها سالي. سمعت صوت تسلقها إلى داخل الحوض، لكنها لم تسحب غطاءه على نفسها كما ظننت، فقلت لنفسي:

– كم هي حمقاء!

فلو دخل أي واحد فسيكون من السهل عليه رؤيتها حتى في الظلام، لأنها كانت ترتدي فستانا أبيض من حرير.

وبالفعل، أتى شخص آخر بعد بضع دقائق، وبسبب صوت دقات المسامير في حذائه الطويل على الأرض الإسمنتية، علمت أنه أحد الأولاد. كنت أنتظر هذا، إذ كانت خطتي أن أصرخ ليأتي

أحد فيمسك بسالي قبل أن تهرب. أخذت نفساً عميقا، استعداداً للصراخ. لكن في اللحظة التي تليها سمعت وقع الحذاء ذي المسامير يخطو باتجاه الحوض، وصوتاً عرفت أنه صوت تشارلي أحد أصدقائنا، يتحدث في همس:

– سالي.. هل أنت هنا؟

ردت سالي فوراً:

– تشارلي.. نعم.. أنا أنتظرك.

ثم أضافت بحذر شديد:

– لا تحدث أي صوت.

لن أحدث.

قالها وهو يرفع جسمه فوق حافة الحوض، ثم انزلق إلى داخله. بعدها،سمعت صوت الغطاء وهو يغلق عليهما. زحفت من نقطة اختبائي وأنا أشعر بتشنج في رقبتي، وجلست إلى جانب الحوض لأستمع لما يدور فيه. من الداخل خرجت أصوات ضحكات مخنوقة، فزحفت مقترباً أكثر،ووضعت أذني على جزء من الغطاء فيه فراغ قدره بوصتان.. أستطيع الآن أن أسمع بوضوح.

أتحبني؟

سمعت سالي تسأل.

– بالطبع.

رد تشارلي.

وكان هذا مصحوباً بصوت قبلة عالٍ، فابتعدت وأنا أشعر

بالقرف، لأنني شعرت أن في هذا شيئاً من التأنث من جانب تشارلي، إذ يفضل ملازمة فتاة بدلاً من أن يكون مع بقية الأولاد. كنت أزحف باتجاه الباب عندما خطرت ببالي فكرة.

ابتسمت لنفسي في الظلام وأنا أزحف عائداً إلى الحوض. حاولت بأقصى قدرة أملكها ألا أحدث أدنى ضوضاء وأنا أرفع نفسي إلى أعلى الحوض من زاوية جانبه، واتكأت عليه لأكون أقرب ما أستطيع من صنبوريْ المياه اللذين يصبان فيه. أحدثت بعض الضوضاء، لكن الاثنين في الداخل كانا على ما يبدو في حالة استغراق عميق، حالت دون السماع.

لم أكن قادراً على استخدام يديّ أو قدميّ في تلك الوضعية التي كنت فيها، فتمددت إلى الأمام قليلاً، وأنا أضغط بجبهتي على أحد الصنابير، وبهدوء فتحته برأسي رغم الألم الشديد، فبدأ الماء بالتدفق منهمراً إلى داخل الحوض. رميت بنفسي إلى الأسفل، واتجهت إلى الباب أزحف بسرعة العنكبوت، ومن الخلف سمعت صوت غطاء المسبح وهو يرفع بقوة وصوت سالي المسكينة تصرخ:

– أميّ.. أمي.

وبينما كانت سالي وتشارلي يتدافعان للخروج والنزول إلى الأرض، تسللت من الباب نازلاً إلى المطبخ في الوقت المناسب وقبل أن يمسح أيّ منهما الماء عن عينيه. لم يعد تشارلي ولا سالي بعدها إلى بيتنا مرة أخرى.

عيد الميلاد كان دائماً وقت فرح بالنسبة إلينا، حتى في الأوقات التي مرت ونحن لا نملك ما يمكن أن نحتفل به. وعلى الرغم من أن

النقود في منزلنا كانت شحيحة الوجود، فإن بابا نويل، دائماً ما أتى بهدايا صغيرة، ملفوفة في أوراق ذات ألوان بهيجة، لكي تبدو كبيرة ومثيرة. في أحيان كثيرة، اضطررنا إلى فتح اللفافة بعد الأخرى قبل أن نصل إلى الهدية الصغيرة التي تقبع في الداخل. أشياء رخيصة وبسيطة وصغيرة، تم شراؤها من محلات رخيصة وبسيطة وصغيرة، لم يسمع أحد بأسمائها قط، كتلك المحلات الملحقة بالشوارع الجانبية والزوايا الصغيرة المزدحمة في دبلن. لكن تلك الهدايا كانت تعني الكثير بالنسبة إلينا، وحين تقبع هناك على مخداتنا في صباح عيد الميلاد، فإنها تعني أكثر من قطع لعبة القطار الكاملة أو لعبة السيارة ذات المحرك.

في ليلة عيد الميلاد، يوضع كل طفل في سريره باكراً، باستثنائي أنا. لقد استطاعت أمي أن تشتري جهاز راديو، تدفع من ثمنه نصف كراون أسبوعياً، وفي كل عشية ميلاد كان يسمح لي بالسهر لسماع قدّاس يبث في منتصف الليل من كنيسة آباء الروح القدس في قصر كيميج، لأنني لم أكن قادراً على الذهاب إلى القداس بنفسي كإخوتي الآخرين. علمتني أمي كيفية الصلاة بحيث أصبحت قادراً على متابعة القداس قليلا وأنا أستمع إليه عبر الراديو، غير أني لم أفهم أي كلمة مما يقوله القسيس، خصوصاً عندما يتكلم بلغة غريبة، أخبرني أبي أنها تدعى «اللغة اللاتينية». كنت كثيراً ما أتساءل: لماذا يضطر القسيس أن يتلو كل صلواته باللاتينية؟ وكان بيتر؛ أخي الصغير، يظن أن كل القديسين يتحدثون اللاتينية فقط وأن الله لا يتكلم الإنجليزية!

حاولت أميّ بقوة أن تشجع اهتمامي بالنصوص الدينية المختصرة عندما كبرت قليلاً، لكنها لم تسترع انتباهي كما استرعاه الملك لير، وبناته البجعات. وعندما أخبرتني أمي أن الله خلق العالم في سبعة أيام، تقبلت هذا تقبُّل التسليم ولم أسأل نفسي قط عن هذا الموضوع. لكن عندما أخبرتني بقصة الملك لير طرحت عليها دزينة من الأسئلة عن كيفية تحول أطفاله إلى بجعات، ولماذا فعلت بهم زوجة أبيهم هذا؟ وأسئلة من هذا القبيل، وقد استثارتني هذه القصة أكثر من النصوص الدينية.

عندما أخبرني توني أن الله بنى الكون كله بنفسه، وصفت أخي بالكذاب القذر لأنني سمعت أبي يقول إن البنائين وحدهم هم من يبنون البيوت وأنا أعلم أن الله ليس بناءً كما هي حال والدي.

كان توني فتىً طائشاً وكثيراً ما يقع في المشاكل سواء في داخل المنزل أو خارجه. إنه روميو الصغير، فكل فتيات الحارة يركضن وراءه، على الرغم من أنه لم يشعر بشيء تجاه أي واحدة منهن، ولا حتى نانسي التي يعتبرها الجميع حسناء الحيّ. توني هو أكثرنا وسامة على الإطلاق، شاب طويل شاحب الوجه، قوي جداً، وسريع الغضب. له شعر مجعد أسود وقبضتان كبيرتان، وأسنان بيضاء تشرق عندما يبتسم أو يضحك. كل إخوتي في البيت كانوا يخافون منه، وقد جعلته أول أبطالي.

ساعدته مرة في الخروج من ورطة محكمة. كنت وقتها في الثامنة من عمري، في حين كان توني في الثالثة عشرة. ما حدث هو أنه وصديق له تصارعا على شيء ما، وضربا بعضهما ضرباً عنيفاً حتى

صرع توني رفيقه بالضربة القاضية، ثم توقف كأنما ينتظر عد الحكم. ثم إن شخصاً ما نقل الخبر إلى أبي، وعوقب توني بالضرب المبرح، ثم قرر والدي حبسه في غرفة النوم الخلفية مدة أسبوع. الليلة التي تلتها كانت ليلة عيد القديسين، وكل الرفاق قد اجتمعوا واشتروا المفرقعات والألعاب النارية. الجميع استعد لقضاء وقت ممتع، إلا أن أبي كان صارماً في هذا الموضوع، بمعنى أن على توني أن يبقى في المنزل لكي «يتعلم الدرس بشكل صحيح»، وقرار سجنه نهائيّ لا نقاش حوله.

كان توني المسكين شديد الرغبة في الذهاب إلى الحفل، لكن لا أحد في البيت رغب في مساعدته.

لو كان عندي المفتاح اللامع!

قالها متوجعاً من خلف باب غرفة النوم تلك. أما الآخرون فلم يكونوا يستمعون إليه، الأمر الذي جعلني غاضباً منهم أيضاً. ربما أردت أن أساعد توني فقط، لأريهم أنني أملك الجرأة. لم أكن أعرف بشكل دقيق ما يمكنني عمله، لكنني أعلم أن المفتاح لدى أمي في جيب مئزرها، فقد سمعت أبي يقول لها أن تخفي المفتاح هناك، لأنه المكان الأكثر أماناً.

كيف يمكنني إخراجه من هناك؟ تلك هي مهمتي التي يجب أن أقوم بها.

ثم خطرت ببالي فكرة لم أحبذها كثيراً، إلا أنها كانت هي الوسيلة الوحيدة التي تبدت أمامي. زحفت إلى حيث كانت أمي تجلس على الكنبة تخيط الرداء الكامل overalls الخاص بأبي ووضعت رأسي

في حضنها وأطلقت تنهيدة حزينة عميقة. فنظرت إليّ باندهاش، لأن هذا السلوك لا يتلاءم مع شخصيتي، فقد كنت أكره التدليل. قالت وهي تلقي بإبرتها وخيوطها:

– ما الأمر؟ هل تشعر بتعب؟

فأومأت لها برأسي في ضعف شديد، فأحنت ظهرها ورفعتني إلى حضنها وقالت:

– سنغني أغنية تجعل رجل الرمال يأتي.

ثم بدأت تغني بعض الأغاني الأيرلندية الشعبية برقة بالغة يمكنها أن تجعل أي إنسان يخلد إلى النوم.

أغلقت عينيّ، وفي دقائق كنت أشخر بطريقة «مقنعة» جداً. وبحذر شديد، حركت قدمي اليسرى باتجاه جيب مئزر أمي، توقفت، ثم حركتها من جديد حتى وضعتها في داخل الجيب هذه المرة، وبدأت باستكشاف محتوياته بحذر شديد. كان يحوي بقايا من كل الأشياء، مقصاً، وأزراراً ولفافات خيوط. أوشكت على الاستسلام وفقدان الأمل في العثور على المفتاح، عندما لامس إبهام رجلي شيء فولاذي بارد، فعلمت أنه المفتاح. لففت إبهامي حوله وسحبت قدمي ببطء شديد إلى خارج جيب أمي، قابضة بشدة على ذلك المفتاح.

فعلت كل ذلك بهدوءٍ شديد، وحذرٍ مثله، حتى إن أميّ لم تشكّ بشيء وظنت أنني أتحرك في أثناء نومي فقط. بعد فترة من الزمن، وضعتني بلطف على الكنبة، رامية بسترة قديمة عليّ لتبقيني دافئاً.

ثم إنها ذهبت إلى المطبخ لإعداد طعام العشاء وهي مازالت تدندن لنفسها بعذوبة عالية.

بمجرد مغادرتها إلى المطبخ، رميت بالسترة عنيّ، وانزلقت من فوق الكنبة، زاحفاً بكل سرعة أستطيعها، إلى الباب الذي كان مفتوحاً لحسن الحظ. فخرجت إلى غرفة الجلوس، ثم سحبت نفسي على درجات السلّم، وظهري في الأعلى كأنما هي مشية سرطان البحر، حتى وصلت إلى منبسط الدرج دون أن أكسر عنقي، فجعلت أرفس باب غرفة النوم بقدمي اليسرى، وأتى صوت أخي من الداخل وكله شك في الأمر، فقام يحدثني.

من هناك؟

استطعت أن أجعله يعرف أنه أنا، فسألني:

– ماذا تريد؟

فنخرت قائلاً إنني أحمل المفتاح. على الفور سمعت صوت زحفه من داخل الغرفة، وفي الدقيقة التي تليها كنا أنا وتوني رابضين على الأرض عند جانبي الباب، ينظر كل واحد منا إلى الآخر من خلال الكوة الضيقة أسفل الباب. نظرنا إلى بعضنا، عيناً لعين، لأول وآخر مرة في حياتنا بأكملها.

قال توني وهو يتحدث هامساً:

– جيد، هل تستطيع أن تمرره من تحت الباب؟

حاولت أن أفعل ذلك، لكن الفتحة لم تكن واسعة بالدرجة الكافية لتمرير المفتاح، فكان يعلق في المنتصف.

قال توني بانزعاج:

- سوف أتولى الأمر.

- فأخرج سكينه الصغيرة من بنطاله وبدأ في إزالة بعض خشب الباب حتى أصبح أوسع بنصف بوصة. ثم قال لي:

- جرب الآن.

دفعت المفتاح مرة أخرى فمر في هذه المرة، عندها هتف توني:

- عمل عظيم.

ثم سمعته ينهض من على الأرض وفي ثوان قليلة، كان القفل يُفتح، ثم خرج توني ووقف على منبسط الدرج، وابتسامة عريضة على وجهه. انحنى عليّ وهو يسحب أذني قائلاً:

- أنت قوي كالحجر يا كريس، وأفضل من كثير منهم.

ثم راح يركض عبر السلالم وكأنه عدّاء. توقف في الأسفل، ثم أشار بيده إلي وابتسم، وفي اللحظة التالية كان يفتح الباب الأمامي بهدوء ويخرج.

أخذت السلالم نزولاً بمشقة شديدة، وزحفت إلى المطبخ، وانسللت مرة أخرى إلى الكنبة، في حين كانت أميّ مشغولة بخزانة مطبخها تطبخ العشاء دون أن تشعر بفقدان المفتاح إطلاقاً.

- ما الذي حدث للباب؟

سأل أبي بغضب شديد فيما بعد، ناظراً إلى البقعة التي حفرها توني.

أجاب توني وهو يركع لتأدية صلاته:

- إنها الفئران.

الفصل (4)

هنري

ماتزال عربتي، وأنا في الثامنة من العمر، هي التشاريوت القديمة، وكنت أتنقل فيها كملك متوّج. بدت شيئاً قديماً قبيحاً معطوباً لم يتعامل معه أحد كما يجب، فهي تركل دائماً وتقلب على ظهرها وتدفع وتداس بالأقدام. الكل يطلق النكات على تلك العربة، لكنها بالنسبة إلي، شيء محبب، كما لو أنها من جنس البشر. يبدو أن لها نوعاً من الكرامة الغريبة التي لا يقدرها أحد سواي، لذلك أطلقت عليها اسماً بشرياً هو هنري. لقد رأيت أول معالم الحياة في العالم الخارجي وأنا جالس على مقعدها والريش ملتصق على أطرافها. أستطيع أن أتذكر الريح تلفح وجهي في ذلك اليوم، وهم يركضون بي على امتداد الشوارع المزدحمة. أستطيع أن أتذكر نفسي جالساً فيها، في حين يلعب إخوتي بالورق مع أصدقائهم تحت أحد مصابيح الشارع في ليلة شتاء مظلمة، والمزاريب تتدفق بالمياه فتجري في الطرقات، ينعكس عليها ضوء المصباح فتبدو كأنها أنهار صغيرة من ذهب خالص يلمع في الظلام.

العربة هنري العتيقة كانت عرشي، فيها خبرت المغامرات والأحداث المثيرة مع الآخرين. وقد أخذوني عليها معهم إلى كل مكان، حتى دار السينما المحلية في نهاية كل أسبوع، وربما جَثَمْت على ظهر أخي جيم لذلك الغرض. لاحظت كيف كان يحملق

الأطفال فيّ، وكيف صرخ جيم فيهم أن ينصرفوا، لكنني لم أفكر ولم أفهم السبب، لأنني لم أر أي مشكلة في جثومي على ظهر أخي. كنت دائماً ما أُحمل على ظهر أحد منذ تفتحت مداركي واتقدت ذاكرتي، بيد أني لم أكن أعي تماماً، لماذا يحملونني؟

أحببت الذهاب كي أشاهد الأفلام، كما أحببت الطريقة التي كانت الأضواء فيها تختفي وتغرق دار السينما كلها في الظلام، قبل أن يطلق من الخلف وفوق رؤوسنا شعاع الضوء الرفيع الطويل، ليقع على الشاشة الكبيرة، فيبعث فيها الحياة، باهراً بذلك المشهد أعيننا، ثم تسود المكان سكينة خاطفة وعميقة عندما يبدأ الفيلم.

ذات مرة، وبينما كنا نشاهد فيلماً سينمائياً، حاول بيتر وبعض أصدقائه أن يجعلوني أدخن، كانت تجربة مثيرة بالنسبة إليهم، ولاسيما أن علبة السجائر سرقها بيتر من جيب أبي باكراً ذلك اليوم. لكن، عندما وضعوا سيجارة في فمي، بدأت على الفور في مضغها وابتلعتها بالكامل قبل أن يكون لديهم الوقت الكافي لإشعالها!

نظر إليّ بيتر مرتعباً، متوقعاً أن يتحول لوني إلى الأخضر، أو أن أبدأ في تقيؤ التبغ، لكنني بدلاً من ذلك ابتسمت، وفتحت فمي طالباً المزيد، لكنه لم يعطني أخرى!

ثم أتى الصيف وظهر صف ضئيل واهن من «نبات أذن الفأر» تسلل بجرأة على الحائط، زهوره الصغيرة الزرقاء والبيضاء التي تشبه النجوم رُقّطت باللون الأحمر. الشجرة الكبيرة في حديقة جارنا المقابل تغطت بالأوراق ذات اللون الأخضر الفاتح، والتصقت الطحالب بلحائها وقد بدت ندية مشرقة متكللة بقطرات الندى التي

لمعت كالجواهر في ضوء الشمس. وكان الذباب في الشوارع يحوم ويطن في جماعات حول صناديق القمامة، ويرف حول رؤوس الكلاب التي كانت تنام على عتبات الأبواب أو تلتف على نفسها في الحدائق.

الجو حار جداً، وسنغرق في العرق لو خرجنا إلى السينما. لذا قام أخوتي بتنظيف هنري تنظيفاً ربيعياً وأخذوني في مشوار طويل نحو ضواحي دبلن، أو ربما أخذوني في أيام الأحد إلى حديقة فينكس phoenix park حيث نقضي اليوم مستلقين على العشب، ثم ننطلق منحدرين إلى مقهى دونالي، فنشعل النار ونصنع الشاي في إبريق صدئ، ثم نمضغ الشطائر ونروي القصص عن أشياء لم تحدث قط، حتى يحل الظلام فيحين وقت العودة إلى المنزل.

متعة عظيمة جنيتها من رحلات الخروج الصغيرة تلك. قد يتوقف الناس في بعض الأحيان، ليحدقوا فيّ وفي إخوتي وهم يجرون عربتي، لكن ذلك لم يقلقني، لأنني لم أكن أدري لم يحدقون. ربما دارت فكرة غامضة في رأسي، وهي أن شيئاً ما، بطريقة أو بأخرى، ليس على ما يرام، شيئاً فيّ جعل الناس ينظرون إليّ باستهجان كلما مروا بجانبي. بدت تلك فكرة غريبة وقد أخافتني، لذلك حاولت ألا أفكر فيها على الإطلاق، فقط أردت أن أكون سعيداً، وقد بذل إخوتي كل جهد ممكن لتحقيق تلك الغاية.

أتذكر رحلة صغيرة قمنا بها ذات يوم إلى الريف، خارج دبلن، عندما كان عمري ثماني سنين ونصفاً. ابتدأنا الرحلة في العاشرة من صباح يوم أحد مشرق دافئ في سبتمبر. لمعنا وزيّنا العربة هنري

العجوز في الليلة السابقة، خصيصا للمناسبة، وكنتيجة لذلك جاء زئيرها أقل شراسة ذلك الصباح. رمى بيتر بكتبه في العليّة، وملأ حقيبته المدرسية بالشطائر وزجاجة صلصة كلفت زهاء التسعة بنسات. وحشرت زجاجتا حليب تحت وسادة عربتي، وقد ألحقتا رضوضاً بمؤخرتي في كل مرة ارتجّت فيها العربة. كنا خمسة: أخويّ، وصديقين لهما، وأنا. ارتدينا جميعاً ملابس الأحد، وكان بيتر قد ضمخ رأسه بزيت شعر سرقه من توني.

– أنا مثل كلارك غايبل الآن، أليس كذلك؟

قالها وهو ينظر إلى نفسه في مرآة يعلوها الغبار وآثار الذباب، عُلّقت على الجدار فوق سريرنا. في اللحظة التي تكلم فيها، سمعنا صوت خطى على الدرج وتوني يغمغم شيئاً لنفسه وهو يصعد.

– أنا لست هنا.

همس بيتر وهو يغوص تحت السرير، ثم فتح الباب وأطل وجه توني:

– أرأيتم بيتر؟

قالها وهو يحملق غاضباً في الغرفة.

– لقد ذهب إلى القدّاس.

أجاب بادي تلقائياً وهو يصلح ربطة عنقه.

– لقد سرق «البريلكريم» الخاص بي مرة أخرى.

– قالها توني متذمراً وهو ينزل السلالم مُغضباً.

– هل ذهب؟

سأل بيتر وهو يختلس الكلمات بصوت خافت من تحت السرير.

– نعم، لكنه سيقتلك عندما يمسك بك.

قالها بادي محذراً.

– المكان ممتلئ بالغبار تحت السرير.

قالها بيتر وهو يمسح ثيابه ويقف بلا مبالاة كالعادة.

حسناً، لقد استطعنا الفرار أخيراً، وبعد بضع ساعات، كنا نخيم على ضفة نهر بجوار الجبل. جلست على حافة الضفة مبهوراً، وأنا أنظر إلى الماء المرقش بلون أشعة الشمس، ورأيت أشكالاً صغيرة لأسماك تمر كالظلال داخل المستنقع الأخضر المتموج وخارجه. مجموعة من تلك المخلوقات الفضية تجمعت من تحتي حول صف من الصخور المائلة. رميت حذائي بسرعة وغمست قدمي اليسرى في الماء معتقداً أنني سأصطاد إحدى تلك الأسماك بأصابع قدمي. لقد كنت جاهلاً بسلوك الأسماك التي اندفعت سريعاً منسربة كالموجة، ومنطلقة إلى الضفة الأخرى، بعيداً جداً عن متناول قدمي.

استمتعنا بيوم رائع. غدا بادي صديقاً لبقرة في حقل مجاور، كانت بنية سمينة، بعينين ناعستين وذيل ضخم يلتف حول قدميها الخلفيتين مثل الحبل.

– سوف أحلبها!

قال بيتر، فضحكنا منه جميعاً. وبينما ظلَّ يلاطف البقرة العجوز ويتودد إليها بالهمس في أذنها، استطاع أن يبقيها ثابتة أخيراً، في حين جلس هو على جذع شجرة ووضع الإبريق تحتها، ثم ابتسم لنا وقال:

- راقبوني الآن!

فراقبناه،غير أنه بمجرد أن مد يده ليلمس ضرع البقرة، إذا بها تندفع بسخط وتركله برجلها الخلفية ليتمدد على قفاه، ثم راحت تمشي بتمهل وذيلها يلوّح في الهواء.

- هكذا تفعل السيدات على كل حال.

قالها بادي ونحن نضحك بصخب.

عندما اقترب المساء، توجهنا إلى البيت، لكننا شعرنا بجوع شديد عندما انتصف بنا الطريق، الطعام الذي كان معنا قد انتهى قبل ساعتين مضتا، ولم تبق إلا زجاجات الحليب الفارغة. وقد بدأ المغيب الآن في الحلول، ومازال أمامنا طريق طويل لنقطعه. لم أكن في وضع سيئ، فعلى الرغم من أنني كنت جائعاً، إلا أنني لست مضطراً إلى المشي مثل الآخرين، فقد اكتفيت بالجلوس في حين كان كل واحد منهم يأخذ دوره في دفع عربتي إلى الأمام.

- إنني أتضور جوعاً.

تبرّم بيتر بينما كان كتفاه يتدليان.

- اخرس، أنا أيضاً جائع.

هدر بادي دون أن يتوقف عن المسير.

لام بادي بيتر لأنه لم يحضر القدر الكافي من الشطائر، وأنه ظن جميعها من الدجاج، فرد عليه بيتر بكلمة نابية.

فجأة، بدأنا نفقد القدرة على التحكم في أعصابنا، وعندما وصلنا إلى منعطف في الطريق، رأينا بيتاً ريفياً ضخماً، ببوابة من الحديد المطاوع وسور حجري يحيط به من جميع الجهات، وقد

تغطت واجهة البيت بأشجار الفواكه. فروع الشجر، التي تعلقت بالسور، يتدلى منها ما لذ من فاكهة، فقطعنا سيرنا وتوقفنا.

نظرنا أولاً إلى أشجار الفواكه ثم نظر بعضنا إلى بعض.

– أنا جائع.

أعلنها بيتر للمرة الثانية، وعيناه متسمرتان على التفاح والكمثرى.

– وأنا أيضاً.

قالها أحد رفاقنا وهو يمسح فمه بقفا يده.

– وأنا أيضاً.

قالها آخر وهو يتحسس معدته برقة.

فنظر بيتر حوله بحذر وقال لنا:

– لا أحد في الجوار... لو أحضرتم العربة بالقرب من السور فربما تمكنت من الوقوف عليها.

– وافقنا جميعاً على خطته ما عدا بادي، وهو أكبرنا، فقد حاول أن يحافظ على قدر من كرامته بطريقة فاترة يعوزها الحماس، في حين نظر الباقون إليه كقائد.

عندما رأى بيتر أن بادي لم يقل شيئاً، تحدث هو بصبر نافد:

– حسناً، ماذا سنفعل؟

بقي أخونا الأكبر يراوح مكانه، وينظف حلقه، ثم قال في وقار يغمره اليأس:

– الوصيّة السابعة: لا تسرق.

- جبان... ناقص رجولة.

صرخ الثلاثة الآخرون وهم يهجمون على الجدار، وانحنى أحدهم فثبت قدميه كي يصعد بيتر على كتفيه، فوصل إلى الفاكهة ورماها للولد الثالث، في حين وقفنا في الأسفل نستخدم سترته كبطانية.

لم يستطع بادي التحمل أكثر من ذلك، فدفع عربتي وألقاها على السور وتسلق على أحد جانبيها فلم يبق إلا أن يمد ذراعه ليصل إلى التفاحات الحمراوات وحبات الكمثرى المتموجة بين الأصفر والبني.

عندما جمعوا ملء أيديهم تفاحاً وكمثرى، تكلم بادي قائلاً:

- حسناً، هذا يكفي، لا تكونوا شرهين.

نزل الجميع وعدّوا حصيلتهم وقسموها بيننا نحن الخمسة، وجلسنا في الممر المعشوشب لنأكل. ثم قال بيتر وهو يطعمني قطعة كمثرى:

- سيكفينا هذا حتى نصل إلى البيت على كل حال.

تحدث بادي بورع:

- لا بد أن نذكر هذا في اعترافاتنا.

فرد بيتر وهو يمضغ تفاحته:

- إنها لم تكن خطيئة حقيقية... لا أحد سيفتقد تلك الفواكه.

- من القادم؟

سأل بوب وهو أحد أصدقائنا، وأمال رأسه إلى جانبه باحثاً عن مصدر الصوت كما يفعل الكلب.

لقد سمع صوت أقدام تقترب نحونا، قادمة من الطريق قرب المنعطف.

غمز بيتر بعينه لنا، وهو يزحف إلى الزاوية، مسترقاً النظر حولها بحذر

ثم عاد إلينا راكضاً وهو منقطع الأنفاس:

– يا لتعاستنا، إنه شرطي.

اخضرّ لون بادي من شدة الخوف، وبدا بلا طاقة تمكنه من الحركة، فسأل وهو لا حول له ولا قوة:

– ماذا سيحدث لنا؟

فقال بوب وهو يثب على قدميه:

– انجوا بحياتكم.

– لا نستطيع أن نترك كريستي هنا، أليس كذلك؟

صرخ بادي بينما اقتربت الأقدام أكثر، ثم أتته فكرة فالتفت للآخرين وقال:

– بسرعة... ضعوا كل شيء تحت وسادة كريستي!

لم يكن هناك وقت للأسئلة، وفي ظرف ثوان، جمعوا كل الفاكهة، وأخرجوا نصفي من العربة، ثم وضعوا الفواكه في قاع العربة، تحت الوسادة القديمة المهترئة، ثم دفعوا بي فوقها.

جاء رجل الشرطة يمشي متجاوزاً الزاوية، وعندما رآنا سار باتجاهنا رويداً رويداً وقال:

– مساء الخير يا أولاد.

قالها مبتسماً وربت على رأسي.

- في الخارج... وفي وقت متأخر يا شباب، هاه؟ إنها توشك على الثامنة.

فحاول الأربعة الباقون أن يحافظوا على هدوئهم، وتململوا غير مرتاحين، ورفعوا رجلاً ووقفوا على الأخرى استعداداً للهروب كما تفعل الدواجن.

واصل رجل الشرطة الودود:

- خذوه إلى البيت الآن يا أولاد... لا تتأخروا أكثر من هذا، وداعاً.

وبهذا تُرِكنا، فصعدنا الطريق من حيث جئنا.

انتظروا حتى غاب عن الأنظار، ثم أخرجوا حبات التفاح والكمثرى، إلا أنها لم تكن حسنة المنظر بعد ما حدث لها.

قال بادي متذمرا... عندما رأى الفاكهة:

- أوووه، أعيدوها حيث كانت، إن الله لم يرض عن سرقتنا لها.

وهكذا قاموا برمي كتلة الفاكهة اللزجة من فوق سور المنزل الكبير، ثم واصلنا المسير مرة أخرى إلى بيوتنا. وصلنا قرابة العاشرة ليلاً، ونحن نشعر بخواء أرواحنا.

سألتنا أمي وهي تفتح لنا الباب الأمامي:

- هل متعتم أنفسكم اليوم؟

فنظر بيتر إلى بادي، الذي نظر بدوره إلى بيتر، ثم نظرا إليّ أنا.

- نعم.

قالها بيتر وترك الأمر عند ذلك الحد.

كانت أرواحنا في حال أفضل عندما استيقظنا في الصباح التالي،

وجاء توني وجيم وأخذاني إلى القناة التي لا تبعد كثيراً عن منزلنا، كي نسبح.

كان يوماً قائظاً مريعاً. لم تكن هناك أشعة شمس، فقط حرارة ثقيلة بدت وكأنها تجعل من الهواء نفسه كقوام مادة صلبة خانقة. وصلنا إلى القناة فوجدنا حشداً من الأطفال قد تجمعوا هناك، بعضهم يسبح في الماء، وبعضهم الآخر يكتفي بتحريك يديه وقدميه في الأجزاء الضحلة من الماء. كان أكثر هؤلاء من البنات، يرفعن تنانيرهن ومرايلهن فوق ركبهن، وبعضهن الآخر يستلقي على الضفة الجافة المعشبة يجففن أنفسهن ويرمين الحصى على بعضهن. وقد امتلأ الجو بأصوات الضحكات والصراخ، عند ارتطام الأجساد بالماء، مغطين جانب الطريق بالرذاذ، في حين وقف حشد من المتفرجين على الجسر.

وضعني أخواي في نقطة أستطيع أن أرى منها كل ما يحدث في الجوار. ثم عريا نفسيهما تحت الجسر وغيرا ملابسهما إلى لباس البحر، ثم غطسا في الماء. نظرت حولي، وسط كل الضوضاء والإثارة. شعرت بالحر واللزوجة وقليل من الغيرة، أردت أن أمزق ملابسي وأغطس في الماء مثلما فعل أخواي. فجأة، أحسست بالشعور نفسه الذي راودني ذلك اليوم عندما كتبت أول مرة الحرف «A». لقد شعرت بتوق غريب وتصميم غير واع على أن أفعل ما يفعله الآخرون؛ أن أشعر بما يشعرون به، وأن أعرف ما يعرفون. أردت أكثر من أي شيء آخر في الدنيا أن أقفز إلى الماء.

بعد قليل، خرج توني إلى الضفة وجسده يتلألأ وشعره ملتصق بجبهته، عندها أطلقت صرخة فأتى يمشي إليّ، فقلت له بلغتي النخيرية الغريبة إنني أريد أن أسبح.

– هيّا، يبدو أنك تمزح.

قالها وهو يضحك، فأصررت على موقفي، فأخبرني:

– لكنك قد تغرق.

ما كان لتعليق توني أن يجعلني أقل إصراراً على الدخول إلى عمق الماء، ذلك أنني كنت فتى يحب أن يجرب كل شيء ولو لمرة واحدة. فقال:

– حسناً إذن.

لكن أخي الذي يكبرني جيم رفض الفكرة، وأعلن أنه لن يساعد توني حتى في خلع ملابسي ووضع السترة علي. فقال توني مناشداً جيم:

– أعطنا سترتك إذن، هو لن يستطيع أن يسبح بملابسه.

ثم أخذني خلف شجيرة في جزء هادئ من القناة، وهناك عرّاني من ملابسي. جيم ولد ضخم سمين وسترته أبعد من أن تكون مناسبة لي بأميال. لذلك اضطر توني إلى أن يلفها حولي عدة مرات، وأن يثبتها من الخلف كي تستقر عليّ. أخيراً استطاع أن يجهزني ثم حملني إلى الضفة، ثم توقف ونظر إليّ، وسألني:

– أمازلت تريد أن تغطس؟ أنت لا تمانع في أن تغطس ثم لا تعود

أبداً، أليس كذلك؟

كشرت عن ابتسامة وهززت رأسي. كنت خائفاً لكنني عنيد كذلك، كنت أملك من العناد ما يمنعني من التوقف في تلك اللحظة. جيم المسكين يقف إلى جوارنا يرتعش ويقول:

– لا تفعلها، سوف تقتله.

لكننا لم نعره أي اهتمام. التقط توني فرع شجرة وغمسه في الماء ولوح به راسماً علامة البركة فوق رأسي. ثم أمسكني من تحت ذراعي ورفعني قليلاً، ثم رماني في القناة! بدأت في اللهاث وأنا أشعر بالماء البارد يغمرني، وأحسست بارتباك في ذهني. فكل شيء ذاب وتحول إلى ضباب. لقد أصبحت تحت الماء لثوان ثم ارتفعت ثم غطست ثم ارتفعت ثم توقعت أن أغطس في الماء للمرة الثالثة لكن هذا لم يحدث، بدأت أضرب بقدمي بجنون، وأول شيء أدركته بعد ذلك أنني وجدت نفسي أطفو على السطح مثل واحدة من البجعات البيض التي أراها قريبا في النهر. فظللت أركل بقدميّ بعصبية، وبقيت بذلك طافياً على سطح الماء. سمعت بعد ذلك انفجار ضحكة يأتي من الضفة، وبعد دقائق وجدت توني يسبح إلى جواري فأمسك بذراعي وقادني إلى المياه الضحلة حيث جيم، الذي جذبني إلى الشاطئ، فاستلقيت هناك ألهث لكنني كنت مفعماً بروح الانتصار.

– أنت تستطيع أن تهزم كريستوفر كولمبوس في أي وقت.

قالها توني وهو ينحني نحوي كي يجففني. تلك كانت أول تجربة لي مع السباحة، ولم تكن الأخيرة إذ تبتعها تجارب أخرى

عديدة في الجدول الصخري الصغير الذي اكتشفناه ذات صيف في الغابة. وفي الغالب كنت استلقي على الضفة بينما يلتقط الآخرون التوت الأسود. وأحياناً كنت أنام هناك. كنت سعيداً عندما أجلس هناك أرنو إلى العالم، وألحظ كل شيء عدا نفسي.

ثم حدث ذات يوم أن تعطلت عربتي. فقد انكسر المحور، وانهار الكرسي، ولم يعد بمقدور أحد أن يصلحها. فألقي بها في مخزن الفحم ليعلوها الصدأ.

شعرت بالضياع دونها. إذ لم يعد باستطاعة إخوتي أن يأخذوني معهم عندما يخرجون للعب. فتحدثت أمي إلى أبي وهو خارج إلى العمل وطلبت منه أن يحضر لي عربة جديدة. كدت لا أسمعها وهي تحدثه، لأنني شعرت بكثير من الارتباك والحيرة. لم يكن الأمر شوقاً إلى العربة القديمة ذاتها بل شوقا إلى الشعور الذي أفتقده الآن، وذلك عندما كنت أخرج مع إخوتي. كل شيء تغير، فقدت انكفأت على نفسي. الفكرة الغريبة التي تقول إن هناك شيئاً ما على غير ما يرام، والتي جابت ذهني مرات عديدة قبل الآن، بدأت تلوح بشكل أكبر. وبعد بضعة أيام كنت أجلس في الحديقة الأمامية ألعب بدمى الجنود مع إخوتي عندما أتى رفاقنا يحملون شباك صيد السمك وجرار المربي في حبل، واقترحوا أن نذهب جميعاً إلى الصيد، فقد كان يوماً جميلاً ولا أحد يريد أن يبقى في المنزل. كان هناك تدافع على قصبات الصيد والبكرات، وشعر الجميع بالإثارة. أعلن بيتر عن رهان أنه سيصيد عشرين من سمك البنكين. وتزاحم الجميع على

البوابة جاهزين للانطلاق، إلا أن توني نسي شيئاً، فذهب ثم عاد بعد برهة مع صديق آخر. وعندما نزل إلى الممر مرة أخرى نظرت إليه ببلاهة باعتراض صامت.

كانت هذه أول مرة يذهب فيها توني للصيد دون اصطحابي.

فنظر إلي وقال:

– سوف أحضر لك الكثير من البنكين.

ثم مضى في طريقه سريعاً. وسمعت أحد رفاقه يقول:

– يا له من مسكين.

فضربه توني ضربة أسقطته على الطريق. وانطلقوا جميعاً ليلحقوا بالآخرين. وتُركت وحدي في الحديقة وأنا أنظر ببلاهة إلى يديّ وهما تلتويان وتلتويان.

الفصل (5)

كاتريونا ديلاهنت

شعرت أن عالمي قد ماد بي، وصار مذاق الحياة مُرّاً. تغير كل شيء عما كنت أراه وأحسه، فأصبحت الآن نادر السعادة. قد أجلس عند نافذة في المطبخ وأحدق في إخوتي وأصدقائهم وهم يلعبون مباراة في كرة القدم على الطريق خارج منزلنا، وكيف كان بيتر يسجل الكثير من الأهداف. قد يرفع أحدهم يده لي أحياناً ويبتسم، وقد أحاول أن ألوّح لرد التحية، لكنني عندما كنت أحاول رفع يدي، كانت تهوي على جنبها لترتطم بإطار النافذة، فأقوم برمي نفسي على الكنبة التي خلفي وأدفن وجهي في إحدى زواياها.

أصبح عمري الآن عشر سنوات. ولد لا يستطيع المشي أو الكلام أو أن يطعم نفسه بنفسه أو يلبسها؛ إنه إنسان بلا جدوى. الجديد في الأمر الآن، هو أنني أصبحت مدركاً إلى أي درجة –حقاً– بتُّ عديم الجدوى. وكنت حتى ذلك الحين لا أدرك الكثير عن نفسي. لا أعرف إلا أنني «مختلف» عن الآخرين. لكنني لم أفهم ما هي الأشياء التي جعلتني مختلفاً، أو لماذا يجب أن يحدث هذا الاختلاف.

أعرف فقط أنني لا أستطيع الركض في الجوار، أو أن ألعب كرة القدم، أو أتسلق الأشجار، أو حتى أن أطعم نفسي كما يفعل الآخرون.

لم أستطع أن أفهم منطق هذا الأمر، أو حتى أن أفكر بوضوح فيه.

أستطيع فقط أن أشعر به في أقصى أعماقي، وصميم ذاتي، كإبرة حادة نحيلة شقت طريقها عبر كل خيالات ذهني الطفولي وأحلامه حتى مزقت كل شيء إلى قطع ضئيلة، تاركة إياها غارية وعاجزة عن تجنب الحقيقة القاسية، وهي أنني كنت معاقاً.

حتى ذلك الحين، لم أكن قد فكرت في نفسي قط. صحيح أنه قد أتتني في لحظات، مشاعر مبهمة مفادها أنني لم أكن كالآخرين، تشبه نوعاً مضطرباً من القلق الذهني يأتي ويذهب. لكنها كانت بقعة مظلمة وحيدة وسط أشياء مشرقة، وكثيراً ما كنت أنسى تلك البقعة سريعاً. لقد ذهبت ألعب مع إخوتي، مستمتعاً بالأشياء الصغيرة التي رأيتها من الحياة، لكنني طوالَ الوقت، كنت غير واعٍ بنفسي.

الآن، أصبح الوضع مختلفاً. الآن رأيت كل شيء، لا من خلال عيني ولد صغير يتشوق للمرح ويطفح بالفضول، وإنما من خلال عيني معاق؛ معاق لم يدرك سوى الآن شأن إعاقته.

كم نظرت إلى يدي بيتر! كانتا بنيتين. يدان ثابتتان لهما أصابع عريضة وقوية. يدان بإمكانهما القبض على عصا لعبة الهيرلي Hurley بإحكام، أو أن تتقاذفا حبة كستناء في الهواء.

ثم أنظر إلى يديّ بازدراء. لقد كانتا شاذتين. يدان ملتويتان منحنيتان، لهما أصابع معقوفة تعوزهما الاستقامة. يدان لم تثبتا قط للحظة. كانتا تنتفضان وتهتزان بشكل مستمر، حتى إنهما تبدوان أكثر شبهاً بثعبانين يتموجان، من شبههما بيدين بشريتين.

بدأت أكره منظرهما، ومنظر رأسي المرتعش، وفمي المتدلي إلى الجانب، كلما نظرت في المرآة، لدرجة أنني أصبحت أكره المرايا

وأخافها. لقد قالت لي المرايا الشيء الكثير، وأرتني، ما الذي شاهده الناس في كل مرة نظروا فيها إليّ. قالت لي إن فمي كلما فتحته كان ينزلق إلى الجانب، وكيف كان يجعلني أبدو قبيحاً أخمق. قالت لي إنني كلما حاولت أن أتحدث، كنت أبربر فقط بكلام غير مفهوم، وكان لعابي يسيل إلى الخارج نازلاً إلى ذقني مع كل كلمة حاولت نطقها، في حين يستمر رأسي في الاهتزاز والارتعاش من جانب إلى آخر. قالت لي إنني كلما حاولت أن أبتسم، كنت ألوي فقط قسمات وجهي وأجعّد عينيّ فيتحول وجهي إلى شيء يشبه قناعاً بغيضاً.

خفت مما رأيته، فلم يخطر ببالي أنني أبدو على هذه الشاكلة. لقد نظرت إلى المرآة في السابق، لكنني لم أكن أعرف وقتها عم أبحث، لذا لم أر أي شيء غريب. الآن، وفي كل مرة أنظر فيها إلى المرآة، يبرز لي هذا الوجه المتنافر المتسم بالبشاعة والغرائبية، لينظر إليّ نظرة شزرة خبيثة.

في أحد الأيام، وأنا أغرق في دموعي، تسلقت إلى سريري، ومددت قدمي اليسرى فضربت بها المرآة الصغيرة المعلقة على الجدار ضربة مدوية طيرتها من وتدها وأسقطتها على الأرض حيث تكسرت كِسَراً صغيرة.

عندما سمعت أمي الصوت، جاءت تهرول عبر السلالم وسألتني عما حدث. كل ما فعلته أنني أشرت بقدمي اليسرى إلى حيث الزجاج المبعثر، حيث البقايا الزجاجية تشع مثل الألماس في شعاع الشمس الذي تخلل ستارة النافذة.

هذا معناه سبع سنوات من الحظ السيئ.

قالتها أمي وهي تبتسم وتكنس كل كِسر الزجاج.

بعد بضعة أسابيع استطاعت أمي أن تشتري لي «سيارة جديدة» من كراسي العجزة الحقيقية له مقعد بوسادة وثيرة وإطارات مطاطية.

– الآن تستطيع أن تخرج مرة أخرى.

قالتها بفرح، أما أنا فلم أقل شيئاً.

في اليوم التالي كان إخوتي في غاية الحماس للاستعراض بالعربة الجديدة كما سموها، فأخذوني إلى الشوارع مرة أخرى. كل أصدقائنا القدامى تجمهروا حولنا، وأخذ كل واحد منهم دوره في دفع سيارتي الجديدة وأنا قابع فيها.

قال أحدهم وهو يدعك يده على امتداد ذراعها الجلدي الأسود اللمّاع:

– سمّها مايك.

– لا.

قالها بيتر حاسماً الموضوع برفع أنفه في الهواء:

– سنسميها سيلفستر.

في ذلك اليوم أخذوني كي أشاهدهم وهم يلعبون كرة القدم. لقد كان الأمر كالأيام الخوالي، كل «العصابة» حولي، يطلقون النكات ويفكرون في ألعاب سيلعبونها تلك الليلة. لكنني لم أشعر بمثل ما شعروا به. شيء ما قد خرج مني، أو خرج من الحياة كلها، لكنني لا أدري ما هو. لم أستطع أن أضحك معهم كما كنت أفعل،

بقيت أحدق في وجوههم محاولاً أن أعرف من خلال ملامحهم إن كانوا يلاحظون شيئاً غريباً فيّ. أخفيت وجهي كلما مر شخص غريب بجواري. لكنني لم أكن أستطيع مقاومة الرغبة في أن أرصد كيف سيلقون بنظرة سريعة إلى وجهي تمتد لتصل إلى يديّ، وكيف سيهزون رؤوسهم هزة ذات مغزى، لمن يسير معهم وهم يتجاوزون الطريق، ثم يلتفتون مرة أخرى للنظر إليّ حتى يغيبوا عن الأنظار.

كانت تلك النظرات تخترقني، نظرات من يمرون في الشارع، في حين اعتقد إخوتي أنني لم ألحظ شيئاً، بيد أني لاحظت.

منذ أن انكسرت عربتي الأولى، أصبحت مدركاً اختلافي، على الصعيدين الذهني والجسدي سواء بسواء. لقد أصبحت حساساً جداً، وأسرع فهماً لأولئك الذين ألتقي بهم خارج المنزل، صرت أتابع إخوتي وأصدقائي يلعبون من حولي، بصمت تام، ما عدت أستخدم النخير الذي كنت أطلقه. لم أعد أجد أي متعة في الألعاب. أصبحت مشاهِداً الآن، بدلاً من أن أكون أحد المشاركين في اللعب.

بعد ذلك اليوم، توقفت عن الخروج من المنزل. ربما خرجت مرة أو مرتين في سنة، وكنت أسمح لهم فقط بأخذي إلى أماكن هادئة منعزلة، حيث لا بيوت ولا بشر. لم يفهم إخوتي سبب بقائي في البيت طوال الوقت، فكانوا يطلبون مني أن أخرج معهم لنمرح ونلعب كما كنا نفعل، لكنني كنت أكتفي بهز رأسي والتبسم، فيحكون رؤوسهم، ويهزون أكتافهم ثم يذهبون إلى الخارج.

لاحظت أمي هذا التغير فيّ، وأعتقد أنها كانت تعرف السبب

وراءه، لكنها لم تقل أي شيء. كانت تفهمني أكثر من أي شخص آخر في بيتنا. لم أستطع خداعها، فقد كانت لديها دائماً طريقة خارقة لمعرفة ما إن كنت سعيداً أم حزيناً، كما لو كانت تشاطرني نصف ما أشعر به. لقد رأت الآن أنني كنت حزيناً طوال الوقت تقريباً، ومزاجياً، ومنغلقاً على نفسي. لم أعد أزحف حول البيت كما كنت أفعل، بل كنت أجلس ملتفاً على الكرسي ذي الذراعين، أحدق في النار، أو السقف أو الاثنين معاً.

– حاولت أميّ بمشقة كبيرة أن تعوضني، لأنها رأت كم كنت أشعر بالوحدة، وكم من الخطر أن أترك للوحدة كي تبيض في داخلي وتفرّخ. لذا اخترعت لي أنواعاً من المسليات، ككتابة قصص من الصحف في نسخ رخيصة من ذوات الستة بنسات بقلم رصاص أمسكه بقدمي اليسرى. كانت تمر على ما كتبت، لترى إن كنت نسخت تلك القصص بصورة صحيحة. كتابتي كانت فظيعة، وضخمة، بحروف كبيرة مخربشة، تميل بشكل أفقي إلى أسفل الصفحة ودون نقط أو شرطات أو فواصل، وبالتأكيد، دون علامات استفهام أو تعجب في أي مكان.

وعلى الرغم من أن ذلك ساعد في التخفيف من وطأة الأيام، فإنه لم يستطع أن يبعد عني ذلك الشعور الشنيع بعدم الرضا الذي بدأ يتجذر عميقاً في قلبي. أما الكتابة، أو بعبارة أدق، النسخ، فكان شيئاً لا بأس به، ذلك أنه أسهم في جعلي مهتماً بأمر القراءة على أقل تقدير، لكن هذا كله لم يكن كافياً. كنت أريد شيئاً آخر، شيئاً أستطيع عبره أن أصرف شيئاً من الطاقة العصبية التي تغمرني، أن

أنفق شيئاً من التوتر والقلق الذهني الذي أخزنه كما لو كنت بئراً. سريعاً ما سئمت من مجرد نسخ ما كتبه الآخرون، فبحثت من حولي عن طريقة جديدة أستطيع بواسطتها أن أعبر عن نفسي، لقد شعرت وكأنني محبوس في زجاجة.

الآن، أصبحت في العاشرة والنصف، وقد بدأت أغرق عميقاً داخل نفسي. حاولت أمي كثيراً، لكن لم يكن هناك ما يستطيع استنهاضي. لا شيء يستطيع استعادة ذلك الطفل السعيد الذي كان، ولم يعد موجوداً، إذ حل محلّه مخلوق قلق، صامت، بعينين كبيرتين، وأعصاب بحدة الزجاج المكسور، مشدودة كسلك التلغراف.

ثم حدث في أحد أعياد الميلاد، أن حصل أحدنا على علبة رسومات من بابا نويل، أظنه أخي بادي، وحصلت أنا على لعبة الجنود، لكن بمجرد أن رأيت صندوق رسم أخي بادي، بألوانه الرائعة وفرشاته الطويلة ذات الزغب الرفيع، حتى وقعت في حبه من أول نظرة. شعرت بأنني لا بد أن أمتلكه لنفسي. ذهلت من تلك المساحة الثابتة الصغيرة التي تحوي الألوان: أزرق، وأحمر، وأصفر، وأخضر، وأبيض. في وقت متأخر من ذلك المساء، جلست أرقب بادي حين حاول أن يلفت الانتباه إليه بالرسم على قطعة ورق كرتوني قصها من علبة حذاء قديم. لكنه لم يحدث سوى فوضى على الورقة الكرتونية بطريقة غريبة. شعرت بالانزعاج منه والغيرة.

دمدم بادي وهو يقذف بريشته:

– كارثة... أنا لا أستطيع أن.أستخدم هذه الأشياء! إنها فقط للفتيات.

رأيت عندها فرصتي، فدفعت بقدمي صندوق الجنود المصنوعين من الرصاص نحوه، وطلبت منه «بنخرة» أن يبادلني إياه بالألوان.

هتف بادي وهو مسرور لتخلصه من اللعبة الأنثوية:

– موافق، لكن كيف ستتمكن من استخدامها؟

بالطبع لم أكن أملك إجابة، فقط رفعت قدمي اليسرى، وابتسمت.

حفظت الألوان حتى انقضت إثارة أيام عيد الميلاد. ثم حدث ذات عصر هادئ، أن كنت وأمي وحدنا في المطبخ، فزحفت إلى الخزانة وفتحت بابها بقدمي وأخرجت علبة الألوان ثم وضعتها على الأرض أمامي.

قالت أمي:

– ماذا تفعل؟ أنت لا تنوي الرسم بالتأكيد.

قالت ذلك وهي قادمة باتجاهي حيث كنت أسند ظهري على الجدار. فرددت عليها هازاً رأسي بوقار شديد. التقطت الفرشاة بين أصابعي، وبللتها بفمي، ثم دعكتها على أحد مربعات الألوان– الأزرق الفاتح– الذي كان مفضلاً لدي، ما حدث بعد ذلك أنني دعكت الفرشاة بساقي الأخرى، ثم رأيت البقعة الزرقاء عليها عندما أبعدت الفرشاة، فتمكنت من أن أهتف:

– إنها تعمل.

وشعرت بسخونة في وجهي من الإثارة.

قالت أمي:

– سآتيك بشيء من الماء.

- وانطلقت إلى المطبخ ثم عادت بكأس مليئة، فوضعتها على الأرض بجواري.

لم يكن عندي ورق. فاقتطعت أمي ورقة من دفتر التلخيص الخاص بأخي بيتر. غمست الفرشاة في الماء ثم دعكتها في لون أحمر غامق. وبينما تنظر أمي بتركيز، ثبتّ قدمي، ورسمت على الورقة أمامي، صورة صليب.

تبسمت إليها منتصراً. تذكرت في ذلك اليوم، كيف كنا نجلس على الأرض قبل خمس سنوات، تقريباً في البقعة نفسها من المكان، في حين كنت أرتعش وأغرق في العرق، وأنا أحاول الكتابة بقدمي اليسرى لأول مرة. كانت أمي بجواري في تلك الساعة، وها هي إلى جواري الآن، ومازالت هي مصدر إلهامي ودافعي إلى التقدم.

لم يكن هناك غرق في العرق ولا ارتعاش هذه المرة. أديت المطلوب بصورة سلسة. أنا الآن أمسك بفرشاة رسم، ليست قطعة مكسورة من طبشور، لكن كلتا الصورتين تحمل المعنى ذاته. لقد توصلت إلى طريقة للتواصل مع العالم الخارجي؛ طريقة جديدة كي «أتكلم بقدمي اليسرى».

بمرور الزمن، أصبحت متعلقاً أكثر بعلبة ألواني الصغيرة. رسمت كل أنواع الرسومات المجنونة، من صورة لوجه بيتر، رفضها هو بسخط كبير، إلى صور أسماك ميتة تستلقي في صندوق القمامة، قبل أن يجهز عليها قط الجيران تيبي.

ثم إن أمي تدبرت أمرها واشترت لي المزيد من الألوان والفرش، ومعها كتاب رسم أو كتابان، وقلم رصاص. وسّع هذا، بالتأكيد،

مجال التعبير، وسمح لي بمزيد من الخيارات والمواد. وبعد الأسابيع الأولى القليلة من انعدام اليقين والشعور بعدم الارتياح، جاء الاستقرار والرضا مع سلواي الجديدة. رسمت كل يوم، في غرفة النوم الخلفية بالطابق العلوي. فعلت كل ذلك بنفسي وبشكل كامل.

كنت أتغير، لم أكن أعرف هذا لحظتها، لكنني وجدت طريقاً يمكنني من خلاله أن أكون سعيداً مرة أخرى، وأنسى بعضاً من الأشياء التي سببت حزني. فوق هذا كله، تعلمت أن أنسى نفسي. لم أعد، الآن، أفتقد الخروج مع إخوتي لأنني وجدت شيئاً يمكنه إبقاء عقلي فاعلاً؛ شيئاً يسعد أيامي، وأتطلع إليه.

قد أجلس رابضاً على الأرض مدة ساعات، ممسكاً الفرشاة بين أصابع رجلي، وساقي اليمنى ملتفة تحت اليسرى وذراعاي مشدودان على جانبي، والكفان مثبتتان. كل ألواني وفُرَشي حولي، وقد أطلب من أمي أو أبي أن يدبس لوحة الرسم بدبوس كي تبقى ثابتة. بدوت في وضع غريب، وكأن رأسي بين ركبتيّ، وظهري ملتوٍ كلولب، وبدت الأرضية الخشبية كحامل لوحاتي، لكنني رسمت أجمل ما رسمته وأنا في هذا الوضع.

ببطء، بدأت أنسى أحزاني القديمة، وأصبح عندي شعور بفرحة صافية في أثناء الرسم؛ شعور لم يسبق لي أن خبرته، وبدا على وشك أن يتعالى بي فوق نفسي. فقط عندما لا أرسم، أشعر بالاكتئاب، وأنني حانق على أهلي في المنزل. في البداية، ظنت أمي أنها تفعل الشيء الصحيح عندما كانت تشجعني على الرسم، معتقدة أنها

بذلك تقلص ساعات الكآبة التي أعيشها، لكنها بدأت بعد فترة من ذلك تشعر بالقلق، لأنني كنت أقضي وقتاً طويلاً وحدي. قد أجلس ساعات أرسم في غرفة نومي في الطابق العلوي، غير واعٍ بأي شيء حولي، بما في ذلك نفسي.

كثيراً ما كانت تصعد إلى الطابق العلوي لترى إن كنت أريد شيئاً، تمشي على رؤوس أصابعها لتدخل غرفتي، فتجدني منحنياً على لوحة، والفرشاة بين أصابع رجلي. قد تأتي أحياناً، لتبعد الشعرات العالقة بين عينيّ، وتمسح العرق عن جبيني لشدة انشغالي. وبالإضافة إلى قدرتي على أن أستخدم قدمي اليسرى كما يستخدم بيتر أو بادي أيديهم، فقد كان لهذا أثر رائع على بقية أعضاء جسمي، إذ كنت أجلس طوال يوم كامل وأنا أرسم صورة. وكنت أهز رأسي باقتضاب وأنخر، في الغالب، عندما تأتي أمي لترى إن كنت على ما يرام.

ثم حدث ذات يوم، عندما كنت في حدود الحادية عشرة، أن مرضت أمي ونقلت إلى مستشفى روتوندا حيث وَضَعت هناك ولدها الأخير، وهكذا أكملت الاثنين والعشرين. ظلت أمي مريضة بعد ولادة أصغر أخوتي، وساء وضعها الصحي تدريجياً. كل من في المنزل كان في حالة ضياع لفرط انزعاجه، فدون وجود أمي، كان البيت ميتاً. بدا الوضع أشبه بأن تأخذ قلب الساعة، تاركاً عقاربها عديمة الجدوى. توقفت عن الرسم في تلك الفترة. لم يعد لدي رغبة في أي شيء، لأنني اعتقدت أن أمي ستموت.

كنت مهملاً على كنبة ذات ليلة ديسمبرية باردة عندما سمعنا

طرقاً على الباب. منع القلق أبي، الذي كان يجلس قرب النار ممسكاً بجريدة بين يديه، من القراءة، ومن سماع الطرقات على الباب للوهلة الأولى، لكن عندما طُرق الباب مرة ثانية نهض وانطلق إلى الردهة كي يجيب.

سمعت أصواتاً عند باب الردهة، لكنني لم أكن متحمساً لأن أسمع أي شيء، لأنني كنت في قمة القلق والحزن على أمي. انقلبت على جنبي فقط، دافناً رأسي في زاوية من الكنبة، أقرب شيء إلى الجدار، ثم سمعت الباب يفتح وسمعت أبي وشخصاً آخر يدخلان إلى المطبخ.

– هذا هو كريستي.

قالها أبي. ثم سمعت صوت فتاة تقول:

– هل هو نائم؟

نظرت إلى الزائر وأنا أشعر بشبه دوار. طرفت بعيني قليلاً. لم تطفأ الأنوار بعد، واقتحم الظل الغرفة قليلاً، لكن نور مصابيح الشارع المنبعث من الخارج جعلني أرى أن زائرتي فتاة شابة، ربما كانت في الثامنة عشرة، بدت نحيلة الجسم وطويلة ورائعة، إنها أجمل فتاة رأيتها في حياتي.

ابتسمت لي ابتسامة جميلة وقالت:

– مرحباً... اسمي الآنسة ديلاهنت. أخبرتني أمك عنك.

حاولت أن أقول شيئاً، لكنني أصدرت النخير المزعج نفسه، الذي كنت أطلقه دائماً عندما أحاول أن أتكلم، ابتسمت الفتاة وجلست على حافة الكنبة.

قالت:

– فقلت لنفسي سأتصل وألتقي به، أرجو ألا يكون لديك اعتراض على ذلك.

هززت رأسي بحماس كبير، ثم أخبرتني كيف سمعت عني. وعرفت أنها تلميذة في قسم توزيع الإعانات في مستشفى روتوندا، وأنها التقت بأمي فأخبرتها بأنني أرسم بقدمي اليسرى، لذلك أرادت أن تراني. كان لديها دافع آخر للمجيء، فأمي قلقة علينا وعلى أوضاعنا في البيت من دونها، لذلك قررت الفتاة أن تأتي لتجعلني أكتب لأمي رسالة صغيرة.

قالت:

– هل يمكن أن تقوم بذلك؟

لم أستطع أن أرفض، فرفعني أبي على الطاولة، وأمسكت قلم الرصاص بين أصابع رجلي وكتبت على ظهر ظرف بريدي قديم:

– «أمي العزيزة:

– لا تقلقي، كل شيء على ما يرام. الطعام كثير هنا. أتمنى لك الشفاء العاجل».

كريستي

لم أرد أن أضع أي قبلات في نهاية الرسالة، لكنها أخبرتني أن هذا سيكون أفضل إن فعلته، لذا، ودون رغبة، خربشت قبلة كبيرة في زاوية الظرف البريدي وأعطيتها إياها. غادرتنا كاتريونا لكنها

وعدت بالعودة لزيارتنا، أما أنا فقد ذهبت إلى السرير، وأنا أشعر بدوار.

المرة التالية التي أتت فيها كانت مفاجأة كبيرة لي، لأنها أتت بكميات كبيرة من الألوان والفرش وكتب الرسم، ومعها أخبار طيبة تقول إن حالة أمي الصحية قد تحسنت، وأنها ستعود إلى المنزل قريباً.

كاتريونا ديلاهنت دخلت حياتي في وقت كنت في أمس الحاجة إلى أحد مثلها، شخص بعيد عن عالم حياتي، ليجعلني أدرك كم من الضروري أن أحاول الارتفاع عن المقاييس العادية للأفكار والنشاطات التي تحيط بي، وكي يساعدني على تحقيق توازن أكثر أمناً مع نفسي. إذا استثنينا أمي، فكاتريونا هي أعظم من ألهمني وأنا أواجه السنين والعقبات التي كانت تعترض طريقي. بطبيعة الحال، لم أكن أدرك هذا وأنا ابن الحادية عشرة. كنت أدرك في تلك الفترة فقط أنني التقيت بفتاة أحلامي.

الفصل (6)

الفنان

لقاء فتاة أحلامي الأولى، كان حدثاً له سلسلة من النتائج الفريدة، فقد كنت صغيراً جداً لأعرف إن كان قلبي قد خدع نفسه، وصغيراً على أن ألحظ سوء تصرفي إن كان قد حدث، ففي تلك السن ركزت كل اهتمامي على قدمي اليسرى، أكثر من أي جزء آخر من جسدي، ويشمل ذلك... قلبي.

علاوة على ذلك، أعتقد أن مشاعري العاطفية في تلك الفترة، كانت تماثل مشاعر أي شاب صغير في مثل سني، ممن لديهم أقل قسط من خيال. وعلى الرغم من أنني كنت مرتبكاً وخجولاً عندما تأتي الآنسة ديلاهنت لزيارتي، فإنني أصبحت بالتدريج، أكثر هدوءاً وغدوت أملك القدرة -فعلاً- على أن أتطلع بكثير من الاشتياق إلى الأيام القادمة التي ستأتي فيها. كنت أجعل أميّ تسرح شعري بعناية كبيرة، ملقياً أوامري عليها بأن تجعل في شعري أكبر عدد ممكن من التموجات. ومثل بيتر، طلبت منها مرات عديدة أن تأخذ لي من زجاجة زيت الشعر الخاصة بأخينا توني، التي اشتراها بثمانية بنسات، لتضع منه على شعري قبل كل زيارة لكاتريونا.

مازلت لا أستطيع الكلام على نحو مفهوم، لكن هذا الأمر أصبح غير مهم، ولم يبد شيئاً شنيعاً في كل مرة التقيت فيها صديقتي الجديدة. بدت الحكاية، وكأننا نملك لغة خاصة بنا نحن الاثنين تنبع

من اللاوعي؛ طريقة فريدة وغريبة في التعبير عن ذاتينا وفهم بعضنا دون أن نعيها.

في ذلك الوقت، لم أكن أعرف أي شيء عن علم التخاطر العقلي. ورغم ذلك، لا أعتقد أن هذا العلم نفسه يستطيع أن يصف بصورة دقيقة، الطريقة التي أستطيع عبرها مخاطبة الآنسة ديلاهنت دون أن أحتاج إلى النخير.

بدأ عقلي يوسع من مداركه، ففهمت المزيد عن نفسي، وعن المشاهد التي تحدث -بسببي- أمام ناظري، عرفت ذلك دون الحاجة إلى شخص آخر ليخبرني بما يحدث. والسبب في ذلك أنني بدأت أشعر وأفكر أكثر من ذي قبل، وهكذا أصبحت أعرف أكثر. أصبحت أعرف نفسي لأنني أصبحت أعبر عنها وغدوت قادراً على أن أستوعب كل ما يوجد في محيط ذهني، غير أنني مازلت جاهلاً بنفسي مقارنة بالنور الذي لم يأت بعد.

ولعي العميق بالرسم، قادني إلى الشعور بالسعادة ومزيد من الهدوء الداخلي، فصارت نزعتي إلى العنف أقل؛ أعني ذلك الميل للرد العنيف عندما يسألني الآخرون عن أي شيء أو يتحدثون إليّ، كل هذا أصبح الآن أقل من السابق. أصبح الرسم الولع الأعظم في حياتي، والمحور الأساس لحركاتي وسكناتي. حقاً، لقد عشت في فلك لوحاتي وفُرَشي.

فوق هذا، لم يكن الرسم وحده هو الذي ملأني بالشعور بالسعادة، لأن الرسم نفسه لم يكن كافياً، فالذي أسعدني هو حقيقة أني أرسم لأسعد شخصاً آخر؛ إنه ذلك الشعور بالجدوى والفائدة، الشعور

بأن لوحاتي وصوري مكرسة لمن شابهت الإلهة في نظري.

أما فتاة أحلامي الفاتنة، فإنها لم تكن مسرورة بتقبل لوحاتي كهدايا فحسب، وإنما تشوفت إليها بتوق كبير. كان هذا من أفضل ما لديها من مزايا؛ تلك البراعة في جعلي أشعر بأنني مفيد ومسؤول.

ربما رسمت رسومات سيئة، كل ما فعلته فيها هو رسم مناظر طبيعية قبيحة، بكتل بنية اللون وخضراء مبعثرة بطول الورقة وعرضها، وبحر كبير لزج ولون أزرق في الأعلى يفترض فيه أن يمثل السماء، إلا أن الآنسة ديلاهنت دائماً ما تحدثت عن تلك اللوحات وكأنها قطع فنية نادرة. ومع هذا التشجيع، بدأت في الرسم بشكل أفضل وثقة أكبر.

خلطت كل ألواني، رتبت رسوماتي على الأرض، وأعددت قلم الرصاص وفرشاتي، كل هذا فعلته بقدمي اليسرى. لدى أهلي في البيت الإرادة الكافية لمساعدتي في تلك المهام، لكنني لم أكن أثق بهم، فنيّاً، لأنه لا أحد منهم يعرف أدنى شيء عن اللوحات أو الفرش أو كيف يمكن الاعتناء بها. كنت أخاف أن يحدثوا ضرراً بأدواتي الغالية، لذا فضلت أن أعتني بها بنفسي.

في البداية، كنت أخزن كل لوحاتي في صندوق قديم من الورق المقوى وأحفظها تحت سريري، بيد أن أبي صنع لي صندوقاً خشبياً لأحفظها فيه، فأسميته «صندوق الأدوات».

ثم حدث في أحد أيام ديسمبر، قبل عيد الميلاد ببضعة أسابيع، أن كنت أقلب صفحات جريدة صنداي إنديبندانت Sunday independent بقدمي، عندما رأيت إعلاناً عن مسابقة لرسومات عيد

الميلاد للأطفال من سن اثنتي عشرة حتى السادسة عشرة. تجاوزت في تلك الأيام، الثانية عشرة بقليل، لذلك كنت مؤهلاً للدخول. كان صباح أحد، كل إخوتي الآخرين قد خرجوا في جماعات، وأمي كانت في مطبخها تغسل الملفوف للعشاء، في حين جلس أبي بجوار النافذة يقرأ جريدته. نظرت إلى الإعلان مرة أخرى. الصورة التي يجب تلوينها، كانت لمشهد من قاعة رقص سعيدة وسندريلا ترقص مع أمير الأحلام في وسط المكان، يحيط بهما الراقصون الآخرون، الجميع ارتدوا أزياء أنيقة، ولبس الرجال جوارب مشدودة على الجسد وسترات ضيقة، أما السيدات فارتدين تنورات فضفاضة، وتدلت من فوق رؤوسهم الثريات.

قلت لنفسي إنها ستكون صورة جيدة للرسم، وانجذبت إلى الفكرة، حتى أنني رأيتها كلها وهي كاملة تتوهج بالألوان كلما حدقت فيها. رأيت كل هذا بوضوح لدرجة أنني شعرت بأنني أنهيت تلك اللوحة.

ناديت أمي من المطبخ وأريتها الخبر عن المسابقة.

قالت أمي:

– جرب.

فهززت رأسي وغمغمت بكلام غير مفهوم خلاصته أنني لم أكن كفوءاً لذلك بالدرجة المطلوبة.

قالت أمي:

– هذا سخف، لا يجب عليك أن تكون عبقرياً، فقط حاول.

ثم فعلتها. رسمت اللوحة في تلك العصرية، بل رسمتها بصورة

أفضل مما كنت أتوقعه. أوليت «سندريلا» اهتماماً خاصاً. جعلتها تفيض سحراً وفتنة، بخدين ورديين، وحلق أذن ذهبي، وفستان أزرق جميل. حذاءاها الأبيضان المصنوعان من الساتان يظهران بنعومتهما من تحت الثوب كفأرين صغيرين. رسمت حلّة أمير الأحلام باللون الأرجواني الفاتح، وبما يشبه المسحة الفنية، قررت أن أرقشها بنقاط صغيرة من اللون الأصفر محاكياً بذلك مظهر الأحجار الكريمة. لونت عينيهما باللون الأزرق، غير أني وضعت مسحة من اللون الأخضر في عيني الأمير.

شعرت بالرضا عندما أنهيت اللوحة. لم أكن أريد أن يكون لدي ارتباط حقيقي بالمسابقة لأنني في قرارة نفسي كنت أعتقد أنني لا أملك أي فرصة للفوز. لكن بالإضافة إلى أنني لم أكن أرفض طلباً لأمي، ولم أكن أستطيع ألا أستجيب لما تطلبه مني فتاة أحلامي التي أخبرتها أمي عن المسابقة وأرتها اللوحة التي لونتها، قالت الآنسة ديلاهنت إن عليّ أن أدخل المسابقة دون أدنى تأخير. بالنسبة إلي كان هذا بمثابة الأمر الذي لا نقاش فيه.

عدت مرة أخرى إلى اللوحة بعناية شديدة، وأضفت لمسات أخرى هنا وهناك، وزدت من تناغم الألوان قليلاً. ثم طلبت من أميّ أن تضعها في ظرف وتختمه وترسله إلى مكتب الجريدة في اليوم التالي.

كنت أعتقد أن الأمر كله لا يعدو مجرد تضييع للوقت، وسريعاً ما نسيت القصة برمتها. لم يكن لدي أدنى أمل في دخول عالم الفوز، ولا حتى بواحدة من جوائز الترضية الصغيرة. لذلك عدت

إلى الرسم بالوضع المعتاد في بقية أيام ذلك الأسبوع سعيداً لأنني أسعدت الآنسة ديلاهنت بأن نفذت ما طلبته مني، رغم إيماني بعدم جدواه.

في صباح الجمعة التالية، سمعت طرقاً على الباب. كانت أمي في المطبخ تغسل بعض الملابس، فجاءت لتفتح الباب ويداها مغطّاتان بفقاعات الصابون. في تلك اللحظة كنت موضوعاً على الطاولة الدائرية في «مرسم المطبخ»، وحولي كل فُرَشي ولوحاتي. وذاك مكان لم أعتد أن أرسم فيه، فلقد كنت أفضل أن أؤدي عملي في غرفة النوم بالطابق العلوي حيث يمكنني أن أكون وحدي. لكن في ذلك الصباح تحديداً، قررت أن أرسم في المطبخ من باب التغيير.

أجابت أمي الطارق، فتبين أنهما صحفي ومصور من الإندبندانت جاءا لرؤيتي. عرفت منهما أن الآنسة ديلاهنت ذهبت إلى الجريدة وأخبرتهم أن إحدى الرسومات التي وصلت إلى مكتب الجريدة هي لولد يرسم بأصابع رجله. يبدو أنهم قد شكوا في حقيقة ذلك فقرروا أن يرسلوا أحد صحفييهم ليتأكد من صحة الخبر ويعرف القصة كلها.

عندما دخل الصحفي والمصور إلى المطبخ، كنت أضع اللمسات الأخيرة على لوحة لجزيرة استوائية من جزر بحر الجنوب بخوْرها الأزرق، ونخلها المتموج، وشواطئها ذات اللون البني المذهّب.

عندما فتح الباب، نظرت إلى القادمين، فرأيت اثنين من رجال الصحافة وقفا وأخذا يحدقان بطول المكان وعرضه، يحدقان بي،

وأمي خلفها قليلاً. شعرت بالارتباك، فعدت إلى الرسم مرة أخرى بسرعة.

سمعت أحدهما يرفع عقيرته مرتعباً:

– إن الأمر حقيقي.

لقد أدخلت أمي هذين الرجلين إلى البيت وعرفت الآن من هما.

قال أحدهما:

– لقد وجدنا القصة صعبة التصديق في البداية يا سيدة براون، لكننا الآن...

سألا أمي أسئلة كثيرة عني، وبينما كانت تحكي لهم قصتي الصغيرة من البداية حتى وصولي إلى هذا السن، أصبحا أكثر انبهاراً من ذي قبل. كل هذا حدث وأنا أرسم بهدوء، أحاول أن أبقى هادئاً بكل ما استطعت من قوة. ومع مرور الوقت، أخذا لي صورة وأنا أجلس على الطاولة، وريشة الرسم بين أصابع رجلي، وحامل اللوحات أمامي؛ ذلك الحامل الذي أهداه لي صديق قبلها بعدة أشهر، ورغم كونه مفيداً فإنني كنت أفضّل الرسم على الأرض، وكان ذلك الحامل لا يظهر إلا في المناسبات، كي أظهر أكثر بصورة «الفنان».

كانت تلك الصورة، هي الأولى.

في صباح الأحد التالي، كنت متمدداً بارتياح في سريري وأخي بيتر إلى جواري، بين النوم والإفاقة، عندما سمعنا أبي يركض صاعداً السلالم. دخل الغرفة وسحبني إلى وضع الجلوس وهو يهز نسخة من

جريدة «الصنداي إندبندانت» أمام وجهي ويقول:

– انظر.. انظر.. لقد فزت!.

لقد كانت حقيقة. هناك على صفحة في وسط الجريدة كانت الصورة التي أخذت لي في الجمعة الماضية. ولد صغير ببنطال قصير، وساقاه النحيلتان ملتويتان تحت بعضهما. حاجباه المائلان يشيان بشيء من الكبر، وإلى جواره يد ملتوية مثبتة بإحكام كي لا تسقط.

تم إحضار الجريدة إلى المطبخ حيث تتناول العائلة طعام الإفطار وتتحدث بحماسة كبيرة عن نجاحي. وعندما دخل أبي إلى الغرفة وهو يحملني، صمت الجميع عن الكلام. وضعت أمي إبريق الشاي الذي أمسكته وأقبلت تمشي، في حين كان أبي يحملني بين ذراعيه.

قبلتني وقالت:

– لا تتوقف أبداً عن المحاولة يا كريس.

ماذا عن فتاة أحلامي؟

لقد أتت هي أيضاً في آخر ذلك النهار. أخذت يدي بين يديها وقبلتني على جبيني، وقالت لي كم هي فخورة بي.

أنا وقدمي اليسرى.. لقد فعلناها ثانية.

الفصل (7)

نظرة شفقة

بلغت ثلاثة عشر عاماً ومازلت ذلك الفنان الصغير الذي لم يكتشف نفسه بعد؛ فنان لم يتسن له أن يتعرف على قدراته بشكل وافٍ أو أن يستفيد منها بقدر كافٍ، بيد أن الرسم أصبح كل شيء بالنسبة إلي. فبواسطته تعلمت كيف أعبر عن نفسي بطرق حاذقة متعددة، ومن خلاله جعلت كل شيء أراه أو أحسه منطوقاً، كل ما كان يدور في عقلي، كل ما كان يسكن في جسد عديم الجدوى، كسجين في زنزانة يطل إلى عالم لم يصبح حقيقة بعد، بالنسبة إليه.

رأيت بعقلي أشياء أكثر بكثير مما رأيته بعينيّ. قد أجلس ساعات طويلة أحياناً، وحيداً في غرفة نومي، لا أرسم أو أفعل أي شيء. أجلس فقط وأحدق في عالمي الخاص، بعيداً عن كل شيء يتعلق بمألوف حياتي. عندما كنت أغيب في أحلام اليقظة تلك، كنت أنسى كل شيء سواها؛ الأصوات العالية في المطبخ أسفل مني، وبيتر وهو يحاول أن يعزف الهارمونيكا عند عتبة الباب، وصوت موسيقى الجاز قادماً من الراديو في الطابق السفلي، والصوت الحاد المرتفع لبائع الروبابيكيا يتسلل إلينا من الشارع، كل ذلك كان يذوب ويختفي في ضوضاء ضبابية مربكة، ثم تدريجياً، صرت لا أسمع أو أرى شيئاً، أجلس هناك فقط، أفكر.

لم أعد أخرج الآن إطلاقاً. توقفت عن الخروج من المنزل منذ

وقت طويل، كما توقفت عن اللعب مع إخوتي داخل المنزل. حيّرهم هذا في البداية، لكنهم بدؤوا في تقبل طبيعة هذه العلاقة الجديدة بيننا تدريجياً. بطبيعة الحال، لم أغد غريباً عن العائلة، فنحن كثيرون ونعيش سوياً في المنزل نفسه، ومن المستحيل أن أعزل نفسي بالكامل، فأي منا كان جزءاً من كل، إن جاز التعبير. لكنني اضطررت إلى أن أعيش أكثر داخل نفسي. لقد عشت مع إخوتي الآخرين، بيد أني كنت معزولاً عنهم في الوقت نفسه، معزولاً عن كل الأشياء التي تعتبر في غاية الأهمية بالنسبة إليهم، أصبحت سعيداً برفقة نفسي لكنني لم أكن أعرف لحظتها، كم كنت بعيداً عن «الاكتفاء الذاتي». ومع هذا، فقد انسحبت من الحياة العادية لزمن الطفولة، حياة الشوارع والأزقة الخلفية، فوجدت أن قلبي مازال يبعد أميالاً، يسبق نمو جسدي وتطوره، لقد فقدت الرغبة في هذه الأشياء، مرة أخرى، لكن بشكل قوي وحقيقي هذه المرة.

«فتاة أحلام» أخرى دخلت إلى عالمي «المرئي». لم تكن في طول الأولى وجمالها، لكنها كانت في مثل سني. كان اسمها جيني؛ بنت تعيش في بيت يبعد بضعة أبواب عن بيتي، ضئيلة ومفعمة بالطاقة، تبعث الفرح، لها شعر وفير بنيّ أجعد، يؤطر وجهها الجميل الفاتن بعينيها الخضراوين وشفتيها المنفرجتين. لسوء الحظ كانت جيني فتاة مغناجاً عابثة، كان بإمكانها أن تستثير شغباً صاخباً بين كل الأولاد في شارعنا بنظرة من عينيها الفاتنتين. كانوا يعشقونها جميعاً بجنون، ولطالما انفجرت مشاجرات عديدة عندما بدأ الجدل حول أيهم سيتزوجها عندما يغدو رجلاً.

وعلى الرغم من أنني لم أعد أخرج، فإن هذا لم يمنعني من رؤية جيني، لقد عبدتها عن بعد، وذلك من خلال النظر إليها كلما أمكن من غرفة نومي. أصبحت متكاسلاً عن الرسم، لأنني كلما سمعت صوت جيني في الشارع أسفل البيت، كنت أزحف إلى النافذة وأجلس على السرير، وأطلق نظري إلى الخارج حيث تركض وتثب في مرحٍ مع الفتيات الأخريات اللواتي لم ألحظ ملامحهن قط. ذات يوم، نظرت جيني إلى الأعلى، إليّ وأنا أحدق فيها، فشعرت بحرارة في وجهي، وانسحبت، لكنها في تلك اللحظة ابتسمت، فتمكنت من رد الابتسامة لها، فرمت إليّ بقبلة في الهواء. لم أصدق عينيّ عندما فعلت ذلك، لكنها فعلتها مرة أخرى قبل أن تركض في الشارع، حيث شعرها الأجعد الداكن يسافر في الهواء، وثوبها الأبيض تطيره الرياح.

تلك الليلة، قطعت صفحة من كشكول قديم، ممسكاً قلم الرصاص بأصابع قدمي المرتعشة وكتبت رسالة حب إلى جيني، ثم جعلت أحد إخوتي الصغار يوصلها إليها، وهددته بقدمي إن هو لم يوصل الرسالة إلى جيني شخصياً. أخبرتها في تلك الرسالة أنها أجمل فتاة في شارعنا وأنني سوف أرسمها في لوحات كثيرة إن هي سمحت لي، ثم في تذييل سريع، أخبرتها أنني أحببتها كثيراً.

انتظرت عودة أخي بكثير من الشغف والخوف، دون أن أجرؤ على مجرد الأمل في أن ترد علي. بعد نصف ساعة عاد برسالة منها مدسوسة في قميصه الصوفي. أخذت الرسالة وقرأتها بحماس كبير، ناسياً وجود أخي الذي كان يقف محدقا فيّ بطريقة مضحكة وكأنما

يعتقد أنني أصبت بالجنون. قرأت رسالة جيني القصيرة مرات متتابعة، خصوصا الجزء الذي قالت فيه إنها قد تأتي لتراني في حديقتنا الخلفية في اليوم التالي، إن أنا أردت ذلك. انتابني لحظتها، خفقان غريب في داخلي وإشراقة في رأسي، وكنت أشعر بالحرارة والبرودة بالتناوب. بعد لحظات، نظرت إلى أخي وهو يقف واضعاً يديه خلف ظهره، وكان فمه مفتوحاً ونظرة ذهول في عينيه الزرقاوين الكبيرتين اللتين ركزهما على وجهي، فصرخت به أن ينصرف. ركض من الغرفة كأرنب جفول، فألقيت بنفسي على الوسادة وتنهدت، لقد كان قلبي يخفق بجنون.

احتفيت بالموعد في اليوم التالي بكل ما تتطلبه الأناقة، فاستخدمت زيت شعر ماركة توني دي لوكس، كان يتقاطر في الحقيقة على جبهتي. جيني الصغيرة بدت عذبة، جلسنا سوياً ونظرنا في بعض رسوماتي، وأطلقت تأوهات الإعجاب عند عرض كل لوحة من لوحاتي، أما أنا فقد شعرت بالخجل وعدم الارتياح في البداية، بسبب لغتي غير الواضحة واستخدامي قدمي عوضاً عن يديّ. كانت جيني إحدى اثنتين: إما أنها بريئة جداً، أو أنها كانت لبقة إلى حد كبير، لأنها بدت وكأنها لم تلحظ أي شيء غريب فيّ، فقد تحدثت إلي بفرح عن الألعاب والحفلات وأبناء الجيران، وكأنما كنت بيتر أو بادي، وقد أعجبني منها ذلك.

أصبحنا -جيني وأنا- صديقين حميمين، لم نقل أشياء مهمة لبعضنا، لكننا تبادلنا رسائل صغيرة لا تحصى كل أسبوع، وكانت مستعدة لأن تفعل أي شيء كي تراني مساء كل سبت، حاملة لي

بعض الكتب والمجلات التي لم أقرأ أياً منها قط، لكنني كنت أعتز بهداياها كثيراً، لذلك وضعتها جميعاً في غرفة نومي، في خزانة قديمة أكلتها الديدان.

لقد كنت، في الحقيقة، فخوراً بأنني أصبحت -أنا المعاق- صديقاً لأجمل بنت، وأكثر فتاة مرغوبة في حيّنا. كثيراً ما سمعت بيتر يقول بمشاعر مشبوبة إن جيني كالخوخة حلاوة وجمالاً، وأنه مستعد لفعل أي شيء كي يصبح عشيقها. في كل مرة سمعته يقول ذلك، كنت أمتلئ بالفخر العميق والغرور الكبير، معتقداً في نفسي أنني من القادة المنتصرين، لأنني لم أذهب إلى جيني، وإنما هي التي جاءت إليّ.

أصبح بيتر متوجساً في أمرنا، فأتى ذات سبت ووقف بيننا أنا وجيني حيث كنا نجلس في الحديقة الخلفية، رأسانا قريبان من بعضهما، على الرغم من أننا كنا نطالع وحسب في كتاب قصص قديم أحضرته جيني، فاحمر وجهي خجلاً منه. أما جيني فلم تتحرك، رفعت رأسها فقط وابتسمت ابتسامة قصيرة لأخي ثم انحنت على الكتاب مرة أخرى. نظر إليّ بيتر نظرة قاتلة، ثم دخل إلى البيت، ضارباً الباب من ورائه.

ذاك المساء جلست جيني، قبل أن تغادر، هادئة جداً، وهي تعبث لاشعورياً بالكتاب. جعّد بعض العبوس جبينها وجعل شفتها السفلى تندفع إلى الخارج كما كانت تفعل دائماً عندما تريد التفوه بشيء عصي على القول.

بعد برهة نهضت، مترددة، ثم ركعت على العشب بالقرب مني

وقبلتني برقة بالغة على جبيني، فتراجعت بسبب المفاجأة، مندهشاً، لأنها لم تقبلني من قبل.

فتحت فمي محاولا أن أقول شيئاً، لكن جيني ارتدّت إلى الوراء واقفةً في اللحظة نفسها، وتوهج وجهها واغرورقت عيناها بالدموع، ثم ركضت بسرعة من الحديقة وحذاؤها الأسود الصغير يقعقع عند ارتطامه بالأرض وهي تركض عبر الممر الصخري، ثم اختفت في الشارع.

لم تأت لمدة أسبوع بعد تلك الحادثة، ولم تصلني منها أي أخبار، على الرغم من أني أمطرتها بالرسائل، في تلك الأثناء، حاول بيتر أن يثبط همتي بإخباري بقصص كثيرة شريرة عن جيني المسكينة الصغيرة. لكنني لم أصدقه بتاتاً، حتى عندما أخبرني أنها جعلت الأولاد يدفعون لها بنساً مقابل كل قبلة أعطتهم إياها.

– لهذا أنا مفلس دائماً.

قالها بيتر بأسى وهو يحشر يديه في جيوبه.

غالباً ما كنت أجلس في غرفة نومي ليلاً أفكر في جيني، والطريقة التي قبلتني بها في ذلك اليوم في الحديقة الخلفية. شعرت بالانقباض والوحدة، وسألت نفسي وأنا أرتمي في الظلام أعايش وجعاً لا ينقطع: «لماذا لا تأتي؟»، فلم أسمع جواباً سوى شخير بيتر إلى جواري، وهو ينام نوم العادلين.

ثم أتى عيد ميلادي الرابع عشر، ومع بطاقات التهنئة كانت هناك بطاقة تلقيتها ذلك الصباح من جيني، مكتوبة بخط صغير طفولي، غير أنها لم تأت.

رأيتها كثيراً وهي تلعب في الشارع تحتنا، لكنها أبقت عينيها بعيداً عن بيتنا، ولم تنظر إلى الأعلى مرة واحدة. قد أجلس عند النافذة لساعات، راجياً أن تلمحني، ولا ينقطع انتظاري إلا مع حمرة الشفق عند المغيب، فيصبح كل شيء مظلماً، ولا أرى أي شيء آخر يمكنني حفظه في ذاكرتي سوى البياض الخافت لفستانها وهي تركض في الشارع مع الفتيات الأخريات، وجموع ضاحكة من الأولاد تركض خلفهن.

وحتى أخفي خيبة أملي، عدت إلى الرسم بغزارة بعدها، فكنت أرسم كل يوم. رسمت رسومات مجنونة غير ذات قيمة، وليس لها شكل محدد أو موضوع؛ مجرد تخطيطات عشوائية تعبر عن حالة ذهني الذي يغلي بعنف، ملوثاً الأوراق بجنون ولا مبالاة.

ذات يوم، وفيما كنت أجلس في الحديقة الخلفية مسنداً ظهري على صندوق الصابون، سمعت صوت خطوات قريبة فنظرت بضجر إلى حيث الصوت. لقد كانت جيني.

وقفت على مسافة أقدام مني أمام مدخل الحديقة، مسندة جسدها الطفولي النحيل على الجدار الأبيض خلفها. كانت مشرقة كإشراق شمس يونيو، في حين سقط ظلها على الأرض الأسمنتية مائلاً.

كانت تنظر إلي، لكنها بدت نظرة شفقة.

علمت عندها، كما عرفت في مرات عديدة بعدها، كم هي مُرّة وصادمة نظرة الشفقة، وما يمكن أن تمثله لشخص مثلي يحتاج

شيئاً آخر غير العطف والشفقة، كالحاجة إلى القوة المنبعثة من حب إنساني أصيل يُمنح لأضعف القلوب وأشدها حاجة إليه.

طأطأت رأسي أمام تحديقها المشفق، ودون أي كلمة من الطرفين، استدارت جيني ببطء وتركتني وحيداً هناك في الحديقة. لقد أصبحت شخصاً آخر بعدها.

لقد كانت أسابيع «مباركة» سمحت فيها لنفسي بأن أحلم بأنني إنسان طبيعي؛ ولد عادي في الرابعة عشرة اعتقد أنه يعيش «قصة حب» مع أحلى فتاة في الحي كله. وكان أحمق بدرجةٍ كافيةٍ جعلته يقنع نفسه بأنها كانت تبادله الشعور نفسه. والآن، حان أوان نهاية الخداع. لكن أكثر الأشياء مرارة، كان إدراكي أنني أنا من خدعت نفسي، وذلك بالاعتقاد أن إعاقتي ليست مهمة، وأن شذوذ حالتي كان مجرد حالة نفسية. رأيت الآن كم كنت «حماراً» حين خدعت نفسي بتلك الطريقة المذهلة. لقد نسيت نفسي في غمرة اللقاء مع السيدة ديلاهنت، وحداثة أمر لوحاتي، والسحر الحالم الذي أتى مع جيني. لقد وصلت إلى مرحلة التصديق أن ليس ثمة فرق بيني وبين الآخرين إلا ما يصوره ذهني. لقد كانت متعة عميقة أن أضعت نفسي قليلاً في عالم الأحلام؛ في فردوس مستحيل. كانت متعة محضة أن أعمي عينيّ عن كل حقيقة غير سارة، وإن كان هذا لمجرد أسابيع قليلة. لكن هذا كله جعل العودة إلى الواقع في غاية المرارة والعنف.

تغيرت الحياة في المنزل هي الأخرى. بدا لي أن الجميع قد كبروا فجأة، كانت صدمة أن أدرك أن جيم وتوني أصبحا رجلين الآن.

الولد الهادئ جيم، الذي كان يسخر الجميع من طريقته المرنة في التعامل ورقته الأنثوية، وتوني الجريء المتهور الذي طالما استمتع بالشعور بالفوقية نحونا جميعاً في المنزل، لأنه لم يكن يخاف إطلاقاً من الحديث بقبضتيه في أي مناسبة. ليلي لم تعد الأخت الصغيرة ذات الشعر الغامق التي كانت تقود عربتي في صباح يوم الأحد على ضفتي القناة، وتضع البنسات على عيوني كي أخلد للنوم. فجأة أصبحت مخطوبة ومقدمة على الزواج.

ولم يعد بادي تلميذ مدرسة ببنطال قصير وناقوفة أحجار تطل من جيبه الخلفي، وإنما غدا الآن مساعد بناء، بحذائه الطويل وملابس العمل الملطخة بالغبار وآثار الملاط، يدخل بفخر عميق كل جمعة على أمنا، فيعطيها كامل أجره بكل اعتزاز.

مونا تغيرت. تبدل شعرها الرقيق الساقط وخداها الممتلئان ويداها اللتان جمعتا القصر والبضاضة، وهي الآن سيدة شابة جميلة في السابعة عشرة تضع أحمر الشفاه والبودرة، وترتدي حذاء بكعب طويل، وتضرب موعداً غرامياً تقريبا كل ليلة. كانت تحب الرقص أكثر من أي شيء آخر.

بيتر أصغر مني بسنة، ولطالما نظرت إليه دائماً على أنه أخي المفضل. ولأننا في العمر نفسه تقريباً، كنا نتشاجر ونصرخ في وجوه بعضنا دون أي قيود. وهكذا أصبح يعرفني أكثر من الآخرين.

لكنه تغير في عيني هو الآخر، فقد طال بنطاله وهكذا أصبح شخصاً آخر، أكثر مهابة، وغدا من الصعب اختراقه أو الوصول إليه. لم تعد هناك أي وشائج تربطني بإخوتي وأخواتي الذين يصغروني،

فلديهم طفولتهم التي يجب أن يعيشوها، وصداقاتهم الخاصة كالتي خبرتها في السابق. كانوا أطفالاً طيبين، غير أن رهبة أخيهم المعاق تسكنهم، وربما سكن في عقلهم الباطن خوفٌ منه في الوقت نفسه، فعلاقتهم بي ظلت ضعيفة لأني كنت أرسم طوال اليوم في غرفة نومي ولا أراهم إلا لماماً، باستثناء يوم الأحد حين كنت أجلس على الأريكة في المطبخ وأتصفح جرائد الأحد قبل أن أستمع إلى الراديو بشكل مكثف. وحتى في ذلك الوقت لم أكن أقول لهم الشيء الكثير، لأنني لم أكن أنطق بشكل جيد، لكن السبب الأهم أنه لم يكن عندي ما أقوله لهم.

أتى عيد ميلادي الخامس عشر قبل أن أتفطن له، وتمكنت أمي من الاحتفال بالمناسبة. كان اجتماعاً سعيداً حضره بعض أصدقائي القدامى. ودون علمي، قامت أختي مونا بدعوة جيني للحضور. أتت جيني، لكنها لم تعد جيني الصغيرة بوجهها المنمش الذي عرفته في حديقة بيتنا الخلفية، وإنما فتاة في السادسة عشرة، تلبس فستاناً من الساتان الرمادي وأظافرها مطلية وشعرها معطّر.

نظرت إليها عبر الطاولة والتقت عيوننا، لكن كل ما أشبه جيني الصغيرة، كان قد اختفى الآن عندما مشت نحوي وأخذت بيدي دون أي تردد أو خجل وقالت:

– كيف حالك يا كريستي؟ أطيب أنت؟

سألتني هذا السؤال؛ نصفه مرح... ونصفه الآخر ترضية.

– نعم، نعم جيد، لا تنفعل.

قالتها بلطف في حين كنت أكافح عجزي لأقول شيئاً. كدت أكرهها لذلك.

بعد انتهاء الحفلة الصغيرة وذهاب الجميع سألتني أمي إن كنت استمتعت؟ فرددت عليها بالإيجاب. لقد كانت كذبة. فقد ألم برأسي ألم شديد، لكن ما فاق الصداع سوءاً، وكل شيء آخر، كان وجع القلب الذي شعرت به عندما استلقيت للنوم في تلك الليلة.

لقد علمت أنني لم أعد طفلاً، غير أني لم أكبر، كنت في وضع التأهب بين نعمة الجهل في زمن الطفولة واستيقاظ الألم والإحباط في زمن المراهقة. وشعرت بحنين إلى أن أكون جاهلاً سعيداً كما كنت في السابق، لكنني أدركت الآن أن الطفولة قد ولت. صرت أرى مستقبلي العبثي الذي لا أمل فيه، رأيته في ذلك اليوم، في حديقة بيتنا الخلفية...

عندما حدقت فيّ طفلة ونظرة شفقة في عينيها.

الفصل (8)

جدران السجن

لم أعد الآن قادراً على الهروب من نفسي، فقد كبرت كثيراً على ذلك. وبألف طريقة، وعبر كل الأحداث كبيرها وصغيرها، كبرت مع كل يوم يمر، وكل فرد من العائلة وهو يكبر ليصبح ناضجاً على نحو غريب، ومهتماً بذاته وقادراً على إعالتها. بسبب كل ذلك شعرت بنقصي، شعرت بالملل، وضآلة وجودي الشديدة.

كل ما حولي بدا دالاً على النشاط والجهد والنمو، الجميع لديهم ما يفعلونه، فثمة ما يشغلهم ويجعل أذهانهم وأيديهم نشطة. كلهم يملكون اهتمامات، ونشاطات، وأهدافاً بوسعها أن تجعل حياتهم شيئاً كلياً موحداً، وتعطيهم الطاقة والمتنفس الطبيعي والوسيلة الطبيعية للتعبير. أما أنا، فكل ما كنت أملكه قدمي اليسرى.

تبدت لي الحياة كلها كزاوية مزدحمة مظلمة، وأنا محشور في تلك الزاوية، ووجهي في مواجهة الجدار. أستمع إلى كل الأصوات القادمة من العالم الكبير في الخارج، ومع ذلك فإنني عاجز عن الحركة وأخذ مكاني فيه مثل بقية إخوتي وأخواتي وكل الأشخاص الذين أعرفهم. شعرت بأنني أتحرك في مجال محدود ليس إلا، أفكر في الأمور المكرورة نفسها، ومشاعري ومخاوفي هي ذاتها. كنت محبوساً، مبتوراً، ومحشوراً في زجاجة. لقد تُركت وحيداً.. لا شيء لدي سوى محاولاتي المحبطة وأفكاري المحدودة.

وعلى الرغم من أن أميّ كانت دائماً ينبوعاً عظيماً لإلهامي، فلم نعد اليوم نتفق على كل الأمور، نشبت بيننا معارك كثيرة، والشيء الوحيد الذي كنت قادراً على نطقه بسلاسة ووضوح هو:

– اذهبي إلى الجحيم.

وقد قلتها لأمي في إحدى خصوماتنا تلك، حين كنت في حالة غضب عارمة.

النطق ذاته، بدا شيئاً غريباً وغير ملائم بالنسبة إلي، لكنني لم أكن أحتاج للكلمات، فأميّ تعرف ما يدور في داخلي حولها، وأعتقد أن لديها قدرة على أن تقرأ أفكاري. ثمة رابطة غريبة وخارقة للعادة بيني وبين أمي، لدرجة أن الواحد منا قد يصل إلى درجة الخوف من مجرد شعور خطَر ببال الآخر، وكأننا رِجلا عنكبوت لا تتوقفان عن الحركة والاهتزاز، طالما ظلت الحياة سارية فيهما، حتى وإن قيست المسافة بينهما بالياردات.

تعلم أمي أن الألم يتفاقم داخلي، ذلك أن شعوري بحقيقتي ومكاني في هذه الحياة غدا أكثر دقة بتقدم عمري، وهي لا تفتأ تبحث عن كل ما يمكنه أن يلطف هذه الحقيقة ولو قليلاً. لم تتوقف أبداً. تهبني من قوتها وروحها لأجل تلك الغاية، وعلى الأقل، كي أعلم أنني لست وحدي، ولتقول لي إنها تعلم. لقد كانت أقرب إلى صورة رفيق السلاح منها إلى صورة الأم.

كاتريونا ديلاهنت هي الأخرى، أصبحت عوناً كبيراً. وبالنسبة إلى عقل المراهق الذي كنته في تلك الفترة، فإن أحاديثها تدور في فلك أشياء رفيعة في غاية الجمال، لدرجة أنني كنت أتساءل: هل

هذه الفتاة حقيقة ؟ أم أنها شيءٌ من خيال فاتن، أو طيف جميل يمكن أن يختفي في أي لحظة؟

لقد علمت أنها حقيقة عندما سمعت صوتها يصدح في أذنيّ. عندما رأيت مسحة نورٍ في شعرها البني، ورأيت عينيها تبسمان لي حين رأتني جالساً أرسم إحدى لوحاتي التي أنوي أن أعطيها لها. لا... هي لم تكن حلماً، وإنما حقيقة فاتنة.

انطلقت في رسم لوحاتي بالألوان المائية، أرسم أشياء لم أرها قط في حياتي، تخيلتها فقط، مناظر طبيعية... قرية... سفن... أشجار بجوار بحيرة في حديقة... وهكذا. بيد أني الآن أجد الرسم قد تغير ككل شيء آخر، فلم يعد قادراً على إرضائي كما كان في السابق، وعلى الرغم من أنني مازلت أرتاح للرسم، لكنني توقفت عن عشقه. كان ثمة شيء في داخلي، طاقة جديدة واحتياج جديد، لم يكن الرسم يكفيني للتعبير عنهما؛ أن أضع الأحمر الفاتح فوق الأصفر والبني الداكن على ورقة، ثم أعمل عليها فتصير شكلاً. كنت أحتاج إلى شيء آخر؛ وسيلة للتعبير أوسع انتشاراً. لقد نما عقلي وكبر، وتضاءل المجال الذي يتيحه لي الرسم فغدا أصغر من رأس دبوس.

لذلك أصبح كل يوم يمر بوابة يزداد تسلل اليأس إلى داخلي منها، حتى لم أعد قادراً على الحديث بشفتي، ثم اكتشفت الآن، أنني أصبحت عاجزاً عن الحديث من خلال لوحاتي، شعرت عندها أنني أختنق بصورة تدريجية بطيئة.

تذكرت كم كنت حزيناً عندما كنت طفلاً؛ عندما اكتشفت أنني

«مختلف» عن الآخرين. شعرت لحظة ذلك الاكتشاف أن العالم كله قد انتهى بالنسبة إلي، لكني بدأت، الآن فقط، في الشعور بخطورة ذلك «الاختلاف» والمعنى الحقيقي له. عندما كنت طفلاً، بكيت بمرارة عندما صار عندي وعي بإعاقتي، أما الآن فلم أعد قادراً على البكاء، لقد فقدت الراحة التي تمنحني إياها الدموع، فأصبح ألمي كله مخزوناً في داخلي.

ذات يوم، وفي نوبة من اليأس والخوف والذهول من كل تلك المشاعر التي تكتنفني، زحفت صاعداً الدرج إلى الطابق العلوي، ثم ولجت إلى داخل غرفة النوم، وأزلجت الباب. بعدها أخرجت ورقة وقلم رصاص من صندوقي، جلست على السرير وبدأت في الكتابة. لقد قررت أن أنتحر في ذلك اليوم، قررت أن أرمي بنفسي من نافذة غرفة النوم إلى الأرض الحجرية في ساحة البيت.

لكن قبل أن أفعل هذا، كنت على وشك أن أكتب «اعترافاً» كنوع من الوصية الأخيرة والميثاق أتركه من ورائي، فأمسكت قلم الرصاص بشكل حاسم وبدأت أكتب هذا الكلام الفخم:

«إلى من يهمه الأمر، رغم علمي ألا أحد يهمه أمري».

يا لها من جملة استفتاحية مشرقة! هكذا خطر ببالي!

أنهيت كتابة الرسالة وطويتها بإحكام، وتركتها على المخدة، ثم زحفت مقترباً أكثر من النافذة، ففتحتها بقدمي اليسرى ونظرت إلى الخارج. لم أتصور قط أن بيتنا بهذا الارتفاع، فالأرض بدت وكأنها على بعد آلاف الأقدام من مستوى النافذة، على الرغم من أن المسافة ليست سوى اثني عشر قدماً. كان يوما بارداً، وريحٌ قوية

تعصف بالأجواء، شعرت بها وهي تحاول اختراق وجهي وأنا أنظر إلى الشارع، حتى إنني صرت أتنفس بصعوبة. أخرجت إحدى ساقيّ من النافذة، ثم تذكرت الطريقة التي كنا نلعب بها أنا وبيتر عندما كنا أطفالاً، نلعب بدمى الجنود عند طرف الحديقة في ليالي الصيف، نطارد بعضنا بحذر خلف الأعشاب الطويلة.

الآن، استجمعت شجاعتي ورجولتي ووضعت ساقي الأخرى في الخارج. الآن، بلا سبب منطقي، استحضرت عيد الميلاد، ذاك الذي اضطر فيه أبي المسكين إلى أن يقوم بدور بابا نويل في وقت لم يكد يستطيع فيه المشي، وكيف أنه سقط على حذاء بادي الطويل في الظلام، ثم بدأ يؤدي أغنية «كاثلين ميفورنين» وهو مستلق على الأرض والألعاب حوله... أخذت نفساً عميقاً وسحبت نفسي إلى الأعلى بحيث أصبحت الآن جالساً على النافذة، وقدماي تتدليان في الفضاء.

أغلقت عيني...

- سوف تكون سقطة شنيعة، لكنني كنت مصمماً على فعلها. لا شيء يمكنه أن يوقفني الآن. ثم فكرت في كاتريونا ديلاهنت...

فنزلت من النافذة وجلست أبكي كطفل رضيع.

أصبح عمري الآن ستة عشر عاماً. في هذه الفترة تزوجت أختي لِيلي، وكذلك أخي توني بعد عاصفة رومانسية مدوية. أصبح الدور على جيم لينضم إلى صف المتزوجين، وشككت في كون بادي يحترف المغازلة وأنا أراه يلقي على بيتر محاضرات حول تلك العملية

الصعبة، أعني أن يكون لديك صديقة. إلا أن بيتر كان يرد عليه بأن يعرّي صدره قائلاً إنه يمكن أن يعطي بادي بعض الدروس العملية في الموضوع. مونا كانت تخرج للرقص كل ليلة، ودائماً ما تتعارك مع أبي لأنهما لم يتفقا أن الساعة الحادية عشرة تعد وقتاً متأخراً لا يجوز بقاؤها في الخارج بعده. كانت تأتي متأخرة، مرات كثيرة، فتفتح باب الصالة دون أن تحدث صوتاً، وتخلع حذاءها ذا الكعب العالي، وتصعد الدرج إلى الطابق العلوي بنعومة قطة ذات أقدام من النايلون، لتفاجأ بأبي ينتظرها هناك، في نهاية الدرج!

بعد سنة من ذلك كله، ترك بيتر المدرسة وذهب ليعمل بنّاءً هو الآخر، ومساعداً لأخينا جيم. كان أبي يصرح دائماً، أنه مصمم على أن يجعل كل أبنائه بنائين مثله، ولم يتوقف دقيقة قط، ليفكر في أن لديهم رغبة –ربما– في ممارسة أعمال أخرى. نجح أبي في تحقيق مراده، إذ إن جيم وتوني وبيتر صاروا بنائين الآن ويحصلون على دخل جيد.

– سوف يكون بنّاء أفضل من كثير منكم.

– هذا ما قد يقوله أبيّ عندما يكون ثملاً بعض الشيء، وهو يشير إليّ أمام الآخرين.

– سوف تجني خمسة جنيهات في الأسبوع يا كريس، تبني البيوت، وأنت ترتدي ملابسك المنسوجة من القطن، وأداة تمليس الطين في يدك.

أما أنا، فإنني أكره البناء لأنني لم أكن أقدر على أن أضع طوبة في مكانها.

بعد بضعة شهور، انبثق في داخلي شعور جديد، وكان شعوراً مريعاً، لم تعد مجرد تعاسة وسوداوية، وإنما زادت عنصراً جديداً هو الحنق والامتعاض. امتعاض من العالم كله، امتعاض سببه فمي الملتوي ويداي المعقوفتان وأعضائي التي لا جدوى منها. نظرت حولي إلى كل ما هو طبيعي وكامل، وسألت نفسي للمرة المائة، لماذا خلقت مختلفاً؟! لماذا أعطيت نفس مشاعر الناس الطبيعيين وأحاسيسهم؟! لماذا أملك احتياجاتهم وحساسيتهم ذاتها في الوقت الذي أملك فيه جسداً عاطلاً من الناحية العملية؟! فهذا الجسد لم يمنعني من عيش حياة طبيعية فحسب، وإنما جعلني أشعر بالغثيان في كل لحظة أنظر فيها إليه. ماذا لدي كي أتطلع إليه أو أرجوه؟! ما الصورة الذهنية التي يمكن أن أتطلع إليها، وأرجو أن أكونها في المستقبل سوى أن أغدو المعاق الذي يرسم بأصابع رجله؟! لطالما اعتقد الناس بروعة أن أستطيع الرسم برجلي، وأخبروني أن أفخر بتلك النعمة، نعم، هذا صحيح، يا لي من ولد مدهش! لكن ما الفرق الذي يمكن أن يُحدثه أني أرسم بقدمي اليسرى؟ ما الفائدة من قولهم لي إنني مدهش؟ لم أرد قط أن أكون مدهشاً، أردت فقط أن أكون طبيعياً كبقية الناس. ولأنني أؤدي برجلي اليسرى ما يؤديه الناس بأيديهم فقط، يعتقد الناس أنني مدهش وأن هذا شيء رائع. ربما كان كذلك، لكنني لم أعتقد هذا. لقد استخدمت قدمي لأنني عاجز وحسب عن استخدام يدي، لكن هذا لم يشعرني بالفخر قط، أو أنني فريد من نوعي. وفي الواقع فإنني لم أستخدم قدمي اليسرى أمام شخص لا أعرفه جيداً، لأن هذا أشعرني بالسخف والغرابة. لقد شعرت دائماً

بأن ذلك يشبه عروض القردة والفقمات.

ثم جاء يوم خطرت لي فيه فكرة مفاجئة. خلاصة الفكرة أنني طالما كنت شغوفاً بكتابة الرسائل، ومعظمها كان -بطبيعة الحال- موجهاً إلى كاتريونا ديلاهنت. مازلت أذكر يوم كتبت لها رسائل تتعلق كلها بالخيول، ووصفٍ لطفل أمي الجديد، لكنني قررت الآن أن أجرب شيئاً أكثر طموحاً، لا الرسائل فحسب، وإنما القصص، ثم بدأت الفكرة تكبر وتتضخم حتى غزت ذهني بالكامل واحتلته.

لم أقرأ الكثير قبل هذا القرار، إذ إن الكتب كانت ظاهرة نادرة في بيتنا، فالتفكير الدائم في لقمة العيش له الأولوية، وإطعام بطوننا بدا واجباً أكثر حيوية بالنسبة إلينا من إطعام أذهاننا. مع هذا، فقد تعين علي أن أواجه الكثير من الأفكار التي تزحف إلى ذهني، والتي لم أكن أستطيع أن أعبر عنها من خلال لوحاتي وفُرَشي. وبينما أنا مستلقٍ على سريري في يوم شاتٍ، وأحمل عود قش بين أصابع قدمي وأرسم بها تصاميم غير ذات أهمية على النافذة المغسولة بماء المطر، أتى إليّ هذا الإلهام المفاجئ والرغبة في أن أجرب إفراغ هذه الأفكار على ورقة باستخدام الكلمات.

اشتريت فوراً كشكولاً زهيد الثمن، وبدأت الكتابة. فعلت هذا وأنا لا أكاد أدرك ما كنت أقوم به، أجلس هناك، أكتب أي شيء يمكن أن يمر بعقلي، خليط كلمات مجنوناً، جملاً ومواضيع لا علاقة لبعضها ببعضها الآخر، كان الأمر يشبه خلط الألوان والسماح لها بأن تجري بحريّة فتكّون عدداً من طبقات الألوان. تلاعبت بالكلمات، تماماً، كطفل سعيد بلعبة جديدة، أكتب على الورقة ثم

أنظر لكلماتي بشيء من التعجب.

فيما بعد، بدأت في محاولة ربط تلك الجمل مع بعضها وصوغها في قالب واحد، تماماً كما فعلت بلوحاتي. ثم بدأت، أخيراً، في وضع الأفكار كأساس لما أكتبه، حتى غدت بعد فترة قصيرة، أفكاراً حقيقية ولم تعد مجرد كلمات، أو أشكالاً مشتتة، وإنما أفكار لها سيقان.

لقد تعلمت أن أكتب بأصابع رجلي عندما كنت في الخامسة، لكن كان عليّ أن أنتظر حتى أصبح عمري سبعة عشر قبل أن أعلم أن الكتابة يمكن أن تعطيني المفتاح لنمط آخر من الحياة، وأنني قادر عبرها على أن أستكشف مملكة جديدة من الأفكار، وأبني لنفسي عالماً يمكنني أن أعيش فيه وحيداً مستقلاً عن الآخرين، تماماً كما بنى بيتر والآخرون بيوتهم بالطوب. غير أنه عالم كامل لي أنا وحدي، وليس عالماً من الطوب والملاط، إنه عالم جديد بالكلية؛ عالم الأفكار والتصورات.

من تلك اللحظة فصاعداً، أصبحت الكتابة هي اهتمامي الحقيقي والوحيد، وكما كانت فرشاة الرسم صولجاني، أصبح من النادر أن يغادر قلم الرصاص أصابع قدمي. كتبت قصصاً من عالم الغرب الأمريكي القديم، وقصص إثارة وعنف هائلة عن عالم العربات التي تجرها الخيول. كان هذا كله مبنياً على ذاكرتي وما حفظته من أفلام السينما في أيام طفولتي. شخصيات تلك القصص كانوا من المحترفين في إطلاق النار بالمسدس، وهم يمضغون التبغ، ويركبون خيولهم طوال النهار ويشربون الخمر طوال الليل. أما الفتيات، فكن

ذوات أجساد انسيابية، إلا أنهن لم يكن يصنعن شيئاً سوى أن يراقبن ما حولهن ويظهرن الابتهاج ويحتسين الجين.

غالباً ما كنت أبدأ قصة فيها عشرون شخصية، ثم في منتصف القصة، أشعر بالارتباك بحيث لا أدري ماذا سأفعل بكل هؤلاء الناس، لذلك أجعلهم يطلقون النار على بعضهم، بحيث لا يبقى إلا قرابة اثنين من الشخصيات الأساسية، حتى إن كشكولي في الغالب غدا مقبرة لمن ماتوا بالرصاص.

ثم بدأت أصبح عاطفياً، فكتبت قصصاً قصيرة حزينة يجري بناؤها على فكرة «الولد الذي يلتقي بفتاة». تلك الكتابة كانت حالمة بالفعل وممتلئة بالرغبة، وعلى الرغم من أنني استمتعت بكتابتها فلطالما تركتني حزيناً بعد الفراغ منها و«على الحافة» راغباً في الموت، وذلك عندما أتذكر أنني أستطيع تخيل هذه الأشياء بحيوية كافية كي أكتب عنها، غير أنني لا يمكن أن أجربها أو أن أخبرها بنفسي في الحياة الحقيقية.

اتجهت بعد ذلك إلى كتابة قصص الإثارة والتشويق عن المحققين البوليسيين؛ القصص التي يدوي فيها صوت الرصاص وتتكدس الجثث الميتة بغزارة. وعندما أشعر بالكآبة، كنت ألتقط قلم الرصاص وأكتب وصفاً مروعاً لجثث متعفنة تم العثور عليها في القبو أو في العليّة، أو عن صرخات تطلق في الفضاء فجأة في آخر الليل وسط قصر ريفي قديم ملعون.

كنت دائم النزوع إلى الميلودراما في تلك المحاولات المبكرة. لم أكن أرضى بمجرد قتل شخصياتي، بل كنت أقتلهم بأشد الطرق

إيلاماً. إطلاق النار عليهم لم يكن يكفي، بل لا بد أن أقطعهم قطعاً صغيرة وأبعثر في الجوار بقاياهم. كان شيئاً دموياً جداً.

لا أعتقد أنني وصلت إلى أدنى درجات السعادة، لكنني كنت على الأقل مشغولاً لأنني وجدت طريقة أقتل بها رتابة كل يوم. كان المشهد يشبه فتح زجاجة شراب الزنجبيل الغازي حين تدع الفقاعات المكبوتة تهرب. لقد شعرت عندها بأن الحياة أصبحت أقل انغلاقاً.

دائماً، في أي شيء أفعله، وأينما التفت، كنت أشعر بالوحدة وضيق الصدر، في حالة تشبه العيش الدائم مقيداً إلى سلاسل، فوعي عقلي بجسدي طور هذا الشعور وجعله يتضخم، حتى أصبحت المعرفة بالإعاقة كافية لإعطائي شعوراً بالألم يكاد يكون حسياً.

ليس هناك شيء اسمه يوم جديد في حياتي، فكل يوم كان مجرد تكرار لليوم الذي قبله، دون تغيير أو حتى أمل في تغيير.

في سن السابعة عشرة، ازدحم كل شيء في تفكيري. بدأت حياتي العاطفية في الانبثاق، وما كان في السابق مجرد نزوات طفولية، أصبح الآن احتياجاً ناضجاً. ما كان في الماضي مجرد نكد، أصبح الآن سوداوية حقيقية، واشتدت حاجتي إلى أصدقاء من عمري لا تربطهم الشفقة بي؛ أناس أستطيع أن أكون رفيقهم. مجرد كوني معاقاً ولا أخرج من المنزل لا يعني إطلاقاً أنني لا أملك الحاجة إلى ما يملأ حياة الأشخاص الآخرين اليومية: ككرة القدم والرقص وحفلات البيرة والفتيات.

طعنة من الألم اخترقت ذهني، عندما أدركت أن كل روابط الصداقة التي شكلتني في فترة طفولتي أصبحت الآن واهنة، بسبب

هذا الشرخ الذي صنعه الوصول إلى سن المراهقة، فحال بيني وبين الأولاد الآخرين الذين لعبت معهم كطفل. بدا لي الأمر أنني كبرت فقط لأصبح أكثر انزعاجاً وشعوراً بالمرارة، بدلاً من الوصول إلى فهم أفضل لإعاقتي.

ثم حدثت النكبة الختامية، ذات يوم، عندما جاءت كاتريونا ديلاهنت لزيارتي، ورأيت شيئاً يلمع مشرقاً في إصبعها وهي تضع يدها على خلفية الكرسي الموضوع في مجال شعاع الشمس قرب نافذة المطبخ. نظرت مرة أخرى فرأيته، خاتم خطبة من ألماس!

حدقت وحدقت..

بعد بضع دقائق، رفعت يدها وأرت أميّ خاتمها ووجهها محمرّ من الخجل، سائلة إن كان قد أعجبها ذلك الخاتم. بعد أن هنأتها أمي، التفتت إليّ وأرتني ذلك الخاتم، فنخرت، ثم التفت مبعداً رأسي عنها.

قالت لي وهي تبتسم إحدى ابتساماتها الفاتنة، واضعة يدها على كتفي:

– لماذا هذا الوجه الحزين؟ سوف آتي لزيارتك حتى بعد زواجي.

بعدها بعدة شهور، وذات صباح يوم من أيام يونيو الجميلة، تزوجت كاتريونا في كنيسة الجامعة. أحضرتني أميّ لأشارك في مراسم زواجها، تدفعني على كرسي متحرك. حضرت الزواج جموع كثيرة من أصدقائها. عندما خرجت كاتريونا مع زوجها خارج الكنيسة ورأتني، ابتسمت تلك الابتسامة المشرقة التي تضيء

وجهها الحبيب، فلم أستطع مقاومة ذلك.

لم تعد كاتريونا ديلاهنت، فقد أصبح اسمها السيدة ماغواير. اسم جميل جداً، لكنني استغرقت وقتاً طويلاً كي أستطيع التعود عليه. قابلت السيد ماغواير وقد كان إنساناً طيب القلب، لكنني كنت في قمة الغيرة منه.

مرت الشهور، واستمرت الحياة في بيتنا بالتغير، فقد بدونا وكأن هناك عائلتين في بيتنا، الإخوة والأخوات الذين كبرت معهم، في مقابل الذين أتوا بعدنا. كنا نمثل العائلة الكبرى، وهم العائلة الصغرى. مازالت أميّ كما هي لم تتغير صورتها منذ كنت طفلاً. ربما هي الآن أسمن قليلاً، وشعرها الأسود وخطته خطوط رمادية في خصل منه، لكنها مازالت تحتفظ بالابتسامة نفسها، والعينين الزرقاوين المشعتين وخفة الخطوة. أمي من النوع الذي لا يمكن لشيء هزيمته. أما أبي فقد ظهر عليه التقدم في العمر، اختفت كتلة شعره الشقراء، ولم يبق من أطلالها الباقية إلا خصلتان اثنتان على صدغيه تبدوان تماماً ككرتين من الصوف الرمادي تم إلصاقهما بمعجون. ورغم ذلك، مازال قوياً كمسامير الصلب، بيديه اللتين اكتسبتا صلابتهما من رفع الطوب الحجري واستخدام مملسة الأسمنت. لربما علا صوته علينا أحياناً، لكنني أعرف أنه كان فخوراً بنا جميعاً.

أصبحت الآن خالاً، فأختي ليلي أصبح لديها ثلاثة أطفال. كنا نُمازحها بالقول إنها تحاول أن تحطم رقم أمنا القياسي فنقول لها:

– حافظي على تقاليد العائلة يا ليل.. لا تخذلينا!

إلا أنني، وأنا وسط عائلتي الكبيرة، كنت أشعر بأنني خارجهم.

كنت أشعر بأنني رجل غريب. لم أستطع الوصول إليهم، لم أقدر أن أصل إلى الروح التي تملؤهم بالحياة. ربما إنهم لم يتغيروا في الحقيقة، لكنهم أصبحوا في عيني كجدارغير قابل للاختراق. بدا لي أنني في كل يوم يمر، أسافر أبعد وأبعد عن مجال حياتهم. فاللحظات التي أكون فيها وسطهم أشعر فيها بالبعد عنهم والنأي عن كل ما يعملون من أجله ويؤمنون به، ويتفاقم شعوري إلى أقصى مداه.

في ليلة عيد ميلادي السابع عشر، نهضت من الكنبة حيث كنت أستلقي، وتمكنت من الخروج إلى الحديقة الخلفية. كنت أشعر بالحر وأردت قليلاً من الهواء. زحفت وجلست على قطعة خشب مكسورة تحت الشجرة، كنا في شهر يونيو والهواء مليء برائحة الزهور، وأستطيع أن أسمع أخفض الأصوات، من تغريد الطيور وحركتها وهي تقف على فروع الأشجار فوقي، إلى ضجيج أبواق السيارات على مسافة. نور القمر قد رسم ظلاً على الأرض أمامي من خلال الفروع المهتزة في الشجرة العجوز التي توقفت عن النمو، حيث كنت أجلس. النافذة الخلفية كانت مربعاً أصفر من الضوء، وأصوات بشرية مرتفعة وصلت إلى أذني من داخل المطبخ.

كانت ليلة جميلة وهادئة ولطيفة، وفوق ذلك، مفعمة بالحياة. نور القمر جعل كل شيء يبدو فضياً. أكاد أتخيل أنني أسمع ضجيج النجوم وهي تومض في السماء المظلمة.

جلست على قطعة الخشب المكسورة تلك سامحاً لهدوء وسلام الليل أن يتخللاني. يبدو أنني كنت تائهاً في أحلام مضاءة بنور القمر، بعيداً عن كل تلك الأشياء التي صنعت من كل يوم من أيام

عالمي جحيماً أعيش فيه. لوهلة كنت سعيداً، ثم تذكرت المستقبل وهو يتثاءب أمامي كحفرة سوداء، فشعرت بأنني واقع في شَرَك. شعرت بأنني مكبل بالسلاسل.

سألت نفسي وأنا أجلس هناك... من أنا؟ مجرد نكتة عملية من نكت الطبيعة! حياتي بدت لي دون نظام نموذجي أسير عليه. حياة بلا هدف أو قيمة. كنت مسجوناً داخل الجدران التي أشعر الآن بأنها تغلق عليّ كلما تقدم بي العمر. شعرت بحنين مروع للحرية، شعرت بحنين يكاد ينفجر من قوة العاطفة في أن أتحرر وأفر هارباً.

الفصل (9)

لوورد

عشقت الموسيقى منذ سن مبكرة جداً. ففي طفولتي اعتدت الجلوس بجوار الراديو مدة طويلة، أستمع لأي نوع يجذبني من أنواع الموسيقى. تعلمت، تدريجياً، كيف أفرق بين أنواعها، وقررت أن أحب ذلك النوع الذي يكرهه جميع أفراد العائلة ولا يمكن أن يجلسوا لاستماعه. ذلك النوع الذي عرفت فيما بعد أنهم يسمونه الموسيقى الكلاسيكية. مع تقدمي في السن، زاد ارتباطي بهذه الموسيقى، حتى أن أمي عندما تراني جالساً جذلان استمع إلى بث حفل أوركسترا أو شيء من الأوبرا، قد ترميني بنظرة وتغمغم:

– أنت وموسيقاك المجنونة!

لكنني تعلمت في أحد الأيام، شيئاً عن الجمال الحقيقي للموسيقى وأنا جالس أكتب في الطابق العلوي، عندما سمعت صوتاً خافتاً؛ لحناً موسيقياً قادماً من المذياع في الطابق السفلي. وثبت فوراً من سريري وقذفت بنفسي نصف قذفة عبر السلالم، زاحفاً بأقصى سرعة أستطيعها إلى داخل المطبخ. جلست هناك أستمع إلى الموسيقى منتشياً. كانت موسيقى بطيئة، وساحرة، ونبيلة. انساب الصوت في أذني؛ صوت فاتن بصورة لا يمكن احتمالها. شعرت وكأنها تغوص إلى أعماقي، وتلمس الوتر الأعمق فيّ، حتى إن روحي كلها صارت ترتعش بسبب الإثارة. فجلست أُحدق في عالم زخرفته لي الموسيقى،

حتى تلاشت آخر تلك الألحان. بعدها جلست صامتاً لوقت طويل، ثم تدريجياً، وجدت طريق العودة إلى عالم كل يوم. تلك كانت أول مرة أستمع فيها إلى موسيقى لارجو لهاندل Handel's Largo وقد كانت تجربة لا تنسى.

فتحت الموسيقى عالماً جديداً لي؛ عالماً جميلاً مشرقاً، وكان هذا العالم أحياناً سعيداً وصاخباً، غير أنه مليء بالأفكار والحزن في غالب الأحيان. لم أستمع إلى الموسيقى إلا من خلال جهاز المذياع، ولم يحدث أن رأيت أوبرا، ولم أدخل حفلة موسيقية أو سيمفونية في حياتي كلها. وعلى الرغم من ذلك، بدأت في التعرف على أسماء عظماء الملحنين، وصرت أعرف ألحانهم بمجرد السماع. أصبح شوبان المفضل عندي، أستطيع أن أجلس وأستمع إلى بيانو شوبان وموسيقاه طوال اليوم إن سنحت لي الفرصة.

قد يولد لدي شعور، وأنا أجلس مستمعاً إلى الموسيقى، بأن حياتي ليست تافهة وبلا هدف، كما صورتها لنفسي في السابق. يظهر أنني بدأت أراها وقد انتظمت ورُتبت أمامي بعناية كبيرة، كلعبة القطع المركبة (puzzle)، وقد وصلت إلى مرحلة الحل، بعد أن انزلقت القطع، الواحدة تلو الأخرى، وغدت كل واحدة في مكانها. يبدو أنني بدأت أشعر، في أثناء استماعي إلى الموسيقى، بتيار من عواطف وأحاسيس تحتي، جعلني أصمت شاعراً بالأمل؛ أمل جاء ومعه وعد غير واضح أو رسالة أن شيئاً ما سوف يأتي.

غير أنني كنت أشعر بهذه الأحاسيس فقط وقت سريان الموسيقى. أَشْبه هذا كله التقاط نفس من الهواء أو نظرة إلى السماء قبل أن تغلق

النافذة ويقفل الباب مرة أخرى. لم يكن عندي شيء أفعله بعد ذلك سوى أن أعود إلى قلم الرصاص والكشكول، وأراقب ما يحدث، في حين يكبر إخوتي وأخواتي ويذهب كلٌّ في سبيله. لم يعودوا صغاراً، بل غدوا رجالاً ونساء.

وإذا غضضنا الطرف عن الموسيقى، فقد شعرت ببيتنا كسجن يغلق عليّ جدرانه. كم أردت أن أقاتل ضد هذا الشعور بالهزيمة! كم أكره الشعور بأني مهزوم! بيد أن القليل من قوة الإرادة التي ربما امتلكتها يوماً، أراه الآن وهو يتضاءل ويزول. أصبح عندي فزع من مواجهة يوم آخر. أسوأ ما في الكون، أنني بدأت أشعر بأن هناك شيئاً غبياً، شيئاً قاسياً ولامنطقياً، يقف وراء إعاقتي. لم أفكر في الله قط إلا وشعرت بالامتعاض. صليت مع إخوتي كل ليلة، لكنني كنت أفعلها بطريقة آلية، دون أن أضع أفكاري أو صدقي وإخلاصي وراء ما كِنت أقوله. حتى الإيمان كان يتلاشى مني وأنا أكبر.

في أحد الأيام، جاءت إليّ السيدة ماغواير وقالت لي:

– كريستي ، لم لا تذهب إلى لوورد ؟

طوال حياتي كنت أسمع الناس يتحدثون عنها، وطالما شعرت برغبة عارمة في أن اذهب إليها. جزء من هذه الأمنية سببه الرغبة في خوض مغامرة السفر، وجزء سببه أمل عميق متغور في داخل نفسي، أمل لم أكن أجرؤ حتى أن أعبّر عنه ولو لذاتي وهو أن معجزة سوف تحدث لي، بغض النظر عن عدم اكتراثي بالدين.

قلت لها:

– نعم... لكن ماذا عن النقودُ؟

أخبرنا أمي بالفكرة عندما عادت إلى البيت بعد رحلة التسوق فسرّت بذلك. ثم بدأنا في وضع خطط للرحلة. تكلفتها كانت ما يقارب 34 جنيهاً. الناس الذين يرتبون رحلة الحج هذه يقال لهم جمعية لوورد، وقد أعطوني عشرة جنيهات من أجرة السفر. في اليوم التالي، ذهبت أميّ إلى خالتي العجوز واستدانت منها خمسة جنيهات. كان هذا أقصى ما استطعنا الحصول عليه.

قالت السيدة ماغواير وهي تبتسم ابتسامتها الفاتنة:

– حسناً، سوف أحصل على بقية المال بطريقة أو أخرى، سوف أدعو كل أصدقائي وأجعلهم يلعبون لعبة البريدج، مقابل مبلغ ضخم، كرهان خمسة شلنات مقابل مائة شلن، وسأجعلهم يخسرون في اللعب، وسأرسلك إلى لوورد مع فائض من الأرباح.

عندها علمت أن كل شيء سيكون على ما يرام، وهذا ما حدث بالفعل.

قبل ساعات من السفر، كنت في حالة عصبية شديدة. فهذه هي أول رحلة لي إلى الخارج، وأسوأ ما فيها أنني سأسافر وحدي، أو بعبارة أدق، دون أحد أعرفه. أرعبتني الفكرة، فهل سيفهمني الناس الذين سألتقي بهم؟ وكيف سأحصل على وجباتي الغذائية؟ ومن سيساعدني على ارتداء ملابسي واغتسالي ووضعي في سريري؟

حتى وأنا في الثامنة عشرة، مازال هناك من يطعمني ويلبسني ويضعني في السرير، وقد تولى والدي الأمر فيما يتعلق بنداء الطبيعة، فقد كنت عاجزاً عجزاً كلياً، إذا استثنينا قدمي اليسرى.

أوصلتني أمي إلى المطار وكانت معنا السيدة ماغواير وزوجها الذي قاد السيارة إلى المطار. كانت الرحلة في تمام الثالثة صباحاً.

وضعوني على نقّالة تم رفعها إلى الطائرة بواسطة رجلين قويين من رجال الإسعاف، ولأنني لم أكن بالضبط في حالةٍ من يُحمل على نقّالة، وضعت في مقعد بجوار النافذة، مما أسعدني كثيراً. تم أداء كل شيء بمهارة عالية، وكل شيء في الطائرة كان لطيفاً ودافئاً، لدرجة أنني نسيت أن أقلق حيال أي شيء. كان الطبيب لطيفاً، وكذا القسيس والممرضات، ولاسيما واحدة منهن لها عينان داكنتان وشعر أشقر. أسميت تلك الممرضة «الكرزة الناضجة».

سريعاً ما طرنا فوق البحر الإيرلندي، على ساحل ويلز وأخيراً فوق القناة الإنكليزية، فنظرت حينها، إلى رفاقي الحجاج، لأول مرة.

الكرسي الذي بجواري كان لفتاة في التاسعة عشرة من العمر، ذات شعر أسود محمر يؤطر وجهها الجميل، على الرغم من كونه متشحاً بمسحة من الألم. كانت تبتسم بعينيها، على الرغم من أن ساقيها وعمودها الفقري يعانيان الشلل. غزاها شلل الأطفال عندما كانت في العاشرة من العمر، ثم لم تمش بعدها قط. أصبحنا أصدقاء فوراً، وأخبرتني أن اسمها ميري وأنها تعيش في كو ويكلو. تحدثت ميري عن الكتب والأفلام السينمائية وعن أختها التي تذهب للرقص وتأتي بعد ذلك لتخبرها بالتفاصيل.

قالت وهي تنظر بعينين حالمتين عبر نافذة الطائرة:

– كم أحب أن أذهب للرقص، متى سمحت الظروف!

بدت لي سعيدة على الرغم من كل شيء. لكن فيما بعد أطلقت تنهيدة ملؤها الضجر، ورأيتها تمرر يدها على جبينها كما لو كانت إشارة إلى الألم. قالت:

– أرجوك يا الله، سأمشي يوماً ما، وسأذهب لأرقص رقصتي الأولى.

بعد هذا الحديث بيومين ماتت ميري في لوورد.

كان معنا أيضاً شاب من مدينة كيري اسمه داني... شيء ما، وقد فقد القدرة على استخدام رجليه الاثنتين وكذا يده اليمنى، فقط منذ بضعة أسابيع. كل ما كان يستطيع الحديث عنه، هو البقرة التي كان يحلبها في المزرعة. سخرنا جميعاً منه، لأنه يتحدث الإنكليزية بلهجة ريفية، لكن هذا لم يزعجه فاستمر يتحدث عن نيللي... بقرته... وكيف أنه سيعود لحلبها من جديد عندما تتحسن حالته.

وكانت هناك امرأة كبيرة في السن تجلس في الزاوية، يداها أسيرتان للشلل الرعاشي،وقدماها مشوهتان، وكانت تصلي طوال الوقت. وهناك شاب قوي اسمرت بشرته بسبب تعرضه لأشعة الشمس، وكان أعمى كعمى الصخور، وهناك فتاة صغيرة ذات ابتسامة صماء خرساء، تقبض على لعبتها الكبيرة بإحكام. أمامي تومي الرابض، وهو شاب مرح وله صوت نديّ، بيد أنه دون يدين ورجلين. خلفي تماماً، تستلقي امرأة شابة متزوجة أصيبت بعدوى السل بعد وضع طفلها الأول منذ عام، كانت منبطحة على نقالة، شاحبة ومرهقة، تئن بضعف بين الفينة والأخرى. قبل عودتنا إلى دبلن ببضعة أيام، غرقت تلك

المرأة في غيبوبة وماتت، وهي تعاني آلاماً شديدة.

عندما رأيت هؤلاء الناس، وكل واحد منهم يعاني من عذاباته، بدأ يشرق عليّ نور جديد. في الحقيقة، لقد كنت في غاية الاندهاش، لأنني لم أتخيل أنه يمكن أن يوجد كل هذا العذاب في العالم. لقد كنت كحلزونة بعيدة عن كل شيء، مغلق عليها داخل صدفتها الصغيرة الضيقة، والآن فقط بدأت في رؤية هذا العالم الكبير المزدحم المحيط بها. لم يكن كل هؤلاء الناس مبتلين بالمرض وحسب، فعلاوة على ذلك –ولدهشتي البالغة– كانت إعاقاتهم أسوأ من إعاقتي!

شعرت بأنني كنت أعمى طوال الوقت، وبأنني أصبحت الآن فقط أرى بعينيّ. وشعرت بحال الآخرين في قلبي حقيقة، أولئك الذين ابتلوا بمصائب عظيمة تجعل مصيبتي لا تذكر عند مقارنتها بمصائبهم.

أخيراً، لامست طائرتنا أرض المطار في باريس وأصبحنا في فرنسا. نظرت من خلال نافذة الطائرة فظهرت لي معالم جبال البيرينيس The Pyrennees في الخلفية.

في المطار، كانت ثمة مجموعة من الأشخاص هنا وهناك، ينظرون إلينا ونحن ننزل. كان معظمهم فلاحين من المزارع المجاورة، رأيتهم من الجو، خليط ضخم من الملاءات المطرزة.

أخرجونا من الطائرة أخيراً، ثم وضعونا في سيارة إسعاف مفتوحة السقف، فأخذتنا في طريق طويل لدرجة الإملال، أخذتنا إلى الدير الذي سنعيش فيه مدة سبعة أيام؛ أيام حجّنا. ذلك الدير كان في تلك المدينة الصغيرة لوورد نفسها.

حين وصلت سيارة «الفان» إلى الميدان أمام الدير،عشت مشاهدي الأولى، «باسيليكا» الشهيرة وميدان «روزاري» الجميل، والبرج النحيل الطويل بصليبه الذهبي الذي ظهر في ارتفاع شاهق إلى السماء الزرقاء المتألقة، ومن عمق مصلى الكنيسة، أتى صوت أنشودة موزونة تغنيها جوقة من المنشدين، ترنيمة لمريم. قبل أن نصل، كان هناك حشد من الناس قد تجمعوا في الميدان، بعضهم راكع على ركبتيه، وبعضهم يجلس على صف المقاعد في الجوار، يقرؤون أو يغفون في الشمس، في حين فضل آخرون المشي والتقاط الصور.

حملونا إلى خارج سيارة الإسعاف، ثم وضعونا في مقاعد تشبه العربات الصينية التي يدفعها الأشخاص، منتقلين بنا إلى داخل الدير. كان الوقت ظهراً تقريباً، وفي الخارج تلتهب الشمس على الأرض بضراوة قادمة من سماء لا سحب فيها، لكن في الجناح الداخلي كان كل شيء رقيق البرودة ومشرقاً. أتت وجبة العشاء سريعاً، فأطعمتني ممرضة شابة، بالملعقة. كنت جائعاً لدرجة أنني لم أشعر بأي إحراج سخيف جراء ذلك.

لم يذهبوا بنا إلى الغار Grotto في اليوم الأول، وإنما نصحونا بأن نستريح من عناء الرحلة الطويلة. مازلت أشعر بأنني ولد صغير وسط هذا المحيط الغريب وفي الليل بدأت أشعر بالوحدة الشديدة، شعرت بأنني منسيّ.

حاولت بجهد كبير أن أصلي، لكن ما حدث هو أنني بقيت أفكر في بيتي ووالديّ. كنت على وشك أن أخفي رأسي تحت

الغطاء وأن أفسح الطريق لانسكاب الدموع، عندما فتح الباب ودخلت الممرضة التي تعمل في الليل. قفز قلبي من مكانه، لقد كانت «الكرزة الناضجة» مرة أخرى؛ كتلة من الشعر الذهبي المجعد تبزغ بغنج من تحت قبعة التمريض البيضاء الجامدة التي كانت تلبسها. مشت من سرير إلى سرير، لتتأكد أن كل واحد منا مرتاح في هذه الليلة. وصلت إلى سريري وابتسمت تلك الابتسامة المشرقة، وسألتني إن كنت أريد أن أرفع رأسي أكثر.

– نعم بالتأكيد.

قلتها بسرعة، على الرغم من أنني كنت مرفوعاً لأبعد درجة ممكنة.

– ها... نحن ذا.

قالتها وهي تبتسم وتعدل مخدتي وهي تضاعف زوايا الملاءات تحت حشوة الفراش

– مرتاح الآن؟

غمغمت لها قائلاً:

– جداً.

آخر شيء أذكره وأنا أغرق في النوم كان ابتسامتها وهي تنحني علي لترفع ملابسي للأعلى مغطية بها كتفي. نمت براحة كبيرة في تلك الليلة.

في الصباح التالي، أخذونا إلى حمامات الشفاء الشهيرة، عندما وصلنا هناك كانت قد سبقتنا إليها حشود ضخمة اجتمعت من جنسيات مختلفة. كل منهم ينتظر اللحظة التي سيلمس فيها مياه

الينابيع المدهشة التي تتفجر من تحت الأرض خلال الحمامات الحديثة التي بنيت عليها.

انتظرت دوري، ونظرت من حولي، كان هناك ما يقارب الثلاثمئة إنسان، اجتمعوا في مقدمة الساحة من ذلك المبنى الحجري القصير الذي ضم الحمامات. ثلاثة أرباعهم، تقريباً، كانوا على مقاعد متحركة، مثلي. بعضهم لم يكن يستطيع أن يجلس منتصباً، مما اضطرهم إلى أن يستلقوا على ظهورهم طوال الوقت. بعض هؤلاء الأشخاص كانوا بلا أطراف، في حين اعتمد آخرون على العكازات، يظلعون من مكان إلى آخر بصعوبة شديدة. رأيتهم كلهم، بلا أرجل، بلا أذرع، بلا بصر، بعضهم ظهر لي وهو يستلقي تحت أشعة الشمس المشرقة وكأنه جثة ما زالت على قيد الحياة. كان المكان يشبه «ساحة المعجزات» في رواية «فيكتور هيغو»، فشعرت بينهم بأنني شيء صغير وغير مهم.

الآن، جاء دوري في الاستحمام، فحملوني على كرسي متحرك، وجعلوني في وضع الجلوس، على دكة من خشب، ثم عرّاني من ملابسي رجلان فرنسيان. كل المهاجع في المبنى مادتها من الرخام، في حين كان الحمام نفسه تجويفاً عميقاً في مربع مبتور من الأرض نفسها، وبدرج يقود إلى الأسفل حيث الماء، وعلى الجدار في الجهة المقابلة عُلّق صليب خشبي، وقد نقشت تحته صلوات باللاتينية.

رفعوني بلطف من ذراعي الاثنين، ثم حملوني عبر الدرج، وبعد ذلك وضعوني في الماء تدريجياً وببطء. بدأت في اللهاث عندما شعرت بالماء البارد يصب من فوق رأسي. ثم تم رفعي بسرعة،

وسألني أحد الرجال بإنكليزية مكسرة إن كنت أريد أن أغطس مرة أخرى، فهززت رأسي بالموافقة، فأنزلوني مرة أخرى في الماء. سمعت الرجلين من فوقي يرتلان بعض الصلوات باللغة الفرنسية، ثم رفعاني إلى الخارج، وأمسك أحدهما بصليب وضعه على شفتي كي أقبّله.

ربما كان الأمر برمته محض خيال، لست أدري، لكنني عندما غادرت تلك المياه، شعرت وكأنني ولدت من جديد، كأنما كان خروجاً من القبر، إلى نور النهار.

في تلك العصرية، رأيت الغار أول مرة، وأصبحت لوورد الآن مزدحمة. وفي أثناء دفعي على الكرسي المتحرك عبر الطريق الرئيسي الذي يقود إلى المزار، مر بي حشد من الحجّاج، وامتلأ الأثير بجمع من اللغات المختلفة: الفرنسية والإيطالية والإسبانية والبرتغالية والسويدية والدانماركية ولغات أخرى كثيرة في خليط مجنون. مع ذلك، لم يكن مهماً إن كان القادم من دبلن أو روما أو باريس أو ستوكهولهم أو ميلان أو مدريد. فالجميع لديهم هدف واحد مشترك في ذلك اليوم... الصلاة والرجاء.

عندما وصلت الكهف، لم أستطع رؤية شيء سوى ذلك العدد الوفير من البشر وقد ركعوا أمام الغار ورؤوسهم مطأطئة، لكن كل شيء كان في قمة التنظيم، وهناك طريق متروك للمقاعد المتحركة حتى يسمح لأصحابها بأن يوضعوا قرب المزار.

سريعاً ما صرت عند سياج مذبح الكنيسة ومعي آخرون، وبقلب مخلوع، رفعت عيني وحدقت في التمثال الرخامي للسيدة الطويلة

الجميلة في روبها الأزرق. أمامها فتاة فلاحة تركع بين يديها، يداها مطبقتان في فرح. من محرابها بُتر حائط صخري صلب. إنها مريم العذراء تحدق بصمت إلى الحشود الضخمة من أبنائها وهم راكعون الآن عند قدميها، حيث قدموا لها حبهم ورموا إليها بأوجاعهم.

صليت وصليت، راجياً أن يتم لي الشفاء.

في تلك الليلة، شاركت في موكب إيقاد المشاعل خلال تلك المدينة الصغيرة. لن أنسى بسهولة ذلك المشهد الذي امتد من السابعة مساء حتى الثامنة تقريباً. الآلاف تجمعوا في ميدان روزاري. جاء المساء وخيم الظلام على التلال المحيطة بوشاح من ضباب. آلاف من الشموع أوقدت، فبدأت المسيرة إلى المزار، يقودها أصحاب الفخامة رؤساء الكنائس من كل البلدان المشاركة في حملة الحج.

واجهة مبنى باسيليا الجميلة أضيئت كلها الآن، تشع مشرقة في سماء الليل البنفسجية السوداء.

شققنا طريقنا عبر البلدة الصغيرة ماضين في الطريق إلى الغار، ورفعت الحشود أصواتها وغنّت «أيف ماريا». ارتفعت النغمات الموسيقية وسقطت في هواء الليل الناعم وتردد صداها من التلال القريبة. آلاف آخرون اصطفوا مشكّلين خطاً مع الطريق، كلهم يمسك بالشموع المضيئة، وهي ترتجف من نسمة الهواء اللطيفة.

في المقابل، كان الغار نفسه يغرق في الظلمة، لولا شمعة واحدة على المذبح الرخامي. الحشود مازالت تغنّي، ثم ركع الحجاج في نصف دائرة حول المكان المقدس. شعلات النار من شموعهم

أضاءت المشهد، وانعكس شعاعها في تاج اللؤلؤ الذي يحيط برأس مريم العذراء.

كانت تلك أجمل لحظة في حياتي.

كنت نائماً عندما وصلنا إلى دبلن، فأيقظتني يدٌ عندما لمست كتفي وهزتني قليلاً:

– لقد عدنا إلى الوطن.

نظرت بكسل وكنت على وشك التثاؤب عندما رأيت أنها الكرزة الناضجة!

وقفت أمامي تبتسم. بطريقة أو أخرى، لقد سمعت بأنني أرسم بقدمي اليسرى وهي الآن تسألني إن كنت سأرسم لها صورة عندما أعود إلى البيت، إن كان عندي الوقت لذلك. هززت رأسي بنشاط. هذا يعني التأكيد أنني أملك كل وقت العالم لها. عند ذلك طلبت مني عنواني كي تتصل بي لتحديد موعد الرسم. حاولت أن أقول لها، لكن كل ما خرج من فمي كان مجرد نوع غريب من الضوضاء. حاولت مرة أخرى، حاولت جاهداً. ثم إنني بتمرد، سحبت حذاء قدمي اليسرى وجوربها، وانحنيت للخلف، ثم رفعت قدمي اليسرى فوق رأسي وانتزعت قلم الرصاص من جيب صدرها وكتبت عنواني على طرّة كتاب الدعاء الخاص بها.

ثم حان وقت الرحيل، فنظرت خلفي وهم يرفعونني إلى داخل سيارة الإسعاف التي ستأخذني إلى البيت. ورأيتها تقف على درجات الطائرة، تضحك مع رجل من الطاقم، شاب طويل ووسيم له شعر أشقر، فشعرت أنني أكرهه. أما هي فلم تتصل من

أجل تلك اللوحة إلى هذه اللحظة.

في البيت... كانت العائلة سعيدة برؤيتي بعد أسبوع الغياب ذاك، وكنت أنا في غاية السعادة أن أرى كل الوجوه المألوفة مرة أخرى. فرنسا كانت جميلة، لكن ضاحية كيميج هي ما أعده وطناً.

مازلت في دوار انبهاري من كل المشاهد الغريبة التي شهدتها في الأسبوع المنصرم، وكل الإثارة التي مررت بها. نسيت نفسي وسط الأشياء التي رأيتها والبشر الذين التقيت بهم.

أما في المنزل فالأمر يختلف، إذ الكل بصحة جيدة وطبيعيون باستثنائي. إخوتي وأخواتي ليسوا مثل الناس الذين رأيتهم في لوورد. إنهم قادرون على المشي، والحديث، ويقومون بكل الأشياء التي يفعلها البشر الطبيعيون. عندما ينطق بيتر أو بادي بالكلمة تخرج واضحة ومفهومة، تعلم ماذا يريدون قوله. أما أنا فعندما أتحدث لا يُسمع إلا ضجيج غريب ليس له نظام. يستطيع إخوتي استخدام أيديهم دون أدنى قدر من الصعوبة، أما أنا فعندما أنوى استخدام يديّ، إذا بهما تطيران في هذا الاتجاه أو ذاك. كانتا عديمتي النفع، ومجرد كتل من اللحم الملتوي.

بعد بضعة أيام، أصبحت لوورد مجرد ذكرى وأصبح سحرها شيئاً بالياً، فعدت للوعي بنفسي وحالي من جديد، وعيٌ بعدم جدوى حياتي والملل الذي يكتنفها. فأيام لوورد انتهت، وعدت إلى ما كنت عليه قبلها.

شعرت بأنني أعود للبس سترة قديمة مرة أخرى، إذ كل شيء كان على سابق عهده. ما عدت أحتمل طريقتي القديمة في العيش؛

الطريقة القديمة في التفكير. كم رغبت في شيء أعيش من أجله! لكن هذا الشيء غير موجود. أردت لحياتي أن تكون ذات هدف أو قيمة، لكن لا شيء من هذا هنا. كنت شيئاً أجوف بلا معنى. كنت فارغاً بلا نكهة، أبحث عن شيء لا يمكنني أن أجده، أمد يدي بهدف الوصول إلى شيء لا يمكن الوصول إليه.

عرفت بشكل كافٍ، أنه بغض النظر عن مظهري الخارجي السطحي، وعما أتظاهر به أو أتخيله أمام الآخرين، وعن حجم الأكاذيب التي أكذبها على نفسي، فإنني لا يمكن إطلاقاً أن أكون سعيداً أو في حالة سلام داخلي مع نفسي، ما دمت معاقاً بهذه الصورة. تذكرت لوورد والناس الذين التقيت بهم في الطريق إلى الغار، وحاولت مرة أخرى أن أكون مثلهم، صابراً، مرحاً، مستسلماً لعذاباتي، متذكراً الجزاء الذي ينتظرني في الدار الآخرة. لكن هذا لم يجد نفعاً، فأنا بشر أيضاً. كان الرجل فيّ أكبر بكثير من الخادم الذي يرضخ لإرادة سيده. كنت أريد أن أرى وأعرف أكثر عن هذا العالم قبل أن أفكر في العالم الآخر. وإذا تجاوزنا وغضضنا النظر عن جمال تجربة لوورد وفتنتها، فأنا مازلت ذلك الولد الذي لم يتعلم بعد كيف يكون خانعاً.

الفصل (10)

المنزل الذي بنته أمي

لم يزايلني الانطباع الذي تركته لوورد في ذهني، فقد رأيت فيها أنني لست الوحيد المعزول كما كنت أظن، وإنما مجرد فرد من «الأخوة المعذبة» الممتدة على طول هذا العالم وعرضه. تذكرت الشجاعة والثبات اللذين ظهرا على وجوه بعض المعاقين القادمين من كل بقاع هذه الأرض، يحدوهم الأمل وهم يصلّون بين يدي مريم العذراء في الغار. رأيت هناك قصة حياتي وهي تنعكس في عيون أولئك الذين صليت معهم؛ أولئك الرجال والنساء الذين تكلموا بألسنة مختلفة، وعاشوا وفقاً لمفاهيم ومثلٍ متباينة، لكنهم أصبحوا الآن إخوة وأخوات، وغدا كل واحد جزءاً من عائلة واحدة، مشتركاً في ميراث الألم. لم ينظر أحد إلى غيره على أنه أجنبي في تلك القرية الصغيرة المقدسة. كل الحواجز التي تعزل الأفراد عن بعضهم، بل تعزل الأمم بعضَها عن بعض، تكسرت هناك واحترقت وذابت بسبب الاحتياج المشترك للتفهم والتواصل؛ ذلك الاحتياج الذي نشعر به جميعاً، وكانت المعاناة وحدها هي الإلهام.

مازلت هنا، في بيتنا مرة أخرى، بعيداً عن كل إشراق لوورد وسنائها وهالتها. بعيداً عن كل الأشياء التي استطاعت أن تجعلني أنسى نفسي مع أول دفقة تعاطف وحميمية مشتركة مع الآخرين. أنا لست محاطاً هنا بالأعداد الهائلة من المعاقين، وإنما محاط بعائلتي

التي تتمتع بالقوة والصحة، وأفرادها طبيعيون. وفوق كل هذا، فقد جعلتني أسرتي أشعر بأنني لست سوى دمية، دون قصد منهم بطبيعة الحال. شعرت بأنني طير أطلق سراحه فترة قصيرة، وأن هذا الطير قد باشر الآن في العودة إلى القفص من جديد.

بعد أسبوع أو نحوه من عودتي، بدأ الشعور الشنيع بالوحدة يزحف باتجاهي مرة أخرى، لقد عاد ليلعب دوراً مدمراً في تفكيري. حاولت النأي عن نفسي بالقراءة، فأعطتني السيدة ماغواير كتباً عديدة، بيد أني لم أكن أقرأ إلا كتب «ديكينز»، فهو وحده من كان يستطيع إشعاري بالحزن، وإن كان يضحكني بين الفينة والأخرى.

لاحظت أمي أنني كنت محبطاً، وأنني بمرور الوقت، أصبحُ أكثر إحباطاً. كنت أفكر وأطيل التفكير بكآبة في الأمور التي «كان يمكن أن تحويها حياتي».

كنت أفكر بمرارة أكبر في تلك الأمور، لأنني بدأت أحس بعميق الحاجة إليها، وأخذت أعرف معنى الشعور بلوعة الفقد. وعلى الرغم من أنني أنا وأمي مازلنا نفهم بعضنا جيداً، فإنها لم تعد تحاول أن تريحني بالكلمات أو تطرد عني مزاجي الصغير الحزين بالضحكات فحتى بيننا نحن الاثنين، تكّون ما بدا أنه حاجز؛ نوع جديد من الحوائط الزجاجية التي تمنعنا من التواصل. كنت أشعر بأشياء وأريد أشياء لا يفهمها أحد، ومن ضمنهم أمي التي تفهم بعضها بشيء من الإبهام.

في مساء خميس، بعد سبعة أيام أو ثمانية من عودتي من لوورد، كنت جالساً عند نافذتي أحدق بكآبة إلى الخارج في انسياح الغسق

الخريفي الذي بدأ يغطي الشوارع ببطء في الخارج بضباب أرجواني غامق رقيق. في المطبخ خلفي، أستطيع أن أسمع صوت النقانق وهي تقلى في المقلاة، في حين تجهز أمي العشاء، ويلغط الأطفال جميعاً ويزدحمون من حولها. مونا تقف أمام المرآة، تلون شفتيها، وتضع البودرة على أنفها، إنها تستعد للرقص كالعادة، في حين يبدو بيتر مسروراً من نفسه في هذه اللحظة. لقد لمّع حذاءه بنشاط كبير مستخدماً في ذلك خرقة من صوف قديم، وأعطاني غمزة كبيرة بعينه، وهي إشارة مؤكدة بأن لديه موعداً غرامياً.

فجأة، من طرف زاوية عيني، رأيت الأنوار الأمامية لسيارة تخترق ظلمة الشفق العميقة عندما وصلت إلى المنعطف في الطريق المقابل. اختفت السيارة خلف الأشجار، ثم عادت للظهور مرة أخرى وتوقفت أمام منزلنا. خرج منها رجل وتوقف ليمعن النظر في رقم البيت الذي يبدو أنه لم يكن متأكداً منه. ثم ظهر عليه الرضا، ففتح البوابة الأمامية وصعد الدرج.

دمدمت قائلاً:

– هنالك شخص ما... من هو؟

وأوعزت إلى بيتر أن يلحظ السيارة الواقفة، وقلت له بفظاظة:

– انظر.

عند سماع أمي للطرق على الباب، انطلقت لترى من القادم. سمعتها تتحدث مع شخص ما عند باب الصالة، وبعد دقيقة، أتت عائدة إلى المطبخ ومعها رجل غريب.

– هذا هو كريستي.

قالتها أمي وهما يدخلان. نظرت إليه وهو يقف أمامي ويبتسم لي، أستطيع أن أرى أنه رجل قوي البنية وله عينان خضراوان رماديتان، جعلتاه يبدو وكأنه ينظر إلى داخلي وليس إليّ فقط.

– جلس على مقعد قريب مني، وأخبرني أنه طبيب سبق له أن رآني من قبل عندما كنت طفلاً حديث الولادة، وأنه قد رآني في فيلم نظمته إحدى الجهات الخيرية، وأنا على ظهر أخي، ولسبب ما، لم يستطع أن ينساني، وقد بدأ في البحث عني خلال الأيام القليلة الماضية.

نهض الرجل، ولدقائق صار يمشي في المكان جيئة وذهاباً وهو يفكر، ثم جلس أخيراً على حافة الطاولة وقد كتّف ذراعيه ببعضهما، ثم بدأ في الحديث.

قال بصوته العميق اللطيف:

– كريستي... هناك علاج جديد للشلل الرعاشي الذي هو مشكلتك. أعتقد أن من الممكن أن تعالَج وتشفى. لكن هذا لن يتم إلا إذا كانت لديك الإرادة لتبذل الجهد الكافي معنا. لن أستطيع أن أساعدك إن لم تحاول أن تساعد نفسك. لا بد أن «تريد» تحسن حالك، قبل أن نحاول أن نصنع لك أي شيء.

ثم انحنى إلى الأمام، وعيناه ثابتتان عليّ، وسألني:

– هل ستحاول، إن أنا ساعدتك؟

فكرت:

– هل سأحاول!

لم أستطيع أن أتكلم، لذلك لم أستطع أن أجيبه. فقد كنت تائه

البصر، لكن لا بد أنه قرأ الرسالة في عينيّ، لأنه وقف بعدها وهو راضٍ، وأتى يمشي إليّ، ووضع يديه على كتفيّ وقال:

– حسناً، سنبدأ من الغد.

قال إنه سيرسل أحد مساعديه في اليوم التالي ليصف لي برنامجاً علاجياً خاصاً، لأن من منهجيته أن يعالج كل مريض على حدة بدلاً من معالجتهم في مجموعات، وأن معالجتي ستتم في بيتنا، وذلك لأنهم لم ينشئوا عيادة خاصة بعد. نهض بعد ذلك ليغادر، لكنه بمجرد وصوله إلى الباب الخارجي توقف قليلاً، ثم التفت وقال لي في ابتسامة متأنية:

– بالمناسبة... اسمي الدكتور كوليس، سوف أراك قريباً.

بعد هذه الجملة، غادر.

أغلق الباب وراءه، فالتفتّ ونظرت في الوجوه من حولي. كان الانفعال والسعادة يشرقان في وجوههم جميعاً. أبي كان في غاية الفرح لدرجة أنه ارتعش وهو يصب لي قدحاً من الشاي. مونا نسيت كل موضوع الحفل الراقص الذي ستذهب إليه، ووقفت تبتسم لي ومزقت دون أن تشعر قطيفتها الصغيرة التي تستخدمها لبودرة وجهها إلى نتف صغيرة في يدها. وبيتر.. بيتر الصديق القديم، وضع ملعقتين من الملح في كوب الشاي الخاص به بدلاً من السكر.

لكنها أمي هي من نظرتُ إليها فاحصاً، أكثر من أي شخص آخر. إنها مثلي، لم تكن مشاعرها تظهر بسهولة في أي وقت، لكن كانت هناك نسمة من الفرح تطوف حولها. وهج لطيف من السعادة في وجهها كان معناه عندي أعمق من أنها رمت ذراعيها حول عنقي

وبكت وصلّت صلاة شكر.

و أنا...

ما الذي شعرت به في تلك اللحظات من حياتي، اللحظات التي شعرت بالحنين إليها وحلمت بها منذ أن عرفت أنني أستطيع أن أشعر وأحلم؟

لوهلة، لم أشعر بشيء، ولم أستطع أن أفكر في شيء. كانت كل حواسي مخدرة تماماً في تلك اللحظة ورأسي يدور. كنت عاجزاً عن الفهم. لم أستطع أن أصدق الفكرة، أيمكنني أن أشفى.. أخيراً؟! كان هذا أكثر مما أطيقه. لقد جعلتني تلك الفكرة أترنح.

استمعت للجميع وهم يتكلمون بحماس كبير من حولي. كنا حول طاولة الشاي في نوع من إغماءة الحلم، إلا أنني لم أستطع أن أميز كلمة من أخرى، وشربت الشاي بذهن غائب في كل مرة عندما كان أبي يرفع الكوب إلى شفتيّ، وأكلت الخبز دون أن أتبيّن له طعماً.

عندما جلست -فيما بعد- بجوار النار مع أمي وأبي عقب مغادرة الباقين لتسلية أنفسهم بعد الشاي، بدأت أفكر في الأخبار الجديدة التي سمعتها ذلك اليوم، وعندها فحسب وصلت الحقيقة إلى ذهني. لا أعتقد أنني شعرت بالإثارة المعتادة كما حدث مع بقية العائلة فقط، وإنما تعجبت من الجمال الغرائبي في الموضوع كله.

لقد ذهبت إلى لوورد فرحاً، يملؤني الأمل، بل كدت أصل مرحلة الثقة الكاملة، غير أنني عدت للمنزل، بعدها بأسبوع -ويا للأسف- مهزوزاً بعض الشيء، وربما أكثر تعقلاً، لكنني أصبت

بخيبة أمل عميقة.

لقد عدت فوجدت كل شيء كما كان من قبل. لقد كان قلبي مشرقاً واثقاً، عندما جاءت فكرة زيارة لوورد، لكنها ظهرت فكرة ثقيلة تافهة عندما نظرت إليها بعد إن عدت إلى المنزل. ذلك لأنني توصلت إلى قناعة، أنه مهما كان أملي قوياً في أن أغير حياتي، فإنها ستبقى كما هي: كئيبة وفارغة وخالية من الألوان.

ثم في اليوم نفسه الذي أكون فيه حبيس هذه الحقيقية المرة، في اليوم نفسه، يأتي طبيب فجأة ليقولِ لي إن بإمكاني أن أشفى!!

بكلمات قليلة أتى وغير كل نمط حياتي، لقد أعطى للماضي شيئاً من الأهمية، وتعهد المستقبل بهدف محدد. لقد أعطاني هذا الطبيب شيئاً أستطيع أن أربط به أفكاري وطموحاتي، شيئاً أعيش من أجله، شيئاً أعمل وأقاتل من أجله ابتداء من هذه اللحظة، في حين كنت قبلها في غاية التأكد أنْ ليس أمامي في السنوات المقبلة إلا الخواء والعقم. ربما كانت صدفة مجردة، شيئاً حصل بالتوافق، لكن الأمر بالنسبة إلي، كان معجزة، ولا أقل من ذلك، ولاسيما عندما أسترجع كل ما عنته لي وكل ما أتت به بعد ذلك. هكذا بدت لي تلك الحادثة في لحظة، ومازالت تبدو لي كذلك، معجزة صغيرة جميلة، ليس بسبب الخير الذي أتت به، وإنما بسبب أنها خلقت فيّ الإيمان، إذ كنت قبلها لا أعرف سوى طعم المرارة والغرق في الأوهام. لقد أرتني هذه الحادثة أننا مهمّون جميعاً في خطّة الحياة العظيمة، حتى أقل واحد فينا، لأن كل واحد منا هو ببساطة جزء من الحياة، وحتى الصغار المهملون هم أيضاً مهمّون جداً، ذلك لأنهم يساعدون في

تماسك الكبار ويمنعونهم من الانهيار. رأيت في ومضة الفهم الأولى تلك أن لي دوراً سألعبه، ولا يهم إطلاقاً مدى صغره.

في تلك الليلة، قبل أن أخلد للنوم، صليت صلاة الشكر، وأعلنت توبتي من حالة الشك التي اعترتني.

الطبيب الذي أتى في اليوم التالي ليفحصني كان شاباً طويلاً وسيماً، له مشية عسكرية نوعاً ما؛ مشية تثير الإعجاب وإن كانت قد أثارت توتري قليلاً. كان بطيئاً في حركته المدروسة، وكل سلوكه يوحي بالثقة السريعة التي تنتقل إلى من حوله من الناس. شعرت بنفسي مرتاحة له على الفور. كان هذا هو لويس وارنانتس؛ اسم سأظل أتذكره بالعرفان والمحبة.

رسم الدكتور وارنانتس خطة خاصة للعلاج، وموضوعه في الغالب، نوع من التمارين الجسدية التي أستطيع أن أقوم بها في المنزل بنفسي، أو ربما بشيء من المساعدة من العائلة إن أردت ذلك. أخبرني أن ذلك كله، مجرد اختبار تمهيدي، فإن رأى أن هناك تجاوباً مني، بغض النظر عن حجمه، فإنه سوف يضع لي تمارين روتينية أصعب؛ تمارين يتوقع منها أن تكون أكثر تعقيداً واستغراقاً، محكومة بقدر انغماسي فيها. اكتشفت فيما بعد أن تلك التمارين يقال لها «العلاج الطبيعي» وهو اسم دعاني إلى الاعتقاد بضخامة ما سأقدم عليه!

بعد ذلك، صار الدكتور وارنانتس يأتي إليّ مرة واحدة في الأسبوع، يومَ الأحد. وكل مرة زارني فيها، كان يجعلني أطبق كل تمرين على حدة أمامه وهو يرقبني، مولياً عناية خاصة إلى تلك

التمارين التي كنت أجد مشقة أكبر في تطبيقها، لافتاً انتباهي إلى أخطائي في التطبيق.

كان الأمر طريفاً، أعني الطريقة التي كان فيها أفراد عائلتي يتراكضون بسرعة ويتجمعون في فترة العصر من كل يوم أحد، عندما تقترب ساعة مجيء الدكتور وارنانتس. أعتقد أنهم كانوا يخافون منه -جميعاً- بعض الشيء، يرتقبون منه شراً ربما، على الرغم من أنه كان رجلاً مهذباً، وبدت أخلاقه فوق مستوى الظنون. كان من النوع الذي يأخذ عمله بجدية، ويضعه فوق أي اعتبار آخر.

ذات عصر في يوم أحد، جاء الدكتور وارنانتس إلى موعد العلاج مبكراً عن الوقت المعتاد، فوجد المطبخ مليئاً بأخوتي وأخواتي، الكبار منهم والصغار. في وقت قصير جداً، تخلصت أمي من الصغار واستعجلتهم أن يصعدوا إلى الطابق العلوي، لكنها لم تعرف ماذا تفعل بالكبار، فانبرى الدكتور وارنانتس لحل المشكلة.

- مساء الخير جميعاً.

قالها بأدب، وهو ينظر إلى الستة أو السبعة الذين بقوا.

- لقد تخلصت من كل الحملان يا سيدة براون، لكنني أرى أن الخراف مازالت موجودة.

ثم ذهب إلى حيث كان يجلس أخي جيم، وقال له بابتسامة لطيفة:

- مرحباً، أنت جيم أليس كذلك؟ إنه يوم رائع للمشي، اسمح لي أن ألبسك سترتك.

انتبه الآخرون لتلميحه وغادروا المكان دون تذمر، في حين كان

الدكتور وارنانتس يقوم بدور البواب.

معالجتي في المنزل كانت أمراً في غاية الصعوبة على الدكتور وارنانتس، لأن الغرفة الوحيدة التي كانت شاغرة في المنزل هي المطبخ نفسه، وقد كان صغيراً جداً وغير مناسب. في أثناء التمارين، عندما أمدد رجليّ، كانت تصطدم بموقد النار، وعندما يقلبونني على بطني يصبح رأسي تحت مقعد ما، وساقاي تحت الطاولة، بحيث أنني وفي كل مرة أرفع فيها رأسي، كنت أتلقى ضربة مدوية عليه.

قال الدكتور:

– إما أنك كبير جداً يا كريستي، أو أن هذه الغرفة صغيرة جداً.

فردت أمي:

– يبدو أن الأمر خليط من الاثنين، يا دكتور.

قال الدكتور بتنهيدة وهو يرى رأسي يصطدم للمرة الثالثة أو الرابعة في عصر ذاك اليوم:

– لو استطعنا أن نحصل على مزيد من المساحة...

في مؤخرة منزلنا كان هناك جزء من مساحة فائضة، حاول كل فرد في البيت أن يحرثها لكن دون جدوى. صحيح، أنهم قد نجحوا في زراعة الملفوف واللفت وبعض البطاطس فيها لفترة بسيطة، لكنها كانت تذبل وتموت بعد فترة وجيزة. لم يكن هناك فرق بين زراعة الخضار أو زراعة الأزهار في تلك البقعة من الأرض، لأنها كانت تعاند الزراعة وتستعصي عليها. يبدو أنها كانت مصرة أن تبقى قفراً.

غير أن أمي أصرّت على أن تغيّر حال تلك البقعة، مراراً وتكراراً،

وقد عرضت أمي نصف كراون لأي واحد منا يقوم بأفضل محاولة لإحداث شيء جديد في تلك المساحة.

على أي حال، لقد هجمت عليها الآن فكرة جديدة – كموجة فكرية فجائية – فلماذا لا نستفيد من خلفية الحديقة بطريقة مختلفة؟ إذ بإمكانها أن تساعدني أنا والدكتور وارنانتس بشكل كبير لو كانت لنا فيها غرفة مستقلة بعيداً عن الضوضاء والإزعاج الذي في البيت. لذا فكرت أمي، لماذا لا نبني غرفة هناك في الحديقة الخلفية فنبتعد عن كل شيء؟ آآه، لكن ماذا عن المال؟ كان دائماً هناك سؤال ما عن المال! لم تكن لديها أي فكرة عما يمكن أن تكلفه تلك الغرفة، لكن عيشها في بيت ملؤه البناؤون، ساعدها تدريجياً كي تخمن حدود هذه الكلفة، فرغم مواد البناء والمتطلبات القليلة وغير المزعجة من والدي والأولاد، فقد أدهشها أن كلفة الأمر برمته تصل قرابة الخمسين جنيهاً.

رغم ذلك، فإنها لم تستسلم للهزيمة. لقد كانت مصممة على وضع فكرتها الطموحة موضع التنفيذ، وانغمست فوراً في القضية، وأخذت تستعير وتبيع، وتنضم إلى أندية المال، وتزور مكاتب الرهن المعتادة، تبحث عن أعمام وعمات، أخوال وخالات أغنياء، بعد أن اكتشفت أنهم ليسوا جميعاً من الأموات، بعد انقضاء كل هذا الوقت. واصلت جمع النقود، أسابيعَ، في السر، دون أن يعلم بذلك أي فرد من أفراد العائلة سواي، وقد أعطيتها –بكل تأكيد– الدعم المعنوي لتلك الحملة. وعندما جمعت ما يقارب العشرين جنيهاً، قررت أن تبدأ العمل. كانت تعلمُ أن من غير المجدي أن توكل هذا

الأمر لأبي، فهو سيعارض الفكرة بالقول إن «السلطات» لن تسمح بذلك –مفردة السلطات كانت محببة لديه– فالبيت الذي نسكن فيه كان خاضعاً لحزمة من القوانين وضعتها مجموعة من الناس يقال لها «المجلس البلدي».

حاولت أمي أن تزرع الفكرة في رؤوس أبنائها البنائين الأربعة، إلا أن أحداً لم يتحمس لها منهم. كلهم سيبدي موافقة كافية، لو أن هناك من بدأ، لكن كالعادة في مثل هذه الحالات، لا أحد يريد أن يقوم بالمبادرة.

أمي كانت امرأة عميقة الثقة بنفسها لدرجة أنها تستشعر دائماً وجوب وضع أفكارها تحت مجهر الاختبار فوراً. لقد قررت أن تتدبر الأمور بنفسها، وأن تبدأ فوراً في العمل، فغادرت المنزل ذات يوم، واشترت مائة طوبة صخرية وأربعة أكياس من الأسمنت وكيسين من الملاط وقالت:

– هذا للبداية فقط.

وصلت المواد في اليوم نفسه، ويا لأبي المسكين، لقد كاد ينهار عندما أتى إلى المنزل ذلك المساء فرأى كل ذلك الطوب مكوّماً بترتيب في الحديقة الأمامية. وقف هناك يترنح، متمسكاً بالبوابة، فمه مفتوح، لكنه لم يبد قادراً على الكلام وهو يحدق في كومة الطوب. تمايل بشدة عابراً المقدمة الأمامية للمنزل، فتح الباب وقال لأمي في نوع من الهمس الأجش:

– ما الفكرة من وراء هذا؟

ردت أمي بتلقائية، وهي تضع له عشاءه على الطاولة:

– أوه ، لقد نسيت أن أقول لك، سوف أبني بيتاً لكريستي في الحديقة الخلفية.

قال أبي وهو يحدق فيها:

– يا إلهي ، هل تريدين أن نطرد كلنا؟ هل تدركين ماذا تفعلين؟ السلطات سوف...

ردت أمي بهدوء:

– نعم، نعم، أعرف كل هذا... فلتتناول عشاءك الآن كرجل طيب، وإلا سيصبح بارداً.

قال أبي بفم مملوء باليخنة:

– .. فوق جثتي وأنا ميت.

فردت أمي بكل خضوع الكون المفتعل:

– بطبيعة الحال سوف أدفن جثتك أولاً.

عندما رأى أبي أن من غير المجدي الدخول في جدال معها بخصوص هذا الأمر، توجه إلى تعويض نفسه بفكرة عدم التعاون مع المشروع، وقال إنه لن يشارك بوضع طوبة واحدة، وإنه ينصح كل البنائين الأربعة في المنزل ألا يكون لهم أي دخل في تلك العملية.

لمدة وجيزة، ظننتُ أن الهزيمة قد حاقت بأميّ، لكنها اكتفت بالابتسام فحسب وقالت:

– حسن جداً... إن كنتم ترفضون جميعاً القيام بهذا العمل، فسوف أقوم به بنفسي.

ضحكوا كلهم من تلك الجملة، ومن فكرة أن امرأة قد تبني بيتاً.

في اليوم التالي، استيقظت أمي أبكر مما اعتادت، جهزت طعام الإفطار بسرعة كبيرة، وأرسلت الأطفال الستة الصغار إلى مدارسهم، وأنهت أمر العناية بالشؤون المنزلية في ذلك الصباح، لكي تصبح كل فترة ما بعد الظهيرة بلا واجبات منزلية. ثم أتى وقت الغداء ومر كالمعتاد، ولم تقل أمي لأي أحد ما كان يدور في رأسها.

بعد الساعة الرابعة من عصر ذلك اليوم، لاحظت فجأة أن أمي قد قضت وقتاً طويلاً في مؤخرة المنزل، ثم تنبهت إلى أصوات مميزة آتية من الحديقة الخلفية. تمكنت من التحرك باضطراب إلى نافذة المخزن، ثم نظرت بفضول كبير.

كانت أميّ هناك، جالسة على ركبتيها فوق العشب، دلو من الأسمنت في جانب وإبريق ماء في الآخر، تمسك في يدها اليمنى بأداة تمليس الأسمنت، وتنظر بفخر إلى صف الطوب الذي قد انتهت منه، وها هو أمامها.

ذلك المساء، قدمت العشاء والشاي، ثم عادت بهدوء إلى عملها في الحديقة الخلفية. بعدها بدقائق، صادف أن خرج أبي إلى الحديقة ليأخذ شيئاً ما، فرآها. وقف متسمراً في مكانه، ثم سار بهدوء إلى الجدار المتصاعد. لمس الجدار بقدمه، ثم سألها:

– ما هذا؟ ماذا تظنين أنك فاعلة؟

نظرت أمي إليه وقالت:

– إنني أبني بيت كريستي.

قالتها وهي تضع طوبة أخرى. سكت أبي برهة واكتفى بالفرجة. ثم اقترب وهو ينظر، ثم خرجت يده، لكنه أعادها إلى مكانها.

مشى إلى الناحية الأخرى من البناء، ارتعشت شفته العلوية قليلاً، ثم توقف... وأخيراً قال:

– انظري، أنك تعملين بطريقة خاطئة يا امرأة.. أين هي أساساتك؟

أجابته أمي بشيء من النزق:

– كنت أعلم أنني نسيت شيئاً ما!

في تلك اللحظة، خرج البناؤون الأربعة وتجمعوا حولهما. فالتفت إليهم أبي وقال:

– انظروا يا أولاد، إن أمكم تريد أن تقوم بعملنا!

قال بادي وهو ينظر نظرة ناقدة إلى صف الطوب الأسمنتي، ويهز رأسه غير موافق على العمل.

– مريع.. إنك حتى لم تجعليه متساوياً يا أماه!

قال بيتر:

– هكذا النساء دائماً، يحاولن أن يكن مثل الرجال، عودي إلى صحونك يا أماه.

فردت عليهم:

– حسناً، إن كان هذا عمل رجال، فهيا قوموا به.

ثم وقفت ومسحت يديها في مريلتها. ببطء استدارت وتركتهم فيما هم فيه، ثم مرت بي وابتسمت. أما البناؤون الخمسة، فقد وقفوا وجعل بعضهم ينظر إلى بعض، ثم قال أبي:

– هيا بنا، فلنبدأ.

وهكذا بنو بيتي الصغير في الحديقة الخلفية. مر العمل بتقلبات

متعددة، واعتقدت مرة، أنه لن يتم إطلاقاً. الأمر الذي كان يعرقلنا طوال الوقت هو المال. فالعشرون جنيهاً التي جمعتها أمي تم استنفادها بسرعة، وبدا أننا وصلنا إلى مرحلة التوقف عن إنجاز المشروع. سألني أبي مرة، كيف يبدو لي المنزل وهو بجدران أربعة وأساسات حجرية؟ فقلت له:

– يبدو لي كسيمفونية ناقصة.

ثم تمكنت أمي من أن تنتزع جنيهات إضافية جديدة فبدأ العمل من جديد. عينوني «رئيس عمال» فوقهم جميعاً. ومن وقت لآخر، كنت أشير إليهم بالأشياء التي أريدها أن تكون في ذلك المنزل، وأين أريد أن يكون موقد النار... والنافذة... والباب.

كانت هناك مناقشات كثيرة بين أبي وإخوتي الأربعة حول نقاط تقنية لم أكن أفهمها، فقط كنت أتظاهر بمعرفة فحوى ما يدور بينهم من نقاش.

بعد بضعة شهور، تم وضع السقف، غير أن المال تسرب من بين أيدينا مرة أخرى، وتوقفت عملية بناء البيت. بعد فترة أخرى بدأت الأمور في التحسن، فبدؤوا في العمل على إنهاء أرضية المنزل وموقد النار، وفي اليوم التالي، وضعوا للبيت إطار نافذة وباباً. المدخنة كانت جاهزة من قبل، بطبيعة الحال، وعلى الأقل كنا قادرين أن نشعل فيها ناراً، إن لم يكن شيئاً آخر!

ببطء. وبطريقة متدرجة، بدأ المكان في التشكل، ووضع اللوح الزجاجي للنافذة، وجصصت الجدران، وتم تلبيس الأرضية بقالب خشبي. لقد تم إنهاء البناء كما يجب لمنزل حقيقي.

لكنه بدا كقبو، دون اللمسات الإنسانية الضرورية. فقط يحتاج الآن إلى المفروشات كي تدب فيه الحياة.

قطعة بعد قطعة، دخلت المفروشات إليه، أريكة، وسرير، وبضعة مقاعد، وطاولة. ثم إن زوج أختي الذي يعمل في مجال النجارة، صنع لي مكتباً جميلاً لأجمع فيه أشيائي الصغيرة المبعثرة. تم وضع مشمع الأرضية، وكذلك ورق الحيطان، وعُلقت الستائر. في بضعة أيام تم إيصال الأنوار الكهربائية، ودُهن الباب وإطار النافذة، لقد أصبح المكان لائقاً للعيش فيه أخيراً.

كان الهدف الأصلي الذي انعقدت النية عليه، هو أن نجهز ما يشبه غرفة التمارين في ذلك المكان؛ غرفة ألعاب رياضية، حيث يمكن للدكتور وارنانتس أن يدربني دون إزعاج.

على كل حال، مع مرور الزمن، حولت المكان إلى غرفة جلوس ومكتب في الوقت نفسه، كما كنت أتناول وجباتي هناك. أقرأ وأكتب وأنام. جعلت أهلي يصنعون لي أرففاً للكتب، حتى امتلأت واحداً تلو الآخر تدريجياً.

وهكذا، استطعت أن أنفصل حقيقة عن العائلة، بعيداً عن الضوضاء والحياة والحركة في داخل المنزل. أخيراً، أستطيع أن أعيش في عزلة مريحة، حيث أرسم وأكتب بالقدر الذي أشتهيه في حرية كاملة دون طبول الأصوات المتكررة في أذني. في الصيف، استطعت أن أجلس بجوار النافذة المفتوحة كي أقرأ. الصوت الوحيد الذي أسمعه هو لفرقة الطيور السعيدة تغني على الأشجار في الخارج. وعندما أتى الشتاء أصبح المكان أكثر بهجة، لأنني كنت أجلس

بجوار النار في ظلمة الليل وأنظر إلى الوهج الأحمر يرقص على الجدران ويسقط على ظهور الكتب في أدراجها، جاعلاً حروف العناوين الذهبية بارزة في الظلام.

قراءتي مازالت محدودة. رفيقي الرئيس كان «تشارلز ديكينز». قرأت ستة أو سبعة من كتبه في تعاقب سريع جداً. كتابي المفضل منها كان «دافيد كوبرفيلد» الذي قرأته ثلاث مرات بشغف لا يعرف الخمول. الكتاب الذي كان الأكثر تشويقاً بالنسبة إلي هو «رحلة القبطان كوك» الذي أهدته لي السيدة ماغواير في عيد الميلاد. أستطيع أن أتذكر الإثارة والدهشة اللتين شعرت بهما وأنا أقرأ عن الجزر المفقودة وحطام السفن الغارقة وعصابات المتوحشين المتعطشين للدماء وهم يهتفون وينطلقون من فوق الرمال هادرين، في حين تقف السفينة المسكينة مسحوقة على الصخور.

جعلني هذا أحلم بالسفر، في يوم ما سيأتي. أسافر إلى مدن العالم العظيمة، حيث ألتقي بالناس وأرى المشاهد الغريبة. كان خيالي مشغولاً باستحضار الصور الذهنية للمدن المخربة وهي صامتة، ميتة، وللأدغال الرطبة التي تمتلئ بالحياة ويتخللها البخار، وللصحراء الشاسعة التي لا ترى فيها آثار أقدام، رمال صفراء سرمدية تستحم في شمس لا تعرف الشفقة.

كانت متعة كبيرة، ذلك الرحيل في أسفار الخيال تلك، من خلال صفحات الكتب. على الرغم من أن قراءتي مازالت إلى تلك اللحظة قليلة وضيقة، لكنها ساعدتني على أن أعرف أشياء عن العالم خارج حدود جدران مكتبي الأربعة.

في هذه الأثناء، استمر علاجي مع الدكتور وارنانتس. لقد استطعنا أن نشق طريقنا الآن بعد أن أصبح عندنا المساحة الكافية التي نتحرك فيها. إلا أن تلك المعالجة مازالت غير مثمرة. فهذا الشلل الدماغي مازالت معظم أسباب حدوثه غير معروفة، وهكذا فإن المعالجة مازالت في مرحلة بدائية.

ثم أتى الدكتور كوليس وأخبرني أنه قد قرر أن يرسلني إلى لندن لألتقي زوجة شقيقه السيدة آيرين كوليس، وهي متخصصة مشهورة في الشلل الدماغي. أراد أن يأخذ رأيها عن مدى استجابتي للعلاج قبل أن يبدأ في وضعي على برنامج إعادة تأهيل كامل النطاق. طلب منها أن تفحصني بنفسها في مستشفى ميدل إيسيكس، وأن تزوده برأيها عن الفرصة المتاحة لي لكي أعيش حياة طبيعية.

سأسافر إلى لندن بعد بضعة أيام، والدكتور وارنانتس الذي سبقني في السفر، سيلتقي بي في المطار بسيارته التي ستنقلنا إلى المستشفى لرؤية السيدة كوليس، أما أمي فستسافر معي.

أدركت عندها أن كل شيء يعتمد على حكم السيدة كوليس، وأن مستقبلي -في الحقيقة- ملقى بين يديها. لو قررت أنها حالة متأخرة بصورة كبيرة تمنع الفائدة من العلاج، فإنني سأعود إلى المربع الذي كنت فيه عندما وجدني الدكتور كوليس. عودة أخرى إلى حيث حياتي القديمة التي لا نشاط فيها ولا أمل.

من جانب آخر، لو أنها استنتجت أنني قد أستجيب بصورة إيجابية للعلاج، عندها سيصبح لحياتي معنى، ستصبح جديرة بأن

تحوي قيمة جوهرية وأن تُعاش. عندها سيصبح بإمكاني أن أحطم بعض الجدران التي وقفت بيني وبين الوجود الطبيعي.

كنت في مفترق طرق حقيقي.

الفصل (11)

زيارة طائرة

إنه شهر يناير، مستهل عام 1949، عندما سافرت جواً إلى لندن مع أمي لنرى السيدة كوليس ونسمع حكمها. بقينا هناك مدة يوم واحد فقط. كان هذا كل شيء، وعلى الرغم من هذا، فقد ابتدأ تغير حياتي كلياً من الفضاء، في تلك الرحلة القصيرة.

كلنا توقعنا أن تشعر أمي بالإثارة الزائدة والعصبية، لأن تلك كانت رحلتها الأولى في الجو.

قلت لها ممازحاً:

– من الأفضل أن تحضري كتاب صلواتك معك، لا بد أن القديس بيتر سيضطر للسماح لك بركوب الطائرة إذا رأى الكتاب.

لكننا لم نكن نعرف أمي بالقدر الكافي، لقد أخذت الصورة الذهنية للطيران بهدوء تام، وقالت ملخصة الحوار:

– يحتمل أن نموت في الفضاء، تماماً كما يحتمل أن نموت ونحن على الأرض.

في اليوم التالي خرجت واشترت قبعة جديدة، وأعلنت وهي تجربها أمام المرآة:

– هذه للندن... اشتريتها من محلات كليري، هل أعجبتك؟

نظر إليها أبي من زاويتها اليمنى، ثم من زاويتها اليسرى ومن زوايا أخرى متعددة، ثم توقف، بدت نظراته ناقدة جداً، توقف مرة

أخرى، ثم حك رأسه وهمهم:

– ليست سيئة، لكنها غريبة وذات طابع فنيّ جداً، لكن أخبريني، ماذا يفترض أن تكون؟

كانت شيئاً صغيراً من الساتان الأسود والريش الكثيف ولها وشاح أسود.

قاطع بيتر الحديث بقوله:

– إنها فاتحة اللون جداً، سيسميك الناس السيدة « طاووس».

غاضة النظر عن كل هذا، ارتدت أمي قبعتها الجديدة في اليوم الذي طرنا فيه إلى لندن، وابتسمت ابتسامة النصر عندما أخبرها الدكتور كوليس أن القبعة أعجبته.

اعتقدت أنني الآن قد أصبحت متمرساً في الرحلات الجوية، غير أنني أصبت بدوار عنيف جراء الطيران، حتى اعتقدت أنني سأموت. ثم إن المضيفة توقفت عندي وسألتني إن كنت أريد حبوباً مضادة لدوار الجو، قالت إن لديها بعضاً منها في حقيبتها اليدوية.

نظرت إليها فذهب فوراً كل الصداع الشنيع الذي كنت أشعر به في رأسي. لم أحتج إلى الحبوب لأنني نسيت كم كنت مريضاً بمجرد أن قاست ضغطي. كانت مضيفة رائعة.

وصلنا إلى مطار نورثولت في تمام الحادية عشرة، صباح سبت بارد. كان الدكتور وارنانتس هناك في استقبالنا. رفعني فوق كتفه، حتى وضعني في تاكسي كان ينتظرنا. لم أحب هذه الطريقة في السفر، على ظهر شخص، لأنني شعرت بأنها طريقة لم تظهرني بمظهر لائق وشعرت بأنني كالأحمق. كنت أفضل لو أنني زحفت

على بطني إلى التاكسي.

اصطففنا على الطريق الذي سيوصلنا إلى مستشفى ميدل إيسيكس. نظرت من النافذة، والسيارة تشق طريقها عبر حركة مرور لندن المزدحم. رأيت حشوداً ضخمة متجمعة أمام زجاج المحلات الكبيرة ونهراً لا يتوقف من الحافلات الحمراء والسيارات والدراجات، كل ذلك يبدو وكأنه يلتقي في كتلة واحدة من الضجيج والحركة. رأيت المباني الرمادية الطويلة تبرز أمام السماء الزرقاء الرمادية. فوق كل شيء، ارتفعت الأصوات الصادحة في كل لحظات اليوم، من قلب مدينة عظيمة.

لاحظت رقعة من الخضرة الزاهية بعيدة عن الأنظار، وعندما اقتربنا، تأكد لي أنها حديقة تضم أشجاراً فاتنة مصطفة على جوانبها.

قال الدكتور وارنانتس معرّفاً، ونحن نمر بجوارها:

– إنها ريجنتس بارك.

لقد جعلتني أتذكر حديقة أولد فينيكس في دبلن، والأوقات السعيدة التي عشتها كطفل مع إخوتي في المروج الخضراء في دونولي هالو منذ سنوات عديدة مضت. طفل سعيد يعيش في عالم مشرق خاص به، وها أنا اليوم، في الثامنة عشرة، أمشي في الشوارع الشاسعة في مدينة لندن سائراً إلى اجتماع مصيري. كنت صامتاً، جلست أحدق من نافذة التاكسي لأنني أعلم أنني بعد وقت قصير سوف أكتشف في أي اتجاه سيسير مستقبلي. كنت متشوقاً لأن أعرف، ومع التشوق خوف من المعرفة، إذ سيكون لها تأثير عميق

على حياتي. سيكون مصيري إما في القمة أو في الحضيض.

أخيراً، توقفت السيارة أمام مبنى صخري ضخم، ذي عدد لا يحصى من الدرجات التي تؤدي إليه. كان ذلك هو مستشفى ميدل إيسيكس حيث وجهتي. أخذونا في مصعد وقادونا إلى غرفة الطبيب الصغيرة حيث جلسنا ننتظر وصول السيدة كوليس.

ابتسم الدكتور وارنانتس وهو يساعدني في الجلوس على مقعد، وسألني وهو يشير بإصبعه إلى تمثال صغير من نحاس على رف المدخنة:

– خائف؟

هززت رأسي نافياً، ولا غاية لي إلا أن أهب نفسي شيئاً من الشجاعة.

أكمل كلامه وهو ينظر إليّ:

– أنت خائف، أنت تعلم هذا... أنت خائف لأقصى درجة، لكنك عنيد جداً فلن تعترف بذلك حتى لنفسك... وهذا جيد.

أمي كانت رائعة. اكتفت بالصمت والجلوس والنظر في بعض المجلات الملقاة على الطاولة، فيما كانت تمضغ شطيرة من لحم الخنزير، أحضرتها معها. كانت هذه أول مرة تخرج فيها من دبلن، ومع ذلك بدت في غاية الهدوء والبهجة كما لو كانت في مطبخ بيتها، تقطع الخبز لتقدمه مع الشاي لأطفالها.

وعلى الرغم من هدوئها الظاهري، فإنني كنت أعلم جيداً أنها كانت تشعر في داخلها وتفكر في الأشياء نفسها التي كنت أفكر

فيها، وأنها كانت تفهم، تقريباً كما كنت أفهم، ما قد تعنيه هذه المقابلة ونتائجها على حياتي مستقبلاً. وكيف أن كل حياتي سوف تتحكم فيها نتيجة هذا الحكم الذي سنستمع إليه. ودون كلمات كثيرة، زودتني أمي بشيء من شجاعتها وقوتها لأواجه الموقف.

فجأة فتح الباب من خلفي، فالتفت ورأيت رجلاً وامرأة يدخلان إلى الغرفة. انجذبت عيناي مباشرة إلى المرأة الضئيلة النحيلة بشعرها الأشيب ووجهها الجميل، وخطواتها السريعة المرنة. كنت متأكداً أنها السيدة كوليس، فقد ذابت في حضرتها شكوكي ومخاوفي على وجه السرعة. لقد كان هناك شيء ما فيها أشعرني بالأمان ورباطة الجأش؛ ابتسامتها الرخيّة، وطبيعيتها الكاملة، وتلقائيتها، بغض النظر عن الحكم الذي ستطلقه أياً كان.

قالت لنا:

- آسفة على تأخري.

قالتها وهي تجلس على حافة المكتب وتشعل سيجارة، لبضع ثوان لم أشعر أنها تلاحظني وبقيت تتحدث عن أشياء، كالطقس، وأسعار السجائر، والسيد تشرشل. ثم إنها نقرت سيجارتها وانسلّت عن المكتب، ومشت باتجاهي، وقالت وهي تبتسم:

- كنت فقط أحاول أن أبدد جزءاً من قلقك يا كريستي.

ثم سألتني:

- كم عمرك الآن؟

وعندما حاولت أمي أن تخبرها بعمري، رفعت هي يدها وقالت بتهذيب:

– دعي كريستي يخبرني بنفسه... فقط من باب التسلية.

استطعت أن أمارس النخير قائلاً إنني بلغت الثامنة عشرة، فقالت السيدة كوليس:

– ثماني عشرة؟ ثماني عشرة سنة من الإعاقة كافية لأي إنسان. ألا توافقني الرأي أن الوقت قد حان للقيام بشيء حيال ذلك؟

فهززت رأسي بالموافقة، فردت:

– نعم، وأنا كذلك، حسن جداً، فلننظر إن كان من الممكن أن نعدل من وضعك.

ثم إنها نادت الرجل الذي دخل علينا معها، فأقبل علينا شاب ضئيل الحجم، بشعر رملي اللون، ووجه نحيل رضيّ التعابير، فقالت السيدة كوليس:

– هذا هو السيد غلاغير؛ أحد أعضاء فريقنا الطبي.

بعد ذلك، جمعتني صداقة قوية مع السيد غلاغير، فقد ساعدني كثيراً في كفاحي وسيبقى اسمه رديفاً للصداقة والتفهم.

جُردت من ملابسي ووُضعت على الكنبة مستلقياً، في حين قامت السيدة كوليس بفحصي يساعدها في ذلك الدكتور وارنانتس والسيد غلاغير. لم أفهم عم كانوا يتحدثون في غالب الأحيان. سمعت بعض المصطلحات الطبية مثل:

– Cerebrum «المخ»، basal ganglia و«العقد القاعدية»، incoordination و«عدم التناسق». وكلمات أخرى غامضة وغير أليفة بتاتاً إلى أذني. سردت أمي التفاصيل المهمة من تاريخي الطبي للسيدة كوليس، في حين كانت تلك تفحصني.

عندما انتهى الفحص، ساعدني السيد غلاغير في ارتداء ملابسي. بعد ذلك انسحب الأربعة؛ السيدة كوليس والدكتور وارنانتس والسيد غلاغير وأمي، إلى زاوية أبعد ليتناقشوا بعيداً عني لبرهة. جلست وحيداً على الكنبة وقلبي ينبض بشدة، أنتظر بلهفة عارمة صدور الحكم. ونضح جسدي عرقاً، كأنما كنت في محاكمة تتعلق بحكم يخص حياتي كلها.

في النهاية، أتت السيدة كوليس تمشي عبر الغرفة وجلست على الكنبة بجواري، وقالت:

– حسناً يا كريستي، لم يكن مجيئك إلى لندن بلا جدوى. لا أستطيع أن أرى أي سبب يمنع شفاءك التدريجي.

قفز قلبي قفزة فرح صافية. سوف أشفى! ماذا يمكن أن يهمني الآن؟ كل المرارة ووجع القلب قد تحول الآن إلى سعادة عارمة تتخللني، وتشرق في وجهي وتجعل قلبي يرقص بجنون. لقد وصلت إلى القمة التي أنشدها أخيراً.

أكملت السيدة كوليس حديثها:

– نعم، يمكن أن تشفى إذا كنت مستعداً للقيام بكثير من العمل الجاد للسنوات المقبلة... لكن.

هنا توقفت السيدة كوليس ونظرت إليّ بنظرات ثابتة، ثم استمرت:

– يجب أن تقوم بتضحية كبيرة. لا يمكن أن يتحقق شيء جيد للإنسان دون تضحية من هذا النوع، وتضحيتك هي أن تعقد العزم على ألا تقوم باستخدام قدمك اليسرى مرة أخرى.

- قدمي اليسرى!

لكنها هي كل شيء بالنسبة إلي، فحتى الكلام أتكلمه بها. كل ما أصنعه، أصنعه بها! لقد كانت وسيلة التواصل الوحيدة مع العالم الخارجي، طريقتي الوحيدة للوصول إلى أذهان الآخرين وجعل نفسي واضحاً ومفهوماً. بقية جسدي كانت بلا جدوى، أو قيمة، وقدمي اليسرى، كانت العضو الوحيد «العامل» في جسدي بأكمله. دونها سأكون تائهاً، صامتاً، ودون أدنى قوة.

قالت السيدة كوليس مترجمة أفكاري:

- نعم، أعرف كم هذا قاسٍ عليك، إنها تضحية جسيمة، لكنها طريق الخروج الوحيدة. ليست هناك طرق مختصرة. إن بقيت تستخدم قدمك اليسرى فمن الممكن أن تصبح فناناً عظيماً أو كاتباً، لكنك لن تشفى أبداً. لن تستطيع أن تمشي، لن تستطيع أن تتكلم، لن تستطيع أن تستخدم يديك، ودون هذه الأشياء لن يصبح لديك حياة طبيعية في أي مجتمع. لذا كل الأمر مرتهن بهذا: هل ستعطي وعداً بألاّ تستخدم قدمك اليسرى مرة أخرى؟

رأيت وجه الحكمة فيما قالته. بحق، لم يكن هناك مجال للقاء في منتصف الطريق، سيندمج كل شيء من الآن في معركة واحدة، وإن أردت أن أنتصر في تلك المعركة فلا بد أن أضع كل ما أملكه فيها، يجب أن أدفع ثمناً غالياً، ربما بدا ثمناً قاسياً، لكن المكافأة كبيرة هي الأخرى. قد يكون الأمر مخيفاً، لكنه سيجلب النصر في النهاية.

قلت للسيدة كوليس:

- سأفعل.

فكانت أوضح كلمة نطقت بها في كل حياتي، فأخذت يدي وضغطتها، وفي عينيها اضطرام.

- ولد طيب، لن يكون الأمر سهلاً، يجب أن تضع كل قدراتك الذهنية وراء العمل الذي سنعطيك إياه، ومع ذلك سيكون كل شيء بطيئاً بطئاً قاتلاً، خصوصاً في عمرك هذا، لكن الخطوة الأولى قد تم تجاوزها، وتبقى الخطوات الأخرى رهناً بك.

لم أفهم لِمَ يجب أن أتوقف عن استخدام قدمي اليسرى كي أستفيد من العلاج، لكن السيدة كوليس أوضحت لي فيما بعد، أنه وعلى الرغم من أن استخدام قدمي اليسرى قد أفادني ذهنياً، لأنه أعطاني نوعاً من المتنفس يستطيع ذهني أن يخرج عبره من سجنه فيعبر عن نفسه، لكن هذا كان سيئاً بالنسبة إلى جسدي، لأن استخدامها فرض نوعاً من الشد القوي على بقية جسدي، وهكذا كانت قدمي اليسرى تخرج بعض القلق الذهني وفي المقابل تزيد من سوء حالة عضلاتي المشلولة أصلاً. ولأنني كنت قادراً على جعل نفسي مفهوماً بقدمي اليسرى، لم أفكر في استخدام يديّ. لكن إن توقفت عن استخدام قدمي اليسرى، فعندها سأضطر إلى التركيز على محاولة استخدام بقية جسدي.

كل هذا يبدو منطقياً. لا شيء يمكنه أن يكون أكثر صدقاً أو عقلانية من هذا، لكن هناك فرقاً كبيراً بين الكلام والفعل. كم الفرق كبير بين التفكير في مثل هذا الأمر وتطبيقه فعلياً في الحياة الحقيقية! الأمر لا يشبه أن أربط خيط حذائي وأقيد قدمي اليسرى المسكينة.

إنه أبعد من ذلك بكثير وأعمق. لقد شعرت بأنني على وشك أن أقفل على نفسي وأرمي المفتاح بعيداً.

مازال السؤال قائماً، ماذا كان يمكن أن أفعل سوى الموافقة على ذلك الاقتراح؟ لو أنني رفضته لازدحامي بالخيارات المزعومة، فكل ما سيحدث هو عودة الماضي بكل المرارات والتشاؤم الأسود المظلم كسماء الشتاء. لو أنني قبلت هذا العرض ببتر قدمي اليسرى عن القيام بما كانت تقوم به، فهذا معناه أنني سأدخل حياة جديدة، ومزاجاً جديداً كاملاً من التفكير والحركة، وهذا في حد ذاته قد يكون شيئاً يستحق التضحية.

طرنا عائدين إلى دبلن في تلك الليلة، وقابلنا في المطار الدكتور كوليس الذي أوصلنا بسيارته إلى المنزل. يبدو أن السيدة كوليس قد تواصلت معه من خلال الهاتف وبدا في غاية السرور بالأخبار السعيدة. أخبرني الدكتور أنه قد نجح مؤخراً في تجهيز عيادة للشلل الرعاشي على نفقته في شارع «ميريون» بدبلن. وأن جمعية فرسان مالطا وسيارات إسعاف القديس جون قد وافقتا على أن توفرا النقل لإحضار كل الأطفال المعاقين للعلاج من العيادة وإليها، ومن الساعة التاسعة صباحاً حتى الثانية عشرة ظهراً. كان علي أن أبدأ في الحضور إلى العيادة من صباح الاثنين المقبل بواسطة سيارة إسعاف الجمعية.

قال لي الطبيب وهو يضع يده على كتفي:

– لا يوجد شيء لا يمكنك الانتصار عليه يا كريستي.. وتذكر أنني معك طوال الطريق.

لكنني علمت لحظتها... أن واجبي الأول هو أن أنتصر قبل كل شيء على نفسي، وأن تلك هي المعركة الحقيقية التي بدأت.

الفصل (12)

ما كان يمكن أن يحدث

كنت أشعر بإثارة عارمة وأنا أتخيل ذهابي إلى العيادة للمرة الأولى. لم تكن لدي أدنى فكرة عنها وكيف ستبدو. تخيلت جدراناً باردة من مرمر، وأناساً يلبسون السترات البيضاء، والرائحة النفاذة للمعقمات.

في صباح الاثنين الذي لا ينسى، جاءت سيارة إسعاف القديس جون، وتوقفت عند باب بيتنا في قرابة التاسعة والنصف، فألقيت عليها نظرة خاطفة قلقة من النافذة، فلطالما ارتبطت صورة سيارة الإسعاف في ذهني بالجنازات: شيء معتم يبعث الرعشة في الروح، ويمتلئ بأجساد تنزف دماً.

وعلى الرغم من ذلك، كان السائق شخصاً لطيفاً مبتسماً، قام بمساعدة والدي في رفعي إلى داخل السيارة. قلل هذا من خوفي. وفي أثناء جلوسي في المقعد، نظرت حولي إلى زملائي المرضى، فرأيت أنني أكبرهم سناً. على الناقلة كان يرقد أمامي طفل صغير جداً، بذراعين مشدودين وملتويين، وساقين منحرفتين، ورأس انثنى بزاوية غريبة تخالف بقية جسده. جلست أمامه فتاة صغيرة ذات شعر ذهبي مشرق وعينين كبيرتين. كانت جميلة جداً، لكن ساقيها كانتا نحيلتين ومشوهتين بعظام ناتئة إلى الخارج، ويداها القلقتان المرتعشتان تشبهان يدي، لكنهما أصغر وأكثر هشاشة.

لم تتوقف عن الابتسام طوال الوقت، وهي تحاول أن تبعد جديلة شقراء عن عينيها. في الكرسي المجاور لي كانت هناك طفلة في حالة سكون تام، بطاقم كامل من الملامح الجامدة العاجزة عن أي تعبير، ما عدا عينيها اللتين كانتا تتحركان مستعلمتين عما حولهما. هاتان العينان كانتا الشيء الوحيد الحيّ فيها، كانتا كنافذتين مضيئتين في بيت مظلم.

أخيراً، وصلت سيارة الإسعاف إلى شارع ميريون، وتوقفت أمام مبنى صخري ضخم لونه رمادي.

نظرت من النافذة، كان طريقاً عاماً مليئاً بالمباني المدهشة على جانبيه. كان يضج ضجيجاً مستمراً بحركة المرور، كل من يمشي في الشارع بدا وكأنه رجل أعمال متمرس يمشي ليدرك مؤتمراً مهماً، لم يكن المشهد غريباً كما بدا لأول وهلة، لأنني اكتشفت فيما بعد أنه في الناحية المقابلة من الشارع كان يقبع مبنى الحكومة، حيث ذلك العمل المعقد؛ إدارة شؤون الأمة كلها.

التفت فشاهدت الدكتور وارنانتس ينزل درج المبنى حيث توقفنا، فشعرت بالطمأنينة تعود إليّ عندما رأيته.

ولأني لا أستطيع المشي، ولم أر عربة أو مقعداً ينقلني إلى داخل المبنى، أخذت أنظر إلى الدكتور وارنانتس فنظر بدوره إليّ. ثم هز كتفيه وهو يقول:

– يبدو أنني سأقوم بدور الرجل القوي مرة أخرى، أيها الولد الكبير.

ثم أمسك بي وأحاط ساقيّ بيديه وألقاني على ظهره. وبينما

يحملني رأيت عبر الدرج لوحة ذهبية صغيرة على الجدار نقش عليها «مستشفى دبلن لتقويم الأعضاء». قلت لنفسي، هذا خبر سيئ، وتساءلت عن معنى هذه الكلمات الطنانة.

من موقعي، فوق كتف الدكتور وارنانتس لم أستطع أن أرى ما يحيط بي في صورة متكاملة، غير أن النظر المتكرر إلى الأرض جعلني أعرف أننا قد دخلنا إلى داخل المبنى. ثم نزلنا درجاً طويلاً، ومشينا في دهليز شبه مظلم لبعض الوقت، ثم فتحنا باباً قديماً متزعزعاً في النهاية، خرجنا منه إلى ضوء النهار مرة أخرى.

قال الدكتور وارنانتس وهو يلهث:

- يا لها من رحلة... وسندخل الآن في رحلة جديدة.

أستطيع أن أرى أننا أصبحنا في حقل أو ما أشبهه، لأنني أرى عشباً على جانبي الممر المفروش بالحصباء والذي أمر عبره محمولاً. وحين رفعت رأسي من زاويته المنكفئة، استطعت أن ألمح الأشجار تحيط بنا، لكنني لم أكن في مزاج يسمح لي بالاستمتاع بالمشهد، كما أن الموقع الذي كنت فيه لم يكن يسمح بذلك. لقد أصبحت أشعر بالإفطار الذي تناولته منذ ساعة وهو يخرج من حلقي مع كل خطوة يخطوها الدكتور وارنانتس. كنت مضطراً إلى إبقاء حلقي مغلقاً كي لا يخرج الطعام.

قال الدكتور وارنانتس وهو يلتقط أنفاسه:

- ها هي نهاية الطريق الوعر يا كريستي في الوقت الحالي.

استطعت أن ألوي رأسي مستديراً، لأحظى بنظرة للمبنى الخشبي الضيق الطويل ذي الطابق الواحد، ويبدو كمبنى للألعاب الرياضية.

اقتربنا منه فسمعنا أصوات الأطفال، بعضهم يضحك وآخر يبكي، وأكثرهم كان يصرخ.

دفع الدكتور الباب ودخلنا، وهو يحملني فوق كتفه. في الدقيقة التي دخلنا فيها، صدمتني الضوضاء بقوتها الكاملة وأشعرتني بما يشبه النشوة الجسدية. الضجيج كان جنونياً، فالأطفال يبكون، ويصرخون، ويضربون لعبهم وأي شيء يستطيعون إمساكه بالجدران والأرض، يركلون بأرجلهم في الفضاء، ويزحفون ويتلوون كالسلطعون فوق بعضهم. كان الأمر شنيعاً. نظرت من حولي والدكتور وارنانتس يلقي بي على الأرض وتساءلت: هل أُحضرت إلى المكان الخطأ؟ وذلك لأنني محاط بأطفال لم يتجاوزوا الثالثة من العمر، في الغالب. قلت لنفسي لعلها حضانة أطفال أو مأوى. اكتشفت أن البالغ الوحيد في الغرفة، غيري وغير الدكتور وارنانتس، كان شاباً صغيراً عرفته باسم السيد غلاغير، فابتسم عندما رآني، وقد خالجني شعور بعدها بأنه رجل شجاع جداً.

مر بي الدكتور وارنانتس بابتسامته وهو يحمل طفلين رضيعين بذراعيه إلى نهاية الغرفة، وقال:

– ليس لك علاج اليوم يا كريستي.. فقط استرخ وشاهد ما حولك.

وعلى الرغم من ذلك، كان ما رأيته علاجاً، فالنظر إلى ما حولي، كان تعليماً ودروساً عن المعاناة الإنسانية؛ خبرة جديدة ومخيفة لواحدٍ لم يغادر جدران بيته إلا حديثاً. في ضوء كل ذلك مجتمعاً تجلى الآن مظهر جديد للحياة أمامي. ما رأيته هناك في لوورد لم يكن

سوى ظل، هنا بدا الجوهر، إنه تحقق المخاوف والتوقعات. الناس المرضى الذين لقيتهم في مغارة لوورد، كانوا كلهم كباراً بالغين، رجالاً ونساء ناضجات، بعضهم كان في ألم شنيع بطبيعة الحال، لا شيء أمامهم سوى حياة محطمة أو خلفهم، لكنهم ما زالوا يملكون القدرة على فهم إعاقتهم، أو على الأقل يمكنهم الاستسلام لها. لكن هنا، لا يوجد شيء من ذلك. هنا لا يوجد أي منطق ولا عقلانية، هنا يوجد عجز فقط... عجز... وشيء يشبه الرعب يتجلى في صورة أطفال مجدولين، بأعضاء فاسدة صغيرة، ورؤوس مشوهة، وملامح محرفة، بعضهم مكوّم على الأرض، جامد معدوم الحركة، كأكياس ملقاة بإهمال في الغرفة، هنا وهناك. آخرون تزلزلهم حركة رعاشية لا تتوقف، حركة تهز أجسادهم الصغيرة وكأنما هي تيار كهربائي يسري في دواخلهم باستمرار، فيجعلهم يهتزون، ويتمعجون، ويرتجّون، في التواءات لا منتهية، أيديهم الصغيرة مطبقة بإحكام، أرجلهم مثنيّة وملتصقة ببعضها كما لو كانوا يمارسون الرذيلة، ورؤوسهم مائلة. فجأة أدركت، للمرة الأولى، كيف كنت أبدو عندما كنت طفلاً صغيراً.

كان من الممكن بسهولة أن أشعر بالشفقة عليهم، فهم صغار جداً، وعاجزون جداً وخائفون، ومعتمدون كلية على الآخرين، لكنني لم أفعل، لأنني تذكرت كم هي مُرّة نظرة الشفقة، وكم جرحتني ذات مرة. وبدلاً من الشفقة، بدأت في الشعور بالمشاركة الوجدانية مع أولئك الأطفال، فثمة صلة روحية وألفة، ورابط مكنني من أن أرى وأشعر بشخصياتهم الحقيقية التي ترقد خلف

الوجوه التي تبدو مغايرة لكل ما هو طبيعي، فخلف الأطراف المشدودة القلقة، هناك نوع من التبصر الأخوي جعلني أرى ما وراء العضلات الملتوية، وأتوغل إلى داخل الأذهان المحبوسة الراقدة في الداخل. رأيت كيف أنني لم أكن وحدي الذي تم إغلاق الأبواب دونه، خلف قضبان السجن.

عندما عدت إلى المنزل في ذلك اليوم، تجمهر أفراد العائلة كلهم حولي، يريدون أن يعرفوا كيف بدت لي العيادة، لكنني لم أستطع أن أقول شيئاً، لأنني رأيت وشعرت بشيء لا تستطيع كل كلماتي أن تصفه.

بعد ما يقارب الأسبوع من التردد على العيادة، وفي كل مرة هناك، وفي أثناء عملية «تكييفي» كما يعبر الدكتور وارنانتس، بدأت دخول مزاج المعالجة بصورة بطيئة. اكتشفت أن الوضع مطابق تماماً للعلاج الذي كنت أتلقاه في البيت، ما عدا، بطبيعة الحال، أنه هنا بمقاييس أوسع وأكثر تنظيماً. التمارين في العيادة كانت تفاصيلها أكثر، بتعقد أكبر، وكثير من الجهد الذي يجب أداؤه. في البداية، وكي أكون صادقاً، شعرت بالسخف في أثناء تأدية التمارين، شعرت بأنني في مشهد مضحك جالساً في غرفة مليئة بالأطفال. من السخف أن أمارس التمارين نفسها التي يمارسونها. في الحقيقة لقد شعرت بأنني فيل وسط مجموعة من القطط الصغيرة، وكنت متأكداً أنني بدوت كذلك.

في الغالب، عندما أزحف على بطني وسط الأطفال، وهذا جزء من التمارين لأنه لم يسمح لي بالزحف على مؤخرتي كما كنت أفعل

في البيت، كنت أقف فجأة، كما لو غدوت واعياً بمحيطي لأول مرة، فأنظر ببطء إلى ما حولي حيث هذه الهيئات الملتوية العاجزة ملقاة على الأرض أمامي. أنظر إلى وجه الدكتور وارنانتس والسيد غلاغير وهما ينحنيان إلى الأطفال، أنظر إلى السقف بروافده الخشبية البنية المرصعة، والحيطان الخشبية بنوافذها العالية التي ألتقط منها لمحة إلى السماء الزرقاء والسحب البيضاء والأوراق الخضراء على الأشجار في الحديقة خارجاً، كنت أرى تلك الأشياء، ثم أتوقف فجأة لأسأل نفسي:

– ماذا أفعل أنا – كريستي براون – هنا؟

ماذا يعني كل هذا لي؟ هذا المكان الذي يقال له «عيادة»، هذان الطبيبان اللذان يمشيان في الجوار بقميصين بأكمام، أولئك الأطفال المعاقون بأجسادهم الملتوية المضحكة ورؤوسهم المتدلية، ما شأني بكل هذا؟ لم أنا هنا في هذا المكان الشاذ الغريب، بدلاً من أكون في غرفة نومي في بيتنا أمارس الكتابة؟

نعم، هذا صحيح، لم أعتد –إلى هذه اللحظة– العالم الخارجي. مازلت لم أدرك حقيقة الأمر كله، الحقيقة القائلة إنني الآن جزء من هذا العالم الغريب المذهل، هذا العالم الجديد سريع الحركة بأناسه وأمكنته. كنت كرجل الكهف الذي حبس لسنوات في الظلمة وفي تخوم مأواه، والآن ها هو فجأة يشق طريقه في هذا العالم الواسع المزدحم، يحدق مشدوهاً، كما لو رأى نور النهار لأول مرة، فأعماه كل ما كشفه ذلك النور.

حدث في مرات عديدة، عندما أكون محدودباً على الأرض،

أحدق فيما أمامي دون أن أرى، أن شعرت بنغمة تهزني من خلفي، فأثب وأنظر حولي، لأرى الدكتور وارنانتس يقف فوقي وهو يبتسم. قد يقول:

– أحلام اليقظة مرة أخرى... تفكر في كل الكتب التي سوف تؤلفها يوماً ما، هاه؟ اخرج منها أيها الولد الكبير. هناك عمل يجب تأديته، كما تعرف.

نعم، كنت أعرف أن هناك عملاً يجب تأديته، ويا له من عمل. عمل لن يكتمل في سنة، سنتين، أو ربما في خمس سنوات، عمل ربما يأخذ مني عمري كله. كنت أعرف هذا جيداً، وإلى الآن لم أستطع أن أتوقف عن التفكير في كل ما حدث لي قبل أن أدرك أن عملاً مثل هذا يمكن تأديته. لم أستطع التوقف عن التفكير بين حين وآخر، في الأيام الماضية، ليست أيام الماضي السعيدة، بل الأيام البائسة، حينما لم يكن لدي ما آمل فيه أو أعيش لأجله. لا شيء يمكنه أن يخفف الألم الذي يبعثه الحاضر المباشر، لا شيء يمكنه أن يخفف الظلمة الذي يبعثها المستقبل البعيد، لا شيء في الحقيقة سوى الألم والحسرة في الجوف تنمو مع نمو وعيي بنفسي وإعاقتها التي كنت أكرهها ولم أكن قادراً على فهمها.

لقد كان هذا صحيحاً. لقد كرهت إعاقتي، واحتقرتها. لقد كنت أتعذب، كنت أشعر بالتقزز من أنني وجدت مختلفاً، مختلفاً بطريقة قاسية عن بقية البشر. عند هذه اللحظة بدأت في الاقتراب من معرفة أن تلك الإعاقة التي كنت أعتبرها «لعنة من الله» سوف تأتي بجمال غريب إلى حياتي.

كنت قد أمضيت سنة من حضوري إلى العيادة عندما حدث ذلك، صباح يوم ربيعي رائع في شهر إبريل. وقتها كانت العيادة على وشك أن تغلق أبوابها معلنة نهاية اليوم. رجال الإسعاف أخذوا الأطفال إلى السيارة التي تنتظر، وكنت أنا الأخير المتبقي، أجلس على كرسي متحرك قديم مخلوع الأوصال، كانوا يستخدمونه في العيادة لنقلي وتحريكي في الجوار، عند الباب وقفت أستمتع بضوء شمس إبريل الدافئة، وأرقب اخضرار العشب وصفاءه مستمعاً إلى صوت فروع الأشجار وهي تصدر ذلك الحفيف والهمهمة في الريح الخفيفة المنعشة. كل شيء كان ساكناً لأنه لم يعد أحد في العيادة خلفي، لم يأتوا لأخذي إلى سيارة الإسعاف بعد. فجأة سمعت جلبة من نهاية الممر المفروش بالحصباء، صوت خطوات خفيفة، نظرت إلى الأعلى، فقد كنت على الأرض أستخدم قدمي اليسرى في العبث ببعض أوراق الشجر الساقطة دون سبب، فرأيت شيئاً أحمر يتحرك من خلال الأشجار في أعلى الممر، ثم إن ذلك الشخص دار حول المنعطف الصغير وأصبح ظاهراً للعيان، لقد كان فتاة.

حنيت رأسي بسرعة وحاولت بجهد كبير أن أبدو منهمكاً في ركل الأوراق المدهوسة هنا وهناك. سمعت خطوات الأقدام وهي تقترب أكثر، لقد أصبحت شديدة القرب مني الآن. لم أرد أن أنظر، لأنني أعلم عندها أنني سأضطر إلى الحديث إليها، علماً بأني لا أستطيع أن أتحدث بصورة طبيعية، فنهيت نفسي عن الحماقة. غير أنني نظرت خائفاً، إذ إن الفتاة الغريبة أصبحت على بعد بضعة أقدام مني، كما لو كنت أنظر إلى مشهد خيالي؛ زخرف من الأشجار في

خلفية المشهد، وظلال متموجة لفروع الأشجار على الأعشاب الندية. الشمس الآتية من الخلف كانت تمتزج بشعرها الأشقر، وأصبحت مصبوبة فيه، وبدت وكأنها محاطة بهالة من نور. تألق الشمس من حولها كاد يصيبني بالعمى. حينما اقتربت مني رأيت أنها فتاة متوسطة الطول لها شعر بني اللون وعينان خضراوان. نضحت ملامحها بجمال كلاسيكي. كانت ملامحها واضحة المعالم، منحوتة بطريقة أنيقة ومحددة كما لو أنها نقشت في رخام أبيض صاف. كان وجهها متورداً في ذلك الصباح الربيعي، وصفاء كله ثقة في عينيها، جعلني أحدق وأحدق. كانت وقاحة مني – أعرف ذلك – غير أني عجزت عن أن أصرف بصري عنها.

أذكر أنني قلت لنفسي بوضوح وهي تتقدم نحوي:

– هذه أجمل فتاة رأيتها في كل حياتي.

عندما رأت أنني كنت وحدي في الجوار، ترددت برهة ثم اتجهت نحو مقعدي بخطوات ثابتة وسألتني بابتسامة:

– من فضلك، هل السيد غلاغير في الجوار؟

غير أنني كنت قطعاً مربوط اللسان، ولم يكن الأمر فقط بسبب صعوبة النطق التي أعاني منها. في النهاية غمغمت أن السيد غلاغير قد يعود قريباً. ابتسمت مرة أخرى ومرت بجواري إلى داخل العيادة الفارغة.

مر أسبوع وكنت على وشك أن أفقد الأمل في رؤيتها من جديد، غير أنني عندما أتيت إلى العيادة صباحاً ذات خميس، كانت أول شيء رأيته، فعندما أدخلت بمقعدي المتحرك عبر الباب، شاهدت

الفتاة نفسها راكعة على الأرض بجوار أحد الأطفال وهي تخلع عنه سترته ببطء شديد. بدأت أعرف أشياء عنها مع مرور الأيام، كانت متخرجة من الجامعة – أخافني هذا قليلاً في البداية– وأصولها من غولواير، وآخر المعلومات أن اسمها شيلا.

من زاويتي التي أجلس فيها كنت أراقبها، فأرى كيف كان شعرها ينحدر مغطياً بعض وجهها عندما تركع وتتحدث مع الأطفال، وكيف تسرحه بنفاد صبر إلى الخلف بحركة من ذراعها، وكيف أنها عندما تختلس النظر إليّ في لحظة غير متوقعة، كنت أدير رأسي بعيداً في ارتباك يجعلني أهمهم بأغنية.

ذات صباح، بعدها، كنت أشعر بشيء من الاكتئاب داخل نفسي، شعور بالبؤس الكامل، متكئاً على الحائط، وعيناي مسدلتان وأفكاري تائهة في حفرة سوداء من التشاؤم، شعرت بأنني أنزلق من جديد إلى المزاج القديم حيث الاكتئاب وفقدان الأمل، كان هذا المزاج يمر بين الحين والآخر خارجاً من زاوية الماضي، لكن صوتاً قال لي فجأة:

– ابتهج يا كريستي!

اهتززت ملتفتاً، فرأيت شيلا تبسم لي وتشجعني من وسط الغرفة؛ ابتسامة واحدة منها اقتلعت الاكتئاب بعيداً عني. وبعد هذا بدأنا نعرف بعضنا جيداً، وأصبحت أمارس تماريني بمتعة كبيرة.

ذات صباح وبجرأة كبيرة أحضرت لها رسالة أمليتها على أخي في الليلة السابقة. أخذتها معها إلى البيت. قرأتها، ثم عادت في الصباح التالي بالرد.

بطبيعة الحال لم أتأخر في الرد على رسالتها وبهذا بدأنا في الانسجام مع بعضنا البعض. وهكذا وجدت طريقا لكسر أحد أعظم الحواجز التي تحول بيني وبين الناس، إن لم يكن أعظمها جميعاً، وهي كتابة كل ما أعجز عن نطقه.

الحيطان مازالت عالية بالفعل، وهي تحيط بي لكنني كنت أتسلقها واحداً تلو الآخر. أتسلقها؟ نعم، أتحرر منها؟ نعم، لكن ماذا يوجد خارج هذه الحيطان. يتحدث الناس عادة عن «الحرية» عن «العتق» و«الانطلاق» من الإعاقة الجسدية. غير أنني وجدت أن الأمر لم يكن مجرد مسألة انتصار، أو على الأقل محاربة ومجاهدة، فأمر إعاقتي بدا كبطل صغير شجاع رُبت على ظهره وقيل له إنك سوف تصل إلى «هناك» قريباً. وإن قصدوا بكلمة «هناك» الاستقلال الجسدي المادي، فهو مطلب لا بأس به، لكن لو كان المقصود بـ«هناك» الاستقلال الكامل، والحرية الكاملة من كل الصراعات الذهنية والعاطفية، فهم هنا على خطأ، وعندها ستتبدد كل تلك الكلمات الجميلة مثل «الحرية» و«الانعتاق» وكأنها كلمات جوفاء، لأنني اكتشفت الآن بنفسي أن الألم والمرارة اللذين شعرت بهما في الماضي وأثناء أسري، عندما كنت لأزال خلف قضبان سجني، كانتا لا تقارنان بالألم والمرارة اللذين أشعر بهما الآن في الوقت عينه الذي يفترض بي أن أقاتل كي أكسر أغلالي، وفي الوقت الذي اختفت فيه حالة فقدان الأمل وحلت مكانها فرص معقولة للشفاء. وأنا الآن أشعر بالألم الذي يحاول الناس الأذكياء أن يخفوه خلف أقنعة ومسميات مثل «يقظة» و«تنوير».

ليست هذه حالة «كآبة طفولية» تجيء وتروح مثل أمطار إبريل، وإنما ألم ناضج، ولعله هو الآخر كان يجيء ويروح، لكنه ترك وراءه انطباعاً أعمق، وجرحاً أغور في ذهني. شعرت بنفسي اقترب من وعي أعظم وأكثر إلحاحاً باحتياجاتي، وهذا في ذاته مؤلم بدرجة كافية. إلا أن الألم ذهب إلى أغوار أعمق عندما أدركت استحالة العثور على مصطلحات مناسبة للتعبير عن هذه الحاجات، وعندما أدركت أنه مهما بلغ مدى انتصاري على حدودي الجسدية فإن حياتي، داخلي، حياتي الوجدانية، وهي الأهم في نهاية المطاف، سوف لا تكون طبيعية إطلاقاً وسوف تضطر إلى البقاء مخزونة في داخلي، ومقموعة بدل أن تترك لتفصح عن نفسها. مع مرور الوقت وبمساعدة العيادة استطعت أن أنتصر على نفسي شيئاً ما، لدرجة أنني ربما أصبحت قادراً على ممارسة الحياة الطبيعية، أو على الأقل أصبحت أقرب إلى الحالة الطبيعية، وأصبحت أكثر استقلالاً. لكني كنت أدرك في أعماقي أنه سيكون هناك شيء ناقص على الدوام، شيء ما يمنع اكتمال الصورة أو تحوّل قطع لعبة التركيب إلى مرحلة الاكتمال، فدائماً ثمة جزء ناقص. على كل حال، الإعاقة لم تكن غير قابلة للشفاء، لكن شيئاً آخر كان كذلك، لا يهم مدى انتصاري على الإعاقة، ذلك أنني لن أكون أبداً فرداً طبيعياً يعيش حياة طبيعية، فاختلافي القديم سيظل باقياً. أريد أن أحب وأن أُحب لكن...

كان إدراكاً مراً، لكنه صحيح وضروري. ما الجدوى وما فائدة ذلك لي، إن كنت سأغلق عيني وأدير ظهري أمام كل حقيقة غير سارة عن نفسي؟ شعرت بإغراء هذا السلوك مرات كثيرة، لكن

ذلك كان مجرد تأخير قصير لتعذيب الأسير؛ أمر لا بد من أن يحدث في النهاية. لقد أتى وجعلني حزيناً.

شعرت بالمرارة فترة من الزمن، لكن هذا جعلني أيضاً إنساناً أقوى داخلياً في النهاية. أن يثبت أنني لن أشبه الآخرين، فعلى الأقل سأشبه نفسي بأفضل صورة ممكنة، وهكذا صارت شيلا، أفضل صديق يمكن أن أجده على الإطلاق. كانت كالمرآة التي أرى فيها نفسي... دون أقنعة، صارت أول معلم في حياتي عندما أصبحت بالغاً، ومن خلالها تعلمت أن أسافر في طريقي دون أن أسقط في الفخاخ المنصوبة على الطريق. كتبنا كثيراً لبعضنا، كانت رسائلي حالمة وخيالية ورسائلها مليئة بالحكمة.

«في إحدى رسائلك تقول إنك لا تفهم لم يصفك به الناس بالبطل، وأنك لا تشعر بالبطولة. أنا لست متأكدة أنني أعي معنى كلمة «بطل» لكن رأيي فيك هو أن الله قد أعطاك عقلاً كبيراً ومنحك مسحةً فنية، كما أنه أعطاك إعاقة جسدية، وبمعداتك الذهنية آنفة الذكر فإن معركتك الحاضرة مع الشلل الدماغي محتومة... تذكر أمك أيضاً، فدون حسها السليم، ربما تحولت بسهولة إلى شاب صغير تستثيره الاحتجاجات ويتحدث دائما عما «كان يجب أن يكون».

لدي صندوق بني اللون في مكتبتي بالمنزل، محفوظ بعناية، في داخله تستلقي كل رسالة أرسلتها شيلا إلي مربوطة إلى بعضها بشريط رومانسي أزرق، إنها اثنتان وثلاثون رسالة. لقد عددتها يوم أمس.

الفصل (13)

القلم

تجاربي في تلك العيادة وتأثيراتها فيّ جعلت ذهني ممتلئاً بالأفكار. بدا لي الأمر وكأن غلالة رفعت عن عينيّ، أو كأنما وجدت مفتاح شيء حيرني وعذبني طويلاً.

أحسست برغبة عارمة في أن أقول شيئاً، لا لعائلتي وأصدقائي فحسب، وإنما للجميع، والعالم بأكمله. في داخلي شيء، حاجة داخلية ملحة تدعوني إلى الكلام، أردت أن أخرجها من نفسي وإيصالها إلى الآخرين وجعلهم يفهمونها. شعرت بأنني وجدت شيئاً كنت أبحث عنه منذ أن امتلكت القدرة على التفكير والشعور بنفسي. لقد استغرق مني الأمر سنوات كي أعثر عليه، لكنني أصبحت الآن متأكداً أني اكتشفت السر أخيراً، وفجأة أردت أن أقذف به في كل الاتجاهات وأجعل الريح تطوف به حول العالم، حاملة رسالته إلى قلب كل إنسان.

لم يكن الأمر منحصر التعلق بشخصي فقط، وإنما بكل من عاشوا حياة تشبه حياتي؛ حياة مكبلة تغلقها من جميع الجوانب حيطان حياة ضيقة مقموعة، لكنني شعرت أخيراً بأنني وجدت طريقاً لتسلق تلك الحيطان، والتحرر من ظلالها، لأجد مكاني تحت نور الشمس، وأقوم بدوري في هذا العالم مع الأجساد الصحيحة القادرة. لكن، كيف لي أن أعبر عما أريد قوله؟ وما أردت للجميع أن يعرفه؟ كانت

يداي بلا فائدة على الإطلاق، فهما ملتويتان وجامحتان ومازالتا لا تملكان القوة على التقاط أي شيء أو الإمساك به.

أما شفتاي فلم تكونا قادرتين على أن تنطقا بالأفكار التي تدوّم مسرعة في ذهني، كأسراب من نحل فقد صبره. ولأنني مازلت غير قادر على الكلام بأي نوع من اللغات الواضحة المفهومة خارج دائرة عائلتي، شعرت بأنني مأزال معقود اللسان. مازلت محكوماً بالبقاء في حضن الصمت. ماذا عن صديقتي القديمة المخلصة؛ قدمي اليسرى؟! القدم التي خدمتني بصورة مذهلة وكانت سلاحي الوحيد ضد اليأس والهزيمة عبر تلك السنين؟

لا أستطيع أن أستخدمها الآن؟

لا !! هذا مستحيل، لا يمكن أن أرجع عن وعدي للسيدة كوليس. سأنظر لنفسي على أنني خائن إن فعلت ذلك.

لقد اتخذت قراراً وصممت على أن أحافظ عليه. علاوة على ذلك، لم يكن ما منعني من استخدام قدمي اليسرى مجرد شعور مقلق بالإخلاص، فهذا في حد ذاته لن يكون سبباً قوياً بدرجة كافية لمقاومة الإغراء، وإنما معرفتي أنني لو عدت إلى استخدام قدمي اليسرى مرة أخرى فسوف أقف بذلك في طريق شفائي، وأضعف فرصتي في أن أعيش حياة فاعلة وإن لم تكن طبيعية. لقد ربطت قدمي اليسرى وألقيتها بعيداً ولست مستعداً الآن لأن أستدعيها للخدمة، إذ سيكون هذا علامة على الاستسلام، وأنا مازلت غير مستعد لأن أرفع الراية البيضاء. يبدو أنني وصلت إلى نهاية الطريق، وحيثما التفت وجدت الطريق مغلقاً. شعرت بشعور أي شخص

عندما تكون يداه ورجلاه مربوطتين وفمه في اللجام.

ثم فجأة خطرت ببالي فكرة ملهمة. كنت جالساً في المطبخ ذات عصر أفكر في طريقة أضع بها كل ما أريد قوله في ورقة، عندما لاحظت أن أحد أخوتي كان يجلس أمام دفتر نسخ على الطاولة وفي يده قلم، وهو يكتب شيئاً. كان هذا إيمن الذي بلغ حينها الثانية عشرة، وقد جلس يؤدي واجبه المنزلي لحصة الإنشاء، وأستطيع أن أرى من عبوس وجهه أنه لم يكن مستمتعاً بما يفعله. الفكرة الملهمة التي خطرت لي، أنه جالس هناك يكتب وهو لا يدري عم سيكتب، وأنا أجلس هناك بجوار النافذة، وذهني محتشد بالأفكار، ومع ذلك فمازلت غير قادر على إمساك القلم بيدي. كادت هذه الفكرة تجعلني أرغب في القفز من المقعد والركض في الشارع بجنون!

بدلاً من ذلك، انحنيت إلى الأمام وسألته عما كان يفعله فأجاب إيمن بتنهيدة:

– أحاول أن أكتب موضوع إنشاء للمدرسة. سوف أضرب إن لم أؤده على الوجه الصحيح.

عندها رأيت فرصتي. أخبرته أنني سأساعده بشرط أن يقدم لي خدمة في مقابل ذلك، فأجاب:

– بالتأكيد سأفعل، ماذا تريد مني أن أفعل؟

اختصرت طلبي قائلاً:

– اكتب لي.

سخط وجهه عندها وقال معترضاً:

– لكنني لا أستطيع حتى أن أكتب واجباتي ! لا أعرف ماذا أقول.

فأجبته:

– يا أحمق... أنت ستمسك بالقلم فقط، وأنا سأملي عليك ما تكتبه.

شكك أخي كثيراً في جدوى هذه الفكرة، إذ بدت له كثيرة التعقيد، وشعر بأن هناك شيئاً مريباً في نهايتها، لكنه كان يريد تأدية واجب الإنشاء بصورة صحيحة، لذلك وافق على شرطي في النهاية، فأديت له واجبه.

عندما انتهينا، خرجنا إلى مكتبي في مؤخرة المنزل، وأخذت كشكولاً قيمته تسعة سنتات من الدرج. جلسنا إلى الطاولة ننظر إلى بعضنا، وسألني أخي ببراءة والقلم مستعدٌ في يده:

– ماذا تريدني أن أكتب لك؟

نظرت من النافذة إلى فروع الأشجار وهي ترتجف في سماء الربيع المشرقة. فكرت قليلاً ، ثم التفت للخلف ونظرت إلى وجه أخي الصغير المتسائل وأجبته:

– قصة حياتي.

ترك إيمن المسكين قلمه يقعقع فوق الطاولة وهو يسأل:

– ماذا؟!

فأخبرته مرة أخرى. وفي هذه المرة صَمَت، فأقنعته بأن يكتب لي لفترة غير محدودة. وبدأنا من ذلك العصر، ودون أي إعداد مسبق.

كنت في الثامنة عشرة عندما بدأت أول محاولة لكتابة سيرتي

الذاتية. كانت عملاً أخرق ثقيلاً، بل غابة حقيقية بكلمات ذات سبعة مقاطع صوتية وثمانية.

قراءتي حتى ذلك الحين كانت محصورة في تشارلز ديكينز. وبسبب عدم خبرتي في الكتابة تخيلت أن واجبي هو أن أحاول تقليد أسلوبه في الكتابة. وكانت نتيجة هذه الفكرة أنني كتبت بإنجليزية متأخرة عن زمني بخمسين عاماً.

استخدمت كلمات وجملاً يمكنها أن تعقد لسان أي إنسان في ثوان. كلمات طويلة كان علي أن أتهجاها حرفاً حرفاً قبل أن يتمكن أخي من كتابتها على الصفحة. مازلت أتعجب كيف لم يصب أحد منا بانهيار عصبي في أثناء كتابة تلك المحاولة الأولى المروعة. يبدو أننا كتبنا عشرات الآلاف من الكلمات قبل أن أشعر بفقدان الحماساً. لقد انحرفنا ببلادة كنهر من الرصاص المصهور.

أخي المسكين كان غالباً ما يصاب بتشنجات الكتابة. لقد كتب ما يقارب الأربعمئة صفحة مخطوطة قبل أن أدرك أنني لو مضيت على هذا النحو، فإن الكتاب لن ينتهي وسنستمر نكتب إلى الأبد.

العنوان أنبأ عن كل شيء، فقد أسميته (ذكريات متخلف عقلياً)! وكنت أريدها قطعة لطيفة ساخرة كلكمة على أنف أولئك الأطباء الذين شككوا في قواي العقلية عندما كنت في الخامسة من العمر.

وعلى الرغم من أن اللغة بدت مستحيلة، إلا أنها كانت فائقة الجمال. فبدلاً من تسمية نفسي بالمعاق مثلاً والوقوف عند هذا الحد، تحدثت عن نفسي واصفاً إياها «بمادة الفناء غير المحظوظة» و«الإجهاض السماوي». كما أنني كنت ميالاً إلى تغيير الكلمات

الواضحة إلى أخرى غامضة بإضافة اللاحقة ism في نهايتها. فبدلاً من استخدام defeat (يهزم) استخدمت defeatism (الانهزامية). أصبحت ماهراً في استخدام الكلمات التجريدية الكاملة للتعبير عن أفكاري البسيطة ككلمات مثل inconceivability (غير قابل للتخيل) عندما أريد أن أصف شيئاً لا يمكن أن يحدث incongruous (متنافر) لوصف شيء غير لائق. واستخدمت كلمات مثل materialistic مرات كثيرة بمعنى المرح وعدم الرغبة في التفكير، فحسب تصوري المشوه للأشياء في ذلك الوقت كان من الممكن أن أقول أن أخي بيتر مادي؛ لأنه يفضل الذهاب للرقص وللحفلات أكثر من رغبته في قراءة تشارلز ديكينز!

منذ أيام أخرجت جزءاً من تلك «المخطوطة الشهيرة». في الفصل الأول أعطيت وصفاً لحياتي المنزلية قائلاً:

– لقد رُبيت وسط بيئة الطبقة العاملة وأخلاقها. وكما يعلم العالم، فإن السعي وراء الأدب، والمعرفة، لا تُمارسه هذه الطبقة من الجنس البشري. العقلانية والنخبوية ليستا من السمات الشخصية لهذه السلالة.

إن معرفتي معنى هذه الجملة الأخيرة لا يَفضُل –بالضرورة– معرفة أي واحد من الناس به!

وصلت إلى صفحة 32 ومازلت أتحدث عن موضوع (الطبقة العاملة):

– أعترف أن الطبقة والفروق الاجتماعية ضرورية للتطور البشري المتناغم، إلا أنني أعتقد أن هذه التفرقة يجب أن

تكون في حدود معقولة ومعتدلة لمنع التحيزات والصدامات الاجتماعية.

كتبت هذا قبل أن أعرف معنى كلمة «اجتماعية»! لا يعني كل هذا أنني لم أكن أعلم ما أريد قوله، فالمشكلة أنني لم أكن أعرف كيف أقوله. لم أكن قادراً حتى تلك اللحظة على أن أجد طريقاً للتعبيرعن أفكاري بوضوح أو أن أصوغها صياغة مفهومة. وبالفعل، كنت مصمماً ألا أكتب جملة بسيطة مادمت قادراً على تحويلها إلى جملة معقدة، ونادراً ما أعبر عن فكرة واحدة بجملة مفردة. لقد تطلب مني الأمر ثلاث جمل أو أربعاً قبل أن أشعر بالرضا وأنني عبّرت عن المعنى. وفي بعض الأحيان قد أستخدم فقرة كاملة للتعبير عن فكرة واحدة. ولم أكن أستطيع مقاومة الاستطراد أو ما يسميه أبي «الضرب حول الشجرة». القطعة التي اقتبستها الآن تظهر بوضوح تأثير «ديكينز» عليّ، لأنها قطعة «ديكنزية» نموذجية يمكن أن تخرج من أي كتاب له:

– حدث ذلك عندما أطلق سراحنا من التمرد والنشاط المحموم لليوم الذي وقعنا فيه –دون وعي أو جهد أو اختيارعقلي– في حلم يقظة امتزج بالندم والأفراح اليانعة، كل المشاهد السعيدة والمبكية للماضي المنسي تزدحم داخل أعيننا الداخلية. إننا نعود من جديد لنعيش المحن والمسرات التي مررنا بها من قبل. إننا نستدعي خيالاتنا الصغيرة وما ندعيه. إن واحدنا يهتف لنفسه: ليس هذا أنا! أنا لم أكن متهوراً إلى هذا الحد بالتأكيد! إلا أن الماضي لا يكذب أبداً، وهو غير قابل للدحض أو الإلغاء وإلا لكان لدينا فائض من القديسين والملائكة.

كان عمري ثمانية عشر عاماً عندما ارتكبت هذه الحماقة. وكانت صفحات المخطوطة تتراكم كومة فوق أخرى، دون أن نعلم بالضبط ماذا صنعنا. كنا ندور حول نفسينا فقط. ومازلت أهوم في فكرة غامضة مفادها أن من المفترض أن أكتب قصة حياتي، غير أني كنت عاجزاً عن الوصول إلى بر الأمان، إذ بقيت أتكلم وإيمن مستمر في الكتابة ودفاتر النسخ تمتلئ يوماً بعد آخر، لقد كانت غابة من الكلمات دون ممرات واضحة خلالها.

لقد علمت أن هناك شيئاً ما غير صحيح يحدث. فقبل أن أبدأ الإملاء تكون أفكاري واضحة بدرجة كافية، لكنها –حين أبدأ الإملاء– تصبح سخيفة بالكامل، ومنحرفة، وتتبعثر في ذهني كالأوراق الساقطة التي صوحتها الريح جيئة وذهاباً، فلقد كان من الصعوبة بمكان أن أمسك بها أو أحافظ عليها. كدت أصاب بالجنون من فرط غبائي. نعتُّ نفسي وأخي المسكين بالحمق. في الحقيقة نعت كل من في البيت بالحمقى لأنني لم أكتب كما أريد!

وكلما مضى الكتاب في طريقه أصبحت أكثر غضباً. ولو وقف شيء في طريقي فكل ما كنت أفعله أن أرفع قدمي وأركله بعنف. أصبحت في قمة الانزعاج إلى درجة أنني أردت إحراقه كله وإبعاده عن ناظري، ولكن لم يكن لدي قلب يجرؤ على ذلك. حتى ذلك الوقت كنت قد قضيت سنتين في كتابته. ولم أكن قادراً على الاعتراف –حتى لنفسي– بأن كل ذلك العمل كان بلا جدوى، وأنني أخفقت. كان عنادي أقوى من أن يسمح لي بالاستسلام، وأن أطوح بكل العمل في النار. لقد شعرت بأنني أستطيع أن أكتب كتاباً

جيداً لو أنني فقط... لو أنني فقط...

وجدتها!

لو أنني أجد من ينصحني فقط. يريني كيف أكتب بوضوح، وبطريقة بناءة دون خروق وفجوات. شخص ما يعرف جيداً ما يتحدث عنه، فيضعني على سواء السبيل. كنت محتاجاً إلى يد مرشدة، إلى شخص يملك العقل والقلب في آن واحد.

ولكن أين يمكن أن أجد هذا الشخص؟ هذا الأب الروحي الخرافي ليس في كيميج على أي حال! هذا بيت ليس فيه إلا البناؤون. إخوتي لا يعرفون أي شيء عن الكتابة، كما أنني لا أعرف أي شيء عن صفّ الطوب. هذه هي الحال.

فكرت وفكرت فلم يخطر ببالي أحد. شعرت بأنني وحدي بالكامل. يبدو أنني مضطر إلى الاستمرار بمفردي، وبذل أقصى ما أستطيعه، ومكابدة العذاب في محاولة التعبير عن نفسي، فأنا لا أحقق إلا المزيد من الضياع كلما طالت بي الطريق. وذات يوم عندما كنت أجلس نكداً وبمزاج سيئ قرب النافذة، شاعراً بالقرف من نفسي لدرجة أنني لا أستطيع حتى الإملاء، لمع اسم في ذهني فجأة لدرجة أنني كدت أسقط من الكرسي: كوليس! سمعت نفسي أنطقها بصوت عالٍ: كوليس! ودون أدنى انتظار أو تفكير، ناديت إيمن وطلبت منه أن يحضر بطاقة بريدية من الدرج وأرسلتها إلى الدكتور كوليس فوراً. لم تكن أفكاري مترابطة. كتبت هذه الرسالة الصغيرة وحسب:

– عزيزي الدكتور كوليس إنني أحاول أن أكتب كتاباً، أرجو أن

تأتي لمساعدتي إن لم يكن لديك مانع.. كريستي براون.

لم أفكر كثيراً فيما فعلته إلا بعد إرسال هذه البطاقة البريدية، إذ إنني لم أر الدكتور منذ سنة، وتحديداً منذ عودتي من لندن. لم أكن أعرف الكثير عنه سوى أنه مؤسس العيادة ورئيس جمعية الشلل الدماغي في إيرلندا. أحببت هذا الرجل منذ أن رأيته أول مرة. لم أشعر بأي خجل أو حرج في حضوره منذ المرة الأولى التي التقينا فيها. وكان هذا شيئاً مخالفاً لما ألفته عني لأنني حتى مع الناس الذين أعرفهم جيداً كنت أشعر بأنني في غير مكاني. وأحياناً أشعر بهذا حتى مع عائلتي. ولكن رغم كل ذلك فهو مجرد طبيب، أليس كذلك؟ قد يكون أطيب إنسان في العالم، ولكن ما جدوى ذلك إن لم يكن قادراً على مساعدتي في الكتابة؟ وبغض النظر عن كونه إنساناً طيباً، فمن يكون؟

وبعد ذلك بحين، اكتشفت أنه لم يكن مجرد الدكتور كوليس، وإنما روبرت كوليس الكاتب؛ الرجل الذي كتب مسرحية زقاق ماروبون Marrowbone Lane، والصوف الفضي The Silver Fleece، وسيرته الذاتية، ومسرحيات وكتباً أخرى.

في اليوم التالي كنت على مكتبي الصغير في خلفية المنزل، أجلس بجوار النار وأقرأ ديكينز، عندما فتح الباب فجأة ودخل الدكتور كوليس يحمل حزمة ضخمة من الكتب تحت ذراعه وحقيبة في يده الأخرى. ألقى بالكتب على السرير ووضع الحقيبة على الأرض ثم التفت وقال:

– مرحباً.

قالها وهو يمشي ثم جلس على الكرسي في الجانب الآخر من الطاولة.

وصلتني رسالة الاستغاثة هذا الصباح، إذن فأنت تكتب كتاباً، حسناً دعني أرى.

كنت أحفظ المخطوطة بعيداً في حقيبة جلدية تحت السرير، فركع على ركبتيه وسحبها ثم أخرج المخطوطة، ثم وضعها على الطاولة. ارتدى نظارته وبدأ القراءة. رأيت حاجبيه يرتفعان في أثناء قراءته للصفحة الأولى ثم قرأ الصفحة الثانية والثالثة، وفي كل مرة كان حاجباه يرتفعان أكثر، ثم ألقى بها على الطاولة ونظر إلي:

– ما هذا بحق الجحيم.

قالها ثم توقف، ونظر إلي نظرة قاطعة ليرى إن كنت أتقبل النقد وأتفهم. فأجبرت نفسي على أن أحتفظ بوجه محايد، فابتسم:

– نعم، إنه نص شنيع. هذه اللغة التي تستخدمها ربما كانت شائعة في عهد الملكة فيكتوريا، ولكن...

غرق قلبي في داخلي وأنا أسمع هذا الكلام. يبدو أن الحالة ميئوس منها. يبدو أنني لن أستطيع إنجاز هذا الشيء الذي أردته الآن أكثر من أي شيء آخر؛ أن أكتب قصة حياتي. يبدو أنني عدت إلى حيث كنت من قبل، فقد كنت أريد أن أقوم بأمر لا أعرف كنهه. إن أحلامي أكبر من أن تغدو حقيقة. كيف يمكنني أن أكتب كتاباً... أنا الذي بقيت طوال حياتي خلف جدران بيتنا الأربعة، مصاباً بالخرس، ولم أر غرفة الفصل في المدرسة؟ انتابني الغضب بمجرد استعادة تلك الفكرة. أكملت هذه الأفكار دورتها في ذهني في حين

جلس الدكتور كوليس أمامي يقلّب صفحات من تلك المخطوطة الشنيعة. كان أحياناً يصدر أصواتاً غريبة لنفسه، وأنا جالس مطأطئ الرأس.

فجأة، توقف وجلس منتصباً في كرسيه، فنظرت إليه دهشاً، لقد كان وجهه يشع بالاستحسان!

– جيد.

قالها منفعلاً وهو يضرب الطاولة بيده.

– لقد كتبت هنا جملة تقف مثل وردة وسط حقل قمح، جوهرة صغيرة مشعة ملقاة وسط أحجار. إنها تعلن لي أنك تستطيع الكتابة إن تعلمت الطريقة. هذا ما أريد أن أتحقق منه.

ثم نهض ونظر في الكتب القليلة الموجودة على الرف وهز رأسه:

– كي تكتب بلغة إنجليزية حديثة يجب أن تقرأ إنجليزية حديثة يا كريستي. ديكينز رائع جداً، لكن الذائقة الأدبية ككل الذائقات... تتغير.

ثم أراني الكتب التي أحضرها لي. نثرها كلها على الطاولة. كانت قصصاً قصيرة للكاتب إل. آي. جي. سترونج، وكتابين لشون أوفولين، وبعض الكتب التي تنتمي إلى أخويته الأدبية، جون ستيوارت، وموريس كوليس، وستة مجلدات من مجموعة أدبية شهيرة من كل بلدان العالم. ثم قال:

– هؤلاء سيعلمونك كيف تكتب بلغة إنجليزية عصرية.

أخبرني أنني إن كنت أريد أن أصبح كاتباً فيجب علي أن أتعلم

الكتابة. الكتابة فن كالرسم تماماً، ولكي تتقن فن الكتابة يجب أن تمارسه، أن تصقل أسلوبك جزءاً فجزءاً. وأخبرني أنه بغض النظر عن مدى الصعوبة التي قد أجدها في ذلك، فهناك شيء في صالحي وهو أني أريد أن أكتب. كانت لدي الرغبة التي لا تقل أهمية في ضرورتها عن الأسلوب، الذي يمكن أن أطوره كلما مضيت في طريقي. لكي يحسن الإنسان عملاً ما يجب أن يحبه. الأسلوب الجيد عديم الجدوى إن لم يكن هناك شيء خلفه. فالكتابة بهذه الطريقة تماثل أن تكون عندك ملكة التذوق دون أن تملك أي طعام.

ثم جلس وأخذ ينظر إلى المخطوطة بتمعن وصمت بعض الوقت. أستطيع أن أسمع فرقعة الحطب في النار، وصوت الساعة وهي تدق عالياً على رف الموقد. وأصواتاً خافتة تأتي من المطبخ عابرة الفناء. وأخيراً تحدث وهو ينحني إلى الأمام واضعاً مرفقيه على الطاولة، ومشيراً بيده إلى حزمة الأوراق:

– كريستي، كل هذا لم يكن دون جدوى. ربما بدت غير قابلة للقراءة، لكنها لم تذهب سدى. لو لم تهبك إلا الكثير من الممارسة واستخراج أفكارك وترتيبها لكفاها.. إن كنت ماتزال تريد كتابة قصتك... ؟

ثم توقف ونظر إلي متسائلاً فهززت رأسي بحماسة، لأنني كنت أريد أن أكتب تلك القصة أكثر من أي شيء آخر. فانطلق في حديثه:

– حسناً إذن، إن كان الأمر كذلك فيجب عليك أن تبدأ كل شيء من جديد.

الآن بدأ في الحديث كي يعلمني، الآن علمت أنه معلم، وله تلاميذ كثر. واصل حديثه قائلاً:

– هناك مبدآن مرتبطان بكتابة أي نوع من القصص. الأول أن يكون لديك قصة تريد إخبارها، والثاني يجب أن تقولها بطريقة تجعل الإنسان الذي يقرأها قادراً على أن يعيشها بنفسه. والآن دعني أعطيك بعض النقاط الأساسية. حاول دائماً أن تستخدم كلمات قصيرة بدلاً من الطويلة كلما استطعت ذلك. أنت قد رسمت لوحات بالفرشاة، فحاول أن تفعل الشيء ذاته بالقلم. تدرب على ذلك. صف لنا فقط هذه الغرفة هنا: مقعدك الغريب والصورة على الجدار الملطخ هناك والمرآة المكسورة والكتب والصور الملونة.

استمعت تلك الليلة كما لم أستمع من قبل وكثيراً فيما تلاها، في حين جلس هو يعلمني كيف أكتب. ولم أنس قط كلمة واحدة مما قاله. في النهاية، أتى إليّ وصافحني، فعلمت عندها أنني على وشك أن أبدأ أصعب مهمة اضطلعت بها. لكن، طالما شد هذا الرجل من أزري، وظل بجانبي، فإنني سأنجح في إنجاز قصتي يوماً ما. علمت هذا من مصافحته تلك.

الفصل (14)

كبرياء، لا شفقة

عيادة شارع ميريون – كما قلت – ليست سوى نادٍ رياضي طويل وضيق على شكل كوخ خلف مستشفى دبلن لتقويم الأعضاء، وهي مكان لا يمكن الوصول إليه بسهولة. وبعيداً عن كونها منزوية عن كل شيء، فإن المساحة التي توفرها صغيرة بالفعل. فالأشياء فوق بعضها، بما في ذلك الأطفال أنفسهم. لم تكن هناك مساحة كافية للمعدات الطبية، سوى منزلقة خشبية ضخمة دُفع بها لتستند إلى الجدار فاحتلت أحد جانبي الغرفة. لم تكن وظيفة هذه «البدعة الغريبة» مجرد إمتاع الأطفال، وإنما خدمت هدفاً آخر أيضاً. سلالمها الصغيرة الملتصقة بها والمنصة في أعلاها، أعطت الأطفال تمريناً جيداً حين يصعدونها ويستخدمون أيديهم للإمساك بالدرابزين. وهكذا يتعلمون كيف يستخدمون أيديهم وأقدامهم على حد سواء، وفي الوقت نفسه. فعلٌ لا يمكن لكثير منهم أن يقوموا به في الظروف الطبيعية، إلا بطريقة متشنجة غريبة، وهم ينزلقون عبر ممرها الطويل. لكنهم تعلموا مع مرور الوقت أن يسترخوا ويتغلبوا على خوفهم من الحركة.

العيادة، على كل حال، أصبحت مزدحمة أكثر وأكثر، فقال الدكتور وارنانتس ذات يوم:

– إن استمر هذه التدفق فسنبدأ في وضعهم على السقف.

هكذا بدا الأمر فعلاً، فالغرفة أصبحت تشبه الازدحام المروري في الشارع، وصراخ الأطفال كان أعلى من أبواق دزينة سيارات تطلق أصواتها مجتمعة. لقد كان شيئاً مزعجاً لدرجة أنني لا أكاد أسمع صوت نفسي وأنا أفكر.

أصبح الوضع يتجه إلى فقد الأمل في صلاح الحال. حتى سمعت فجأة أننا سوف ننتقل إلى بقعة أخرى في المدينة ومبنى أكبر يقع في مكان أكثر ملاءمة. أسفت على مغادرة العيادة القديمة، على الرغم من أني أعرف أنها صغيرة جداً. شعرت بعاطفة تجاهها لأنني بنيت صداقات عديدة فيها. أتذكر الصباح الأول الذي جئتها فيه، والجدران الخشبية بنية اللون، والنوافذ المرتفعة، والأشجار في الخارج تقطر منها أمطار ديسمبر، وتذكرت شيلا.

في مثل هذا الوقت خسرنا الدكتور وارنانتس الذي غادرنا ليعمل في الخارج. لقد شعرنا كلنا بالأسف ونحن نراه يرحل. لكنني كنت أدرك تماماً أن رغبة الترحال قائمة لديه؛ تلك الحاجة الملحة للسفر إلى الأماكن البعيدة. آخر مرة جاءتني منه أخبار، علمت أنه في الشرق الأقصى، يتصبب عرقاً في شمس الظهيرة على حد تعبيره.

السيد غلاغير غادرنا سريعاً بعده إلى كندا واختفى تماماً. لم يأتني منه أي خبر بعدها، فبدا الأمر أنه بمجرد تحسن حال العيادة بعض الشيء، فإن اثنين من أقدر موظفيها قد رحلا.

جئنا إلى العيادة الجديدة منذ ثلاث سنوات في صباح صيفي دافئ. كانت في مكان يقال له بول آلي ستريت. نظرت إليها من الشارع الخارجي فوجدت أنها كبيرة، وقد بنيت بالطوب الأحمر،

وطويلة جداً، بقناطر جميلة وقبة خضراء لها نوافذ أمامية كثيرة وكبيرة ودرابزين من الحديد المطاوع.

مقارنة بالعيادة القديمة، كان المكان أنيقاً للغاية. أما الداخل فكان أفضل. لم يكن كل المبنى لنا، وإنما ثلاث غرف معارة من الأمناء. غير أن الغرفة منها كبيرة وتشرق عليها الشمس، وكان للجميع مساحة واسعة للحركة. كل شيء مرتب بصورة أفضل؛ فريق العمل أصبح أكبر، ودائرة حضور المرضى غدت أوسع، وتطورت مقاييس الخدمة العلاجية كثيراً، فالغرف ثلاث: غرفة للمعالجة وأخرى للدراسة وثالثة للعب.

بطبيعة الحال، كنا نؤدي التمارين العلاجية في غرفة المعالجة، وقد كان المشهد فيها مثيراً للغاية. خمسة عشر طفلاً وأحياناً عشرون، يستلقون على الأرض ويتبعون تعليمات اختصاصيّ العلاج الطبيعي. مشهد الأطفال وهم مجتمعون كأنه أفعى ضخمة برؤوس كثيرة وأذرع وسيقان، تتحرك كلها في انسجام.

في غرفة الدرس كان هناك المزيد من هؤلاء الأطفال الغريبين؛ أولئك الذين لم يتمكنوا أبداً من الذهاب إلى المدارس المعتادة مع إخوتهم وأخواتهم بسبب «اختلافهم». وقد نالوا الآن تعليمهم الابتدائي المعتاد تحت رعاية معلمين وطنيين مؤهلين ممن جيء بهم لمثل هذه المهمة الصعبة. هكذا تم جسر خليج آخر، وطرق الحدّاد سلسلة أخرى لمساعدة أولئك الأطفال كي يؤسسوا اتصالاً طبيعياً مع الناس العاديين. إنهم يشعرون بفخر عميق لأنهم يستطيعون الذهاب إلى المدرسة ولديهم كتب وطاولات، وقد تعلموا الحساب مثل إخوتهم

وأخواتهم في المنزل، ولهم أن يتباهوا بمعلّمتهم والأسلوب الذي كانت تعاملهم به والرعاية، فلا أحد يضربهم مثل بقية الأطفال في المدارس العادية. في مدرستهم تركز المعلّمة على أذهانهم أكثر من تركيزها على أيديهم، فبدلاً من أن يشعروا بأنهم أدنى درجة من الأطفال الطبيعيين، يُعَلّمون أن ينظروا إلى أنفسهم على أنهم مساوون لغيرهم. في غرفة اللعب هناك الكثير من الأحداث، فكلمة (يلعب) لها معنى مزدوج؛ إنها تعني العمل أيضاً، فتحت «ثياب اللعب» يتعلم الأطفال أن يطوروا حركة أيديهم وأرجلهم بالصورة الصحيحة، ويتخلصوا من الحركات غير المناسبة. ولو نظر إليهم شخص غريب لوجد أنهم مجرد أطفال يلعبون على الطاولات ويتحركون في الجوار مثل أي أطفال طبيعيين، أطفال يخلقون ضوضاء مريعة طوال الوقت. هذه هي الحال، فقد شُجعوا على أن يتحركوا في الجوار مثل الأطفال الطبيعيين مع هذا الاختلاف، وبينما يلعبون بسعادة تامة، هناك من يراقبهم باستمرار ليتأكد أنهم لن ينتكسوا إلى حركتهم الجسدية الأصلية الخاطئة. لا يكفي أن يركضوا في الجوار، وإنما لا بد من تعليمهم أن يركضوا في الجوار بالهيئة الصحيحة، ويلعبوا ويلاحقوا بعضهم في الغرفة بالطريقة الصحيحة. لقد حرموا من الحركة الطبيعية، فتطورت لديهم حركة غير طبيعية عوضاً عنها. في غرفة اللعب يتعلمون أن يأتوا بكل الحركات، من أصغرها إلى أكبرها، بأكبر قدر ممكن من الحرية والطبيعية. لا شيء يتحصل بسهولة لهم، فحتى الأفعال البسيطة مثل التقاط قطعة طبشور من الأرض تعتبر مهمة صعبة لبعضهم،

كصعوبة المشي على حبل مشدود بالنسبة إلى من لم يتعلموا مهارات تلك الرياضة.

بدأت في التردد إلى العيادة منذ ميلادها، واعتبرتها بطريقة ما جزءاً مني؛ جزءاً ضرورياً من حياتي. أنا لا أفكر فيها إطلاقاً كمكان لعلاج إعاقتي أو مؤسسة طبية مليئة بالأطباء واختصاصيي العلاج الطبيعي بستراتهم البيضاء، فعلى الرغم من أن لهذه العيادة أطباءها وآخرين ممن يلبسون الأبيض، وفيها ممرات طويلة وجدران رخامية، وكل المستلزمات، فإنها تملك شيئاً آخر، يتمثل في الروح والفاعلية والدفء الإنساني الأصيل والدقة العلمية الصارمة. الأشخاص في السترات البيضاء الباردة قلوبهم شديدة الدفء. وفي عملهم، يعد دفء القلب عاملاً لا يقدر بثمن، فتأثيره يضاهي المهارة الطبية، ذلك أن عملهم لم يكن واضح المعالم، ولا مرضاهم بالعاديين. إنهم ليسوا مجرد أناس يعملون في حقل الطب ومعالجة المرضى، فهم طاقم من البشر مهتم بصدق وعمق بمصيبة طاقم آخر من البشر يواجه مشكلات جسيمة؛ مشكلات لا يمكن تلخيصها ببساطة تحت عنوان «مشكلات جسدية»؛ مشكلات تحتاج إلى الثقة والصداقة اللتين تضافان إلى ذلك كله، بالدرجة ذاتها، إن لم يكن بدرجة أكبر من المعالجة الطبية. إنها ليست فقط عضلاتنا وأعضاءنا ما يضايقنا، وإنما تتمثل المشكلة أحياناً في أذهاننا وأنفسنا التي تتطلب مزيداً من الاهتمام، يفوق أذرعنا الملتوية وأرجلنا. طفل بفم منحرف ويدين ملتويتين يمكن بسرعة وسهولة أن تتطور لديه سلوكيات منحرفة وملتوية تجاه نفسه والحياة كلها. وخصوصاً عندما يُترك ليكبر

معها دون أن يساعده أحد كي يكون عنده نوع من التفهم لحالته. إن سمح لفكرة «اختلافه» بأن توضع موضع المقارنة بالأطفال الطبيعيين في عقله، فإنها ستنمو معه إلى سن المراهقة، وتنسحب تدريجياً إلى رجولته. وعندها سيراقب حياته بعقل مشوه، تماماً مثل جسده، وستصبح الحياة بالنسبة إليه مجرد انعكاس لعطبه هو، وستغدو ألمه الوجداني.

في العيادة، الأمر مختلف. نحن هنا بمعية ذواتنا. أو بعبارة أخرى، نحن هنا محاطون بأناس لديهم إعاقات شبيهة وفي أغلب الأحيان أسوأ من إعاقاتنا. ونستطيع أن نرى أن «اختلافنا» القديم ليس كبيراً في نهاية المطاف. انتقلنا تدريجياً إلى الإدراك بأن هناك أناساً يستطيعون فهمنا، أناساً كرسوا حياتهم –في الواقع– لمساعدتنا، وجعلونا نصل إلى فهم أكبر لذواتنا، مما أدى في النهاية إلى انبثاق شيء مشرقٍ خرج من إعاقاتنا ذاتها.

بيرني، إحدى الفتيات اللواتي يأتين إلى العيادة، هي من المفضلات عندي، وكذلك الأمر عند الجميع. إنها مثال معبر لما تستطيع العيادة فعله حتى لحالة «ميئوس منها».

كانت من أوائل المرضى في العيادة، كان عمرها سنتين عندما رأيتها أول مرة، وكانت تأتي إلى العيادة كل صباح، في سيارة الإسعاف نفسها، وأذكر أنها في ذلك الوقت كانت مجرد شيء صغير مثير للشفقة.

أتذكر مراقبتي لها وهي مستلقية أمامي على النقالة، وكل ما أستطيع أن أراه منها عيناها، تحملقان في الأعلى. لها وجه جنية

صغيرة. كانت بالغة الضآلة والصغر حتى إن عينيها بدتا وكأنهما أكبر جزء فيها. تستلقي جامدة تماماً، كأي شيء لا دفء فيه أو حياة. مجرد شيء جاثم جامد، ويبدو أنه من البرودة بمكان، بحيث لا إحساس لديه بما حوله. العينان فقط هما اللتان قالتا: هذا كائن بشري، هذا الشيء الملفوف في البطانية وكأنه دمية أطفال.

ببطء شديد، وشيئاً فشيئاً، بدأت «بيرني» في إظهار ملامح الحياة، وأبدت المزيد من الاهتمام بالأشياء التي تدور حولها، وبدأت تدريجياً تذيب الجليد المتراكم عليها وتخرج.

وصلت إلى هذه المرحلة، عندما أعطيت تمارين صُممت فقط من أجلها، واليوم أصبحت بيرني من أكثر مرضى العيادة امتلاء بالحياة، كما أنها أحد أهم النماذج التي تظهر فضائل التعليم الدقيق الذي تقدمه الآنسة دوروثي هندرستن؛ اختصاصية العلاج الطبيعي، التي تعتني بها. تطورت حال بيرني من كونها كومة ملابس جامدة، عديمة الحركة ككتلة من الخشب، فغدت مخلوقاً صغيراً جميلاً مفعماً بالحيوية، وبدأت الآن تثرثر وتضحك. وقد وصفتها الآنسة هندرسن بأنها صبية فاتنة.

أكبر منافسيها في العيادة هي الآنسة دوروثي، ومشاهدة الاثنتين مع بعضهما، وكل واحدة منهما تحاول أن تتغلب على الأخرى في التمارين، أفضل من مشاهدة مسرحية صامتة.

دوروثي فتاة صغيرة مهمة جداً هنا، وهي فاتنة أيضاً، وربما هي إحدى أسوأ الحالات التي وصلت إلى العيادة. غير أنها تحسنت كثيراً منذ ذلك الحين لدرجة أن كثيراً من الناس الذين رأوها عند

بدء علاجها لم يستطيعوا أن يتعرفوا إليها إلا بصعوبة في صورتها الجديدة اليوم.

دعونا نبدأ بالقول إنها لم تكن قادرة على مجرد الجلوس، فظهرها مرتخ وكتفاها منخفضان ورأسها يتدلى من جانب إلى آخر كزهرة الربيع عندما تُلقى في حضن الريح. كانت تحاول أن تزحف من مكان إلى آخر، لكن يديها وركبتيها كانت تخذلها وهي تنتظر دعمها، فتجعلها تنطوي وتسقط على وجهها، وتدريجياً وبمرور الأشهر عليها، عُلمت أن تسترخي، قبل كل شيء، على بطانية مفروشة على الأرض، ثم تعلمت كيف تكون في وضع جلوس أحسن، وأن تقف قليلاً بأقل قدر من المساعدة. الأمر الآخر الذي كان لا بد من إصلاحه هو طريقة مشيها، ولتحقيق هذه الغاية، كان لا بد أن ترتدي زحافات خشبية مصنوعة خصيصاً، لتعطيها دعم اليدين الذي تحتاجه، ووضعاً جيداً للقدمين كي تطور طريقة وقفتها بصورة عامة.

أصبحت دوروثي، الآن، قادرة على الحركة في الجوار بصورة معقولة على يديها وركبتيها، وبدأت تخطو بضع خطوات مترددة بطيئة وحدها. إنها من أجمل المخلوقات الصغيرة الساحرة التي يمكن تخيلها، بعينيها البنيتين الشفافتين الكبيرتين، وسواد شعرها الجعد المبعثر، وأنفها الأفطس الذي يتغضن كلما بثت ابتسامتها الخجولة النضرة.

دوروثي مشروع معالج طبيعي، فهي متوقدة الذهن وتستوعب كل ما يحيط بها، وفي أثناء السنوات التي قضتها في العيادة رأت ما

يكفي من العلاج الطبيعي ليجعلها تشعر بالرغبة في «الاستعراض» أمام الجهاز الفني في العيادة، لتريهم أنها تستطيع تأدية التمارين بنفسها. لا شيء يمتعها أكثر من أن تزحف إلى حيث يستلقي أحد الأطفال الصغار، فتربض إلى جواره ثم تبدأ بمساعدته كي يقوم بالتمارين بكيفية تحددها هي بدقة، ويتضمن ذلك ضربة أو ضربتين خفيفتين إن كان أداء الطفل المسكين لا يرقى إلى مستوى يرضي «صاحبة الفخامة». في عدة مرات، صارت دوروثي طموحة أكثر من اللازم، فجاءت تدرج عبر الغرفة، وحاولت أن تجري تجاربها عليّ أنا الآخر، إلا أنني كنت دوماً أثير سخطها بجمودي وابتسامي لها وهي تأمرني أن أثني ساقي، وأشد بطني، أو أبقي مؤخرتي إلى الأسفل.

أنا أيضاً تطورت كثيراً خلال السنتين الأخيرتين، فأول ما علموني إياه هو الاسترخاء الذي قد يبدو وظيفة سهلة، بيد أني أجده أصعب جزء على الإطلاق من كل أعمال الصباح. فلا يعني الاسترخاء مجرد الاستلقاء على السرير أو الأرض ثابتاً كجذع شجرة، الأمر ليس بهذه البساطة، فالاسترخاء أمر لا يستطيع إلا عدد قليل من البشر الطبيعيين أن يدعي القدرة على تطبيقه.

لكي يتمكن الإنسان من إرخاء عضلاته كلية، ويجعلها في طراوة الورقة المبلولة، لا بد من استرخاء الذهن أولاً، وأن يعطي أفكاره الحرية المطلقة بأن يجعلها تتنقل كما تشاء دون أدنى وعي يقودها ودون أدنى توجيه نحو غاية معينة.

هذا شيء أجده في عداد المستحيل، إذ لدي ذهن لا يعرف

الراحة، والوقت الوحيد الذي يرتاح فيه هو في أثناء نومي، علماً بأنني لا أنام كثيراً!

وحتى عندما أتمكن من تثبيت قدمي وساقي عن الحركة، فإن هذا لا يعني إطلاقاً أنني مسترخٍ، بل ربما أن القلق نفسه هو الذي يمنع أطرافي من الارتعاش. إن من السهل أن تبدو مسترخياً أمام الناس، لكن ليس سهلاً على الإطلاق أن تشعر بالاسترخاء حقاً، كما أن محاولة فرض الاسترخاء على نفسك هو من أسوأ الأشياء التي يقوم بها الإنسان ضد إرادته. فعند فرض الاسترخاء لا تفعل شيئاً سوى أن تجعل قلقك الجسدي يتراكم بحيث تبتعد أكثر وأكثر عن الاسترخاء. وبالنسبة إلي فثمة وعي مكثف دائم بالمشهد المحيط بي: كالضوضاء وتفاعل الضوء وتقاطعه، والظل في المكان، والتعابير الشخصية لوجوه الناس من حولي، وتغير نغمة الأصوات بين الحين والآخر. كل هذا يسجل حضوره في ذاكرتي بوضوح وتميز كحصوات ملقاة في بحيرة.

لن أصبح قادراً على أن أقنع نفسي بأنني حققت أمراً لم يستطع الآخرون أن يحققوه تحت ظروف مماثلة إلا إذا حققت الاسترخاء في صورته المثلى. اليوم، وتحت إشراف التوجيه الصارم الدقيق، الذي تقدمه لنا د. ماري أورونيل مديرة العيادة ، والآنسة باربرا آلين، وهي واحدة من ثلاثة اختصاصيين في العلاج الطبيعي يشكلون الجهاز الفني، وصلت إلى مرحلة صرت فيها قادراً على المشي، ولاسيما عند استخدام منزلقة مصنوعة خصيصاً لهذه الغاية، تشبه تلك التي تستخدمها دوروثي الصغيرة، إلا أنها ذات كفة أكبر

بكثير، وتعطيني مساحة أكبر لاستخدام ذراعي.

السيدة فرانسيس برنس هي أمّ العيادة وأكبر أعضائها، وقد التحقت بالعيادة منذ الأيام التي كان فيها أثاثها غير ثابت وبقيت منذ ذلك الوقت إلى الآن. مع وجودها في الجوار، لم أكن أستطيع المراوغة والتهرب من الواجبات، فأنا أشعر أحياناً بالميل إلى ذلك في صباحاتي السيئة، إلا أنها لم تفشل أبداً في أن تجد لي عملاً كثيراً أؤديه في أثناء جلوسي على الطاولة، مثل قولبة الأشكال المصنوعة من عِصيّ بلاستيكية، وإن كانت في الغالب تتحول في يدي إلى أبعد الأشكال التي يمكن أن تتخيلها عما هو مألوف!

كما أنني كنت شغوفاً بلعبة الأوزان ذات الثقلين وتحريكها من يد إلى أخرى.

النطق كان دائماً أحد أكبر العقبات التي تقف أمام كل مساعيّ لإحداث التواصل مع الناس، إنه المظهر الوحيد من مظاهر إعاقتي الذي سبب لي أشد الآلام مرارة، فدون النطق يشعر الإنسان بالضياع، يشعر أنه قد نصب ستاراً فحال بينه وبين الناس، وهو متروك ليتمنى لو قال ملايين الأشياء التي لم يفه بواحدة منها.

صحيح أن الكتابة أمر حسن، لكن ثمة من المشاعر والعواطف ما لا يمكن أن تنقل أو يُحسّ بها عبر الكلمة المكتوبة فقط. الكتابة خالدة، لكن من الصعب أن تجسر الفجوة التي تفصل اثنين من البشر كما يفعل الصوت، وكم أتمنى مجادلة حادة مع صديق أو دقائق معدودة من الثرثرة الناعمة مع فتاة. إنني أفضل ذلك على أن أؤلف

أعظم كتاب على وجه الأرض.

الآن أصبحت قادراً على الحديث بنخير أقل. نخيري القديم أصبح أكثر وضوحاً من ذي قبل، متحسناً نسبياً، ويعود فضل هذا التحسن إلى العناية الخاصة التي تلقيتها من مدربة النطق في العيادة الدكتورة باتريشا شيهان. لا بد أن أعترف بأنني شعرت بالارتباك في البداية، عندما بدأت في هذه المعالجة، وذلك أن اسمها كبير جداً «مداواة النطق»، في حين بدت طريقتها في غاية البساطة لدرجة أنني شعرت بأن أي إنسانٍ يمكن أن يقوم بها، فبدت لي كألعاب الأطفال. كم كنت مخطئاً!

الطريقة كانت بسيطة، وقد جاءت النتيجة مذهلة وكبيرة. الدرس الأول الذي تعلمته أن أتنفس بصورة صحيحة وعميقة. أخبرتني أن لدي عادة أن أتنفس كيفما اتفق، وهذا لم يكن يصلح. أخبرتني أنني لن أتكلم كما ينبغي ما لم أتعلم أن أتحكم بنفسي. أخذتني بيدها فوراً، وأول درس علمتني إياه هو أن أنفخ فقاعات الصابون. وفي ذات صباح أحضرت علبة صفيحة ممتلئة بماء ورغوة صابون، وأخرجت من جيبها خاتماً معدنياً صغيراً له ممسك من فوق، فغمسته في الماء ثم طلبت مني أن أنفخ الغشاوة الصابونية التي تشكلت داخل الخاتم. فنظرت إليها ظاناً أن الأمر نوع من المزاح، لكنني رأيت في وجهها أنها جادة، فأخذت نفساً وزممت شفتي ثم نفخت، فتناثر فوراً وابل رائع من الفقاعات فاتحة اللون، انتشرت من حولي في كل الزوايا، وانفجرت إحداها على أنفي ووقعت أخرى في عيني، إلا أني استطعت أن ألمح عدداً من الكريات الضبابية تتلألأ في شعرها،

فبدأت أهمهم: إلى الأبد، سأنفخ الفقاقيع.

لكن سرعان ما أصبح الأمر أكثر صعوبة. وبرفقة صديقي جون -وهو مريض آخر في سن النضج يتردد إلى العيادة- تعلمت أن أجعل تنفسي أكثر عمقاً بطريقة جديدة، تتألف من نفخ فقاعات الماء عبر أنبوب يمر من زجاجه إلى أخرى، وكلٌّ من الزجاجتين محكم الإغلاق، في حين يمر الأنبوب المطاطي من واحدة إلى الأخرى، وكلا الطرفين متصلان بأسطوانتين زجاجيتين صغيرتين بدلاً من السدادتين. تملأ إحدى الزجاجتين بماء ملوّن، والخطة أن ينفخ في محتوى الزجاجة الممتلئة ليمر الماء من خلال الأنبوب المطاطي إلى الزجاجة الفارغة حتى تمتلئ تدريجياً. ربما يبدو هذا للسامع بسيطاً، لكنني وجدته أمراً في غاية الصعوبة حقاً، تماماً كحال الذئب الشرير الكبير في الحكاية الأسطورية، «نفخت ونفخت» في المرة الأولى حتى احمر وجهي، لكن لم ينتقل إلى الزجاجة الفارغة سوى قطرات ماء قليلة تعيسة استطاعت أن تعبر إلى الزجاجة الأخرى.

ثم جاء دور جون، فلم يستغرق الأمر سوى ثوان كي ينفخ الماء كله من زجاجة إلى الأخرى، لأن لدى جون رئتين من الدرجة الأولى، أما أنا فشعرت بالضيق من نفسي. لكن عملية نفخ الماء تحسنت مع مرور الوقت، وإن كنت لا أزال غير قادر على منافسة جون.

بعد بضعة أشهر، اتضح أن منطقي قد تحسن إلى درجة ملحوظة، وقد أوليت عناية كبيرة لعملية التأكد من ذلك.أصررت في كل كلمة على نطقها ببطء وتمييز، وأصبحت أقول ما أريده دون الفأفأة

والتأتأة المعتادتين. أصبحت الآن قادراً على الحديث بطريقة حسنة، وذلك عندما آخذ وقتي كاملاً دون أن أقع في حالة الاهتياج المربك عند تعسر كلمة ما على الخروج.

الشيء الجوهري في الموضوع، أن قضية النطق ومشكلته ترتبط بمسألة سلوكي تجاهه، فعندما أنتصر على ذلك الشعور الغريب العارم بالارتباك، بل الشعور بما يشبه العار؛ ذلك الشعور الذي يجعل الدم يتدافع سريعاً ساخناً إلى وجنتي في كل مرة يحاول فيها شخص غريب أن يتحدث معي، عندما أفعل ذلك سأكون قد اقتلعت جذور مشكلتي.

اليوم أتحدث بثقة كبيرة ووعي أقل بالذات مما سبق. أعلم أنني لا يمكن أن أعيش حياة اجتماعية صحية كاملة ما لم أتحدث فيفهمني الآخرون. وكي أصل إلى هذه الغاية فلا بد أن أعمل بجد وأتمرن لفترات أطول. لن يكون الأمر سهلاً وليس لي أن أتوقع الكمال أو أن أحصل على وظيفة في هيئة الإذاعة البريطانية، لكن التقدم العظيم الذي أحرزته بمساعدة د. شيهان يحوي إشارة إلى أنني إن حاولت بمثابرة كافية فالأمر، ليس مستحيلاً وأنا سأحاول لا محالة.

صبر الفريق الطبي عليّ كان عظيماً، إذ لا يمكن وصفي بالمريض النموذجي. تقول الآنسة هندرسن إنني ميال إلى الكسل لدرجة أنني لا أظهر الجدية الكافية أثناء عملي في العيادة. كم أود أن أعترض على كلامها، إلا أنني لا أستطيع، لأن ما قالته حقيقة. أعرف هذا. وفي معظم الأحوال لا أبذل الجهد المطلوب أو على الأقل لا تتطابق أقوالي مع أفعالي.

الأمر ليس بسبب أنني لا أعطي علاجي الجدية والأهمية اللتين يستحقهما، فأنا أعلم أن ساعاتي اليومية القليلة الصباحية في العيادة هي الأكثر أهمية في يومي كله. ربما كنت كسولاً أيضا في بعض الجزئيات، لكن لو أن أحداً نظر بعمق إلى المسألة لوجد أن للقلم دوراً في ذلك أيضاً.

الأولاد في العيادة أطفال سعداء، من الصغار جداً الذين يتلوون على الأرض في الجوار، ويرفسون بكعوب أرجلهم في الهواء، إلى الكبار الذي يلعبون ويطارد بعضهم بعضاً في الغرفة ويتعثرون بين الحين والآخر. يحضرهم إلى العيادة أناس متطوعون يأتون بهم في سياراتهم الخاصة يومياً أو ثلاث مرات في الأسبوع، وأحياناً في كل صباح من الاثنين إلى الجمعة. ويتطلع الأطفال إلى تلك النزهة بالسيارة من بيوتهم إلى العيادة، وتتطور العلاقَة بين الأطفال ومن يوصلهم في الغالب فتصبح مؤثرة. وعندما يأتي قائد السيارة في الظهر ليأخذهم إلى بيوتهم فإن الأطفال القادرين يأتون فيزحفون حول السائق ويبدؤون في الثرثرة عما عملوه في الصباح، أما الذين لا يستطيعون الحركة فيكتفون بالركل بأقدامهم سعداء وهم يستلقون على الأرض. كل الأطفال يحبون المجيء إلى العيادة، لأنهم لايتلقون هنا علاجاً فقط، فالعلاج وحده لا يكفي، وإنما يحظون أيضاً بالتعاطف والتفهم اللذين يحتاجان إليهما أكثر من أي شيء آخر؛ إنه تفهم يغوص في العمق وليس مجرد كلمات جوفاء، فهو تعاطف حقيقي لا مجرد إبداء شفقة لا تسمن أو تغني من جوع.

النسوة اللواتي شكلن الجهاز الفني هن: الدكتورة ماري أودونيل

والدكتورة باتريشا شيهان والسيدة فرانسيس برنس والآنسة دوروثي هندرسن والآنسة باربرا آلين والآنسة جولين ماكروري والآنسة آنا كينيدي. كلهن أدّين ويؤدّين أعمالاً رائعة ومهاراتهن وحنكتهن لا تحتاج أن أسلط عليها أضواء مسرح. كلهن يعشن روح الصداقة والتفهم وإن كان من الضروري بالنسبة إليهن أن يكن صارمات بين فترة وأخرى عندما يصبح الأطفال «عهدتهن» كسولين وغافلين. تلك الصرامة لم تكن قاسية أبداً أو باردة. ومهما كانت درجة هذه الصرامة لديهن فإن الواحد يستطيع أن يرى وراءها ضوءاً، وتوهجاً في وجوههن وبريقاً في عيونهن وهن ينظرن إلى بعضهن من فوق رؤوس الأطفال. لقد كان الدخول إلى العيادة دخولاً فورياً إلى روحها، الروح التي تنفخ فيها الحياة وتجري خلالها مثل الموجة.

الفصل (15)

قيصر والصيغ المكرورة

مع مرور الزمن انطلقت في تعلم المزيد من فنون الكتابة على يد روبيرت كوليس. لقد علمني أشياء كثيرة في وقت قصير جداً، حتى إنني شعرت بالدوار لبضعة أيام، كمَن وجد نفسه فجأة أمام صندوق يحوي كنزاً من المجوهرات، أعمى تلألؤها بصَرَه. قد يأتي إلى مكتبي الصغير فيجلس، ثم يبدأ في الحديث إليّ عن الكتابة بطريقة مبسطة، دون أن يستخدم التعابير الضخمة والنظريات المعقدة. كان لديه شيء يريد إيصاله إليّ؛ شيء أرادني أن أعرفه، ولم يُضع أدنى وقت في تعليمي إياه بأقصى وضوحٍ وصدقٍ يستطيعهما.

لقد وجدنا صعوبة كبيرة في مناقشة الأشياء مع بعضنا بطريقةٍ لائقة، لأني مازلت لا استطيع أن أتحدث مع أحد خارج العائلة دون أن أبدو كأخرق محرجاً نفسي وشاعراً بوجهي وقد بدت عليه حمرة الخجل. مازلت منغلقاً على نفسي بغض النظر عن كل شيء. فقام هو بأداء كل الحديث وقمت أنا بدور المستمع. تدريجياً بدأت أكوّن فكرة واضحة عن عالم الأدب الشاسع، بصوره ومعاييره ومبادئه وتقاليده ورقته وأصالته وفوق كل شيء، سكونه وجماله وإبهاره. لقد رأيت فيه معبداً للأفكار الإنسانية والخيال الإنساني؛ معبداً بنته عقول من شتى الأنواع، تتفاوت بين المتواضع والعظيم، ومن مجرد المدوِّن والمؤرِّخ إلى المفكر العميق،

ومن أولئك البشر الذين كتبوا بعقولهم فقط إلى أولئك الذين كتبوا بقلوبهم وأرواحهم كذلك.

في ضوء كل ما تعلمته منه وقفت على أخطاء كثيرة وقعت فيها، لكنه كان صبوراً جداً. لقد أتى في كل فرصة سنحت له وأحياناً مرتين أو ثلاث مرات في الأسبوع. لقد علمني تقنيات الصنعة دون أن يكون تقنياً. لقد كان ناقداً بارعاً، إذ لم يدع حالتي تلطّف من نقده لي. لقد آمن بي. اعتقد أنني أستطيع أن أكون كاتباً، فأعطاني ثقة بالنفس كنت احتاجها. لذلك سرعان ما بدأت في كتابة النسخة الثانية من سيرتي الذاتية. مازلت أكتب عن طريق الإملاء، وناسخي هذه المرة هو فرانسيس أخي وهو ابن مدرسة في الثالثة عشرة، ببنطلون قصير يختلف عن إخوتي شون وإيمن اللذين كانا يكتبان ما أقوله دون تفكير، وكأنهما زوجٌ من آلات الكتابة. أما فرانسيس فكان يفكر فيما يكتبه بعد أن ننهي يوم عملنا، أو ليله وهذا هو الغالب. كان يجلس بهدوء فيقرأ ما كتبه لي، وفي أحيان كثيرة كان يسألني عن قواعد اللغة وبناء الجملة ومعاني بعض الكلمات وهلم جرّاً. أسئلة أجد صعوبةً في الإجابة عنها في بعض الأحيان.

ذات ليلة، سألته عن رأيه في الفصل الذي أنهى كتابته للتو، ففكر قليلاً وهو يعبث بالقلم بين أصابعه وقال بوقارٍ كبير:

– لا بأس به، لكن أحدنا سيحتاج إلى قاموس بجواره لقراءته!!

أردت لحظتها أن أرمي الطاولة عليه، لكنه اكتفى بالجلوس هناك دون أدنى ابتسامه على وجهه، يداه مثنيتان بهدوء في حجره، في

حين بدوت غاضباً جداً، على الرغم من علمي أن هناك شيئاً من الحقيقة في كلامه.

الجهد الثاني الذي بذلناه في كتابة الكتاب كان أفضل من الأول. الفكرة الأساسية أصبحت واضحة المعالم، وصارت البنية منظمة أكثر ومترابطة، وغدت الأفكار من وراء كل هذا أكثر نضجاً. شعرت فترة قصيرة أن هذا القدر يكفي، لكن الدكتور كوليس هز رأسه بالنفي وقال:

– أفضل من ذي قبل، لكن ليس جيداً بالقدر الكافي. مازالت كتابتك أدبية أكثر من اللازم.

كان محقاً فيما قاله. مازلت نزّاعاً إلى العبارات الطنّانة والدراما المتجاوزة للحد. كثير مما قلته يبدو غير صحيح، ومازلت ميالاً إلى الانحراف بعيداً نحو أشياء لا علاقة لها بموضوع الكتاب. لذلك قال الدكتور كوليس:

– تخلص منه وابدأ من جديد. هذه المرة ستنجح في أداء عملك. أنا أعلم ذلك. كلنا كتبنا وأعدنا كتابة ما كتبناه، وغلبنا اليأس كثيراً حتى أدينا عملنا بصورة صحيحة. فإن نجحنا في الثالثة اعتبرنا أنفسنا محظوظين.

تظاهرت بالابتسام غير أني في واقع الأمر كنت أسب وأشتم وأنا أتأمل ركام الأوراق العقيم. هل ستخرج هذه التفاهة مرة أخرى؟! ذات ليلة قال لي الدكتور كوليس شيئاً آخر:

– كريستي أنت تستخدم الكثير من الصيغ المكرورة clichés هل تدري ما معنى هذا؟

لم أكن أعلم. يبدو من نغمة الكلمة انه اسم لحيوان يعيش في بلد آخر أو ربما حشرة. لكن تبين لي أنه مما يستخدمه الناس جميعاً في كلامهم - تشبيهاً واستعارة - وهو أمر متداول بين الناس بكثرة. كلمات وشبه جمل يكثر استخدامها في الكتب والمحادثات فأصبحت واهية بالية. أمور قيلت مراراً وتكراراً حتى صارت مبتذلة وضاع معناها الحقيقي.

عندما اكتشفت هذه الحقيقة عرفت أنني مذنب، ومرتكب لهذه الخطيئة بدرجة مخيفة.

فقط بالأمس، جلست (بجوار النار المزمجرة) وسمعت (الريح وصرخات الذعر والألم). انتظرت في (أسى أن يحدث شيء مثير)، و(رأيت أن لها عينين شهوانيتين ممتلئتين، وشفتين داعيتين ورقبة كأنها رقبة إوزة وشعر يشبه أشعة الشمس الطليقة)، و(شعرت بنتوء في حلقي)، و(شخص يسب ويشتم كما يفعل الشرطي)!

بعد أن أعدت النظر في مخطوطتي وجدت أنني استخدمت صيغاً مكرورة كثيرة، كررتها مئات المرات. اكتشفت أيضاً، وبصورة استثنائية، أن لدي ميلاً لتكرار عبارة (قطع أرجوانية)، التي انتشرت هنا وهناك في المخطوطة كقطع فلّين في حوض ماء. وكمثل الصيغ المكرورة، كانت هاتان الكلمتان غير قابلتين للكبح.

ومازلت أشبه إلى حد كبير طائر الموكينغ (الخدّاع) العجوز، المولع بتقليد غيره. ذات ليلة ديسمبرية منذ سنتين مضتا، جاء الدكتور كوليس إلى مكتبي وجلس على الكرسي المقابل لي. بقي صامتاً لفترة مكتفياً بتدفئة يديه بالنار، ثم أبعد كرسيّه قليلاً ونظر إليّ قائلاً:

- كريستي، كنت أفكر في مستقبلك. إن لديك موهبة ستمكنك من القيام بعمل أصيل. المشكلة هي كيف يمكن أن تتطور هذه الموهبة وما أفضل طريق لذلك. إلى أي مرحلة وصلت في تعليمك؟

- تعليمي!

لقد كنت صفر اليدين منه، فالقسط الأول والوحيد من التعليم الذي نلته كان تعلم الأبجدية من أمي عندما كنت في الخامسة، ثم انطلقت بعد ذلك، وحدي وبأقصى ما استطعت، أعلم نفسي أن أقرأ الكتب - كتب ديكينز في الغالب - وأتعلم منها ما استطعت إليه سبيلاً.

تعليمي!

الكلمة نفسها جعلتني أرتعش لأنني أعلم أو ربما أشعر بأن كل ما علّمته لنفسي خلال طفولتي حتى سن النضج كان لا شيء. فعلمت أن أمامي طريقاً طويلاً يجب أن أقطعه قبل أن أبدأ في التعرف على شيء اسمه، المعرفة.

ثم تمكنت من أن أجيبه:

- ليس كثيراً.

فقال:

- فهمت. التعليم لا يقدر بثمن وفي حالتك هو شيء ضروري.

ثم ارتد إلى الصمت مرة أخرى وهو يربت بقدمه على زاوية الموقد المنحنية، وإحدى يديه على زر صدريته، في حين كنت أنتظر ما سيقوله، فاستمر في الحديث:

- لا يمكنك أن تكمل تعليمكَ في مدرسة أو جامعة بالطريقة

المعتادة، لذلك فالأفضل في هذه الحالة أن نجد لك معلماً خاصاً لديه معرفة تامة بالطبيعة الإنسانية، شريطة أن يكون ذكياً بدرجة كافية بحيث لا يقيم أي اعتبار لحركتك الجسدية غير المعتادة وعجزك عن الكلام. سوف أسأل جمعية ماروبون لين فوند أن يقدموا لنا المال الكافي لذلك.

بعد يومين أتى إلي وأخبرني أنه، بمساعدة من كاتريونا ماغواير، وجد الشخص المثالي ليقوم بتعليمي. إنه مدرس يحمل شهادة الماجستير، ويعمل في إحدى المدارس الوطنية الكبرى في (كيميج) ويعيش في منطقة قريبة من منزلي. واصل الدكتور حديثه:

– أعتقد أنكما ستتفقان سوياً. إنه من نوع المدرسين الذين يتمنى أي طالب أن يحظى به.

في المساء التالي لذلك اليوم أتى قسيس من الأبرشية، اسمه الأب مولان، وجاء معه مدرسي الجديد وقدمني إليه. كنت جالساً بجوار النافذة أقرأ في كتاب من تأليف جاك ماريتان عندما فتح الباب ودخل القسيس والرجل الغريب، تقودهما أمي. قال الأب مولان:

– هذا هو السيد غوثري يا كريستي.

نظرت إليه فرأيت أمامي رجلاً قصيراً ممتلئ الجسم ذا طبيعة عذبة. كان في منتصف العمر، بعينين زرقاوين حادتين، ومنطق فكِهٍ. لاحظت كم مدروسة ومحددة كل حركاته وإيحاءاته الصغيرة، وكم كان حاجباه المقوسان معبرين. بدا وجهه مضاءً بذكاءٍ وعطف شديدين. شعرت بالقوة والجاذبية اللتين تحملهما شخصيته من لحظة لقائنا الأول، وارتحت له فوراً. قال بصوت رنان عميق:

- مرحباً كريستي.

ثم تقدم وصافحني.

- أنا مسرور بمقابلتك، أتمنى أن نصبح شريكين من الآن فصاعداً.

وهكذا كان السيد غوثري. لقد أظهر براعة في تكسير كل الحواجز التي تظهر بصورة طبيعية في الطريق. فعل ذلك بهدوء وثبات وثقة. وكانت العلاقة التي نشأت بيننا صداقة عملية، شعرت فيها بأننا شريكان في مهمة كبيرة صعبة دفعني فيها قُدُماً. أتى إليّ مرتين في الأسبوع، وعادة ما كان ذلك يومي الاثنين والأربعاء مساء، واستمرت كل حصة نحو الساعتين وأكثر.

في الشهر الأول شعرت بأنني خجِلٌ وغير مرتاح في حضوره بسبب وعيي المؤلم بالخلل في نطقي عندما أجيب عن أسئلته. وبعد مرور فترة زمنية توارى هذا الشعور، وغدت هناك ألفة مشتركة بيننا، فالتفتنا إلى العمل الذي في أيدينا بالفعل. صار هناك نوع من الاستقرار لدرجة أنني بدأت أتحدث بحرية كبيرة، فأصبحت في بعض الأوقات مهذاراً. وعندما ينتهي البرنامج الرسمي المسائي، كان يبقى بعض الوقت، وقد نناقش أشياء كثيرة متنوعة مثل فلسفة برتراند راسل، أو شعر تومسون وييتس، أو ماهية التحليل النفسي، ومن هذا، وبعيداً عن الدروس المعتادة، تعلمت الكثير. بطبيعة الحال ساعدتني هذه النقاشات على التحدث بوضوح وثقة. عندما تعرفت إلى الهندسة أول مرة، لم أستطع أن أرسم الأشكال الهندسية بنفسي، فاضطررت إلى استدعاء أخي شون لأداء هذه المهمة، لأن

فرانسيس كان لديه من الواجبات أكثر من اللازم. كان عليه أن ينهي النسخة الثانية من الكتاب، أضف إلى هذه أن شون كان جيداً في الرياضيات، وأثبت أنه خير معين في علمي الحساب والجبر، بل كان عوناً – أكثر من اللازم – لأنني سرعان ما وجدت نفسي أرمي عليه ما أعتبره «أعمالاً قذرةً» من الواجبات ليؤديها عني ويعالج الأشياء الصعبة، في حين أكتفي أنا بتصحيح الإجابات. حاولت أن أجد شيئاً من المتعة أو الاهتمام بحل المعادلات والنسب وبقية الأمور، لكنني لم أجد فيها إلا الإجهاد والصداع في رأسي. على كلٍ، وبغض النظر عن هذه المنغصات، تقدمت في هذا المضمار بصورة تدريجية وشيئاً فشيئاً، على الرغم من أن كراهيتي للأرقام استمرت.

إنه شيء غريب، فعندما أتيت إلى الهندسة وجدت أنني أحببتها ووجدت متعة حقيقية في حل نظرياتها ومشكلات الزوايا والمثلثات ومتوازيات الأضلاع والمساحات والمستطيلات وهلم جراً. لا أدري لماذا أحببت هذا الفرع من الرياضيات وكرهت البقية، بيد أني أحببته كثيراً وقضيت فيه ساعات طويلة وأنا مرتاح البال. جاء دور اللغة اللاتينية التي أولعت بها فوراً. وقعت في حب أناقة هذه اللغة وجمالها ولطافتها، ودقة تعابيرها وإحكامها، وظلالها الدقيقة، وتلوّن معانيها.

بعد أول سنة من المهام السهلة، تعرفت إلى قيصر عبر قراءة «الحرب الغاليّة» التي وجدتها مملة ومثيرة في الوقت نفسه، وأصبحت قراءتي أقرب إلى روح العصر الذي أعيش فيه، واتصفت بالشمولية.

قبل سنتين من سفر «شيلا» إلى أميركا وزواجها هناك، أعطتني

مجلداً كبيراً فائق الجمال يحوي الأعمال الكاملة لشكسبير، وقد أصبح الآن أغلى ممتلكاتي.

أتذكر كيف كان الصباح الذي غادرت فيه العيادة للأبد، وطلبت مني أن أتلو لها نصاً من «هاملت» يمزق القلب (أن نكون أو لا نكون). إلا أن الأطفال من حولنا كانوا يصرخون ويضحكون في أثناء تلاوتي للنص، وهي جالسة أمامي وخاتم الخطبة يتلألأ في أصبعها مع شعاع الشمس.

اكتشافي لكل الجمال الذي يقف وراءه شكسبير أعطاني إحساساً طبيعيا بالفرح. يحدث غالباً أن أكون في إحدى مسرحياته ثم أتوقف مبهوراً أتأمل بدهشة هذا البهاء اللامعقول لخياله وسلامة منطقه. عواطفه كانت كونية بمعنى الكلمة، وبدت متاحة لشرائح عريضة، وفي الوقت ذاته كانت فردية جداً. الجمال النادر في أفكاره ومراعاته للمقاييس الفنية العليا في التعبير عنها أصاباني بالذهول. بدا لي أنه كان قادراً على تشريح العقل البشري إلى أجزاء صغيرة بحيث يرفعها جزءاً تلو الآخر إلى الضوء ليضعها أمام عيون العالم. لقد عرّى عقل الإنسان كما لم يفعل أحد قبله أو بعده حتى الآن.

بعد ذلك بدأت في قراءة «شو»، وإذا كان لقاء شكسبير كنفحة من نفحات الجنة، فلقاء «شو» كان كريح منعشة قادمة من البحر في شهر مارس. لقد استمتعت بذكائه وسخريته اللاذعة. لكن يبدو لي أنه كان متحمساً بدرجة كبيرة لأن يقنع الآخرين بأنه ملحد، أكثر من حماسه إلى إقناع نفسه بذلك. ربما كان يحمل إيماناً داخلياً، أو على الأقل، حاجة ملحة إلى أن يكُون مؤمناً، أخفاها خلف كبريائه

الخارجي. لا أدري بالتأكيد ما حقيقته؛ فعقله وحدّة ذهنه أكبر مني. بيد أن قراءة مسرحياته كانت عندي تمريناً له الدرجة نفسها من الإنعاش والإثارة اللتين يجدهما الناس في الركض صباحاً على طول شاطئ البحر.

أحياناً عندما يأتي الليل وأجلس بمكتبي في المنزل حيث يفترض أن أقرأ عن قيصر، وأحل المشكلات الهندسية أو الحسابية، يحدث أن أتوقف، وأبدأ في التفكير في الفتيات اللواتي كان يمكن أن ألتقي بهن. كل الفتيات اللواتي كان يمكن أن أرقص معهن، وربما أضاجعهن كما يفعل أخواي بيتر وباري. لم يكن الأمر هيناً عليّ عندها أن أكتفي بالجلوس على كرسي القراءة أو حتى أحاول أن أقرأ عن حملات قيصر على الغال، أو تاريخ القرون الوسطى، أو حتى شكسبير. مازلت أحتفظ بذلك الألم في ذهني. كنت ابن عشرين، غير أنني أردت رفقة غير الكتب التي أعرف خطرها وسحرها. أردت أن أهرب من ذلك الخطر، وأتحرر من لغة الكتب وسحرها الأسود المنبثق من القراءة الدائمة. في تلك اللحظات لم يكن يهمّني أمر تعليمي أو أمر الكتابة. ما كنت أريده أن أعرف الفرح وأنا أتسلق الجبال في صباح ربيعي باكر أو أن أتنزه في طريق العودة إلى المنزل مستمتعاً بضوء القمر ومشهد المدينة وقد غسلت شوارعها بالمطر وإلى جانبي فتاة جميلة.

أتذكر ذات مساء شعرت فيه بالعزلة والغيرة من بيتر وباري اللذين خرجا مع أصدقائهما في حين تُركت في البيت وحدي. شعرت بالقرف من القراءة. وهكذا جلست نكداً ذلك المساء لا أفعل شيئاً،

فدخل فرانسيس كي أملي عليه ما أريد كتابته وجلس وأخرج قلمه وانتظر. علمت لحظتها أن لدي ما أقوله؛ شيئاً أريد أن أعبر عنه لكنه لم يخرج. فكرت وفكرت دون جدوى، إذ كل الكلمات التي في ذهني بدت مشوهة وغير صحيحة، فنظرت إلى يديّ عديمتي الجدوى منذ الأزل، وتذكرت فجأة قدمي اليسرى فصرخت:

– اخرج إلى الجحيم يا فرانسيس.

فنظر إليّ فرانسيس المسكين، وبدا كأنه سيبكي فأكملت:

– امض... إلى الخارج.

فنهض وهو ينظر إلي من فوق كتفه كأرنب مذعور، ثم انساب إلى خارج الغرفة. فرميت بنفسي على سريري وانتزعت حذائي الأيسر ومزقت جوربي الأيسر بالقدم الأخرى، ووضعت قلم الرصاص بين إبهامي الأيسر والذي يليه ثم بدأت الكتابة.

كتبتِ وكتبت دون توقف، كتبت دون وعي بما يحيط بي، ساعة وراء ساعة شاعراً خلالها بأنني شخص مختلف. لقد توقف شعوري بالتعاسة، لم أعد أحس بالتوتر أو أن فمي محتبس. شعرت بالحرية... أستطيع أن أفكر... أستطيع أن أعيش... أستطيع أن أبدع.

فجأة فُتح الباب ودخل الدكتور فتوقفت وثنيت قدمي اليسرى تحتي وحاولت أن أكشر له عن ابتسامة وأقول شيئاً عن المساء البارد. لم يبد أنه قد لاحظ أي شيء، وإنما جلس وبدأ يتحدث عن الأمور المعتادة، وبعد فترة عرّج على موضوع الكتاب وقال:

– إذن، فقد قررت استدعاء القدم اليسرى القديمة من جديد.

فجذبتها من تحتي بخجل وارتباك. فاستمر في الحديث:

- أنا أتفهم ذلك، لن نخبر أيرين كوليس، لكن حاول ألا تستخدمها إلا عند الضرورة.

شعرت عندها بالانعتاق والسلام، فأنا قادر على أن أكون نفسي أحياناً، وعلى الرغم من أنني لم أعرف يوماً فرحة الرقص، فإنني أعرف نشوة الخلق والابتكار والإبداع.

الفصل (16)

ورد أحمر لها

الحفلة الموسيقية التي أقامها بيرل إيفز في دبلن ستبقى أكثر الأحداث إثارة في حياتي، فكل شيء جرى فيها بطريقه غير معتادة. لقد تضمنت عائلة الدكتور كوليس الغريبة التي غدوت الآن من أفرادها فتى هنغارياً - سلوفاكياً صغيراً تبناه الدكتور في مدينة بلسين. إنه فتى أسمر اللون بعينين راقصتين وشعر غامق، وقد كان مريضاً جداً عندما وجده الدكتور، ومؤخراً عاد الألم القديم إلى رئته وازداد سوءاً، وأصبح مضطراً إلى إجراء عملية حاسمة في مستشفى الصدر في لندن. التقى به بيرل إيفز في دبلن وأحبه كثيراً وأصبح يزوره متردداً إليه في مستشفى الصدر، ومغنياً للطفل بعض الأغاني الشعبية، هو وكل الآخرين الموجودين في الجناح. وفي عصر يوم من الأيام، كان الدكتور كوليس في لندن يتشاور مع السير كلمنت برايس توماس عن الفتى الذي كان في حالة نقاهة متماثلاً للشفاء بعد إزالة نصف رئته. ثم إنهما جاءا إلى الجناح ليجدا حفلة غنائية بالمعنى الفعلي للكلمة يضج بها المكان. فقد جعل بيرل إيفز الكل يضحك ويغني. فجأة خطرت ببال الدكتور كوليس فكرة، فسأله إن كان بإمكانه أن يحيي حفلاً في دبلن لدعم مرضى الشلل الدماغي، فوافق بيرل إيفز مباشرة.

في طريق العودة إلى دبلن أخبرني الطبيب بما حدث قائلاً:

– الفكرة هي أن بيرل إيفز سيقوم بالغناء، ثم سأقوم أنا بمناشدة الجميع أن يدعموا مرض الشلل الدماغي. غير أنني أعتقد أن من الأفضل بكثير، لو قمت أنت بهذا الدور.

فقلت:

– أنا؟ كيف؟

فقال لي:

– بقدمك

فقلت:

– بقدمي؟

فابتسم ابتسامه عريضة وقال:

– لقد أنهيت الفصلين الأولين، عن الحرف (A) وأمك، فلو قرأتهما على الناس لتعلموا الكثير عن الشلل الدماغي من الداخل، بصورة تَفْضُل حديثي عنه مدة ساعة. لكن لا بد أن تأتي معي وتجلس بجواري كي يعلموا أن هذا العمل الكتابي لك وليس لي.

فكرت لدقيقة، وتخيلت نفسي واقفاً أمام مئات الناس ضمن جمهور عريض، أرى فيه مئات الوجوه ترفع أبصارها وتنظر إلي؛ وجوه غير معروفة، تتساءل بعيون محدقة، وتلحظ حركتي الشاذة، ويدي المعقوفتين، وفمي الملتوي. ترددت، فحنى رأسه إلى جانبه ينظر إليّ، لقد قرأ أفكاري وقال:

– يمكنك القيام بذلك.

فرددت:

– نعم، بالطبع أستطيع.

لكنني شعرت بخوف شديد.

ابتدأت الترتيبات في سرعة مفرطة، ورعت المناسبة جمعية إيرلندا–أمريكا، وقد وجهت الدعوة إلى أشخاص مهمين كثر. كما اختيرت صالة أبردين في فندق غريشام للمناسبة، وهي مكان ضخم جميل يكفي لخمسمائة شخص. أصدرت التذاكر وأشير إلى الحدث في الصحف وأجريت حوارات مع كتّاب أعمدة مشهورين، فعلمت كل المدينة بالحدث. أما في بيتنا فلم يصل الخبر إلا لربعهم، لكن كل أفراد العائلة قالوا إنهم سيحضرون ليسمعوا بيرل إيفز. وقالت أمي إنها تريد أن تسمع الدكتور كوليس وهو يقرأ فصليّ، لكن بدا لي لو أن كل العائلة والأصدقاء حصلوا على تذاكر مجانية، لملؤوا الصالة بكاملها، ولن تبقى هناك أي مساحة لقضية الشلل الدماغي!!

استمرت المناقشات الضارية مدة أيام. بطبيعة الحال كان من الضروري أن تحضر والدتي ووالدي، ثم قالت بيغي إنها مصممة على أن تجلس إلى جواري. أما مونا وزوجها توم فقالا إنهما سيشتريان تذاكرهما. توني وبيتر وبادي وجيم وإيمن وشون وفرانسيس وداني، قالوا أنهم لن يشتروا التذاكر، وهم يعلمون أنهم لن يستمعوا إلي.

ليلي وآن لم تحظيا بفرصه للتعبير عن رأيهما في الموضوع، لكن كان من المتوقع أن تحضرا على كل حال. ثم برز سؤال عن الكيفية التي سننتقل بها كلنا من كروملن إلى شارع أوكونيل في وسط المدينة، في عصر يوم أحد، وعن الكيفية التي سيتم نقلي بها إلى فندق غريشام الذي يحوي صالة كبيرة مفتوحة تقع في واجهة الباب الأمامي وهي مكتظة دوماً بالبشر. قالت مونا:

- الأفضل أن نستأجر حافلة كوراس لومبر ايرين.

على كل حال، تطوع في النهاية صديق للعائلة- هو السيد ماكيو- بنقل العائلة براون. وكان يملك سيارة تاكسي أمريكية ضخمة.

روبي كوليس، وهو طالب طب وابن الدكتور، شاب قوي طويل بشعر أشقر، قال إنه سيقود مقعدي إلى باب خلفي للفندق ويجلسني في مكاني المخصص قبل أن يبدأ العرض. وفي صبيحة يوم الحفلة، ظهر بيتنا كحانة في ليلة سبت، يرتطم الواحد بالآخر، والجميع يتحدث في اللحظة نفسها. استعارت أمي سترة فروٍ من صديقة لها، ولبستها ثم سألتنا وهي تأخذ أوضاعاً مختلفة وتقف في وسط المطبخ:

- كيف أبدو؟

فانقطعت المحادثات وساد الصمت ونحن نلتفت لننظر بعيون فاحصة إلى «عارضة الأزياء» الخاصة بنا. لم يجب أحد فهو سؤال صعب لا أحد يود الالتزام بالرد عليه. وأخيراً التقط بيتر جريدته وركز عينيه على الصفحة قائلاً:

- أرى دباً قد هرب من حديقة الحيوان ليلة البارحة!

إلا أن أمي لم تتنازل لتستمع إلى ملاحظه بيتر، فأخرجت قبعتها اللندنية ووضعتها على رأسها وهي تنظر إلى المرآة. حاولت مونا إغراءها بان تضع أحمر الشفاه والبودرة، إلا أن أمي قالت إنها لا تريد أن تتسمم بتلك الأشياء.

والدي هو الآخر ظهر بصورة مختلفة، لقد اشترى حلة جديدة وقبعة

من نوع غريب، وسط بين القبعة ذات الثلاثة أبعاد والقبعة الدائرية. إنه يبدو الآن أنيقاً ووسيماً للغاية. لقد ناسبت القبعة طبيعة رأسه تماماً. ثم بدأا في إلباسي حلة تصلح لحفلة عشاء استأجراها دون أن يخبراني بذلك. ودون التفات لاعتراضي واحتجاجي، تم حشري في تلك البدلة على يد بيتر وتوني إذ قالا:

– يجب أن تظهر بالمظهر اللائق.

وصلت التاكسي في الوقت المناسب وجلسنا فيها كعائلة ملكية تجلس أزواجاً في مركبة تجرها الخيل. نصف دزينة منا كانت تكفي لحشوها، لذلك ركب بعضنا الحافلة، إخوة ، وأخوات، وأزواج أخوات، وزوجات إخوة، وأبناء إخوة، وبنات إخوة، كانوا دزينة ونصفاً تقريباً، ناهيك عن حاشية كاملة من الأصدقاء والأقارب الآخرين الذين لحقوا بنا فيما بعد. لقد كانوا كفوج بدأ عملية هجوم عندما نزلوا كلهم في الشارع، وتماسكت أيديهم.

توقفت التاكسي عند بيت الدكتور كوليس وتم حشر روبي معنا، وذلك كي يجلس على ركبة أحدهم أو أن يجلس أحدهم على ركبته، نسيت أيهما. أخيراً وصلنا إلى الفندق لنجد أن الآخرين قد ترجلوا أمام مدخل الفندق، وقادتني السيارة إلى مؤخرة الفندق. كنت أعتقد أنني من الوزن الثقيل إلا أن روبي كوليس انحنى وحده والتقطني بين ذراعيه، دون أن يصدر أي صوت.

لم يبدأ العرض بعد، ولم ترتفع الستارة حتى تلك اللحظة، لذلك وضعت في كرسيي إلى جوار أمي وأبي وبيغي وتوني وزوجته شيلا.

من الناحية الأخرى للستارة أستطيع أن أسمع الناس يتحدثون ويختلطون وهم مستقرون في مقاعدهم، فعلمت أن هناك أعداداً غفيرة في الصالة، وأن الستارة سترتفع في أي لحظة من الآن، فشعرت بالانزعاج.

حضر أناس كثر، أكثر من أولئك الذين يحملون التذاكر، وكثير منهم حشروا في مؤخرة المسرح. اختلست نظرات من حولي فوجدت أنهم وضعوني على يمين المسرح، في حين بقي الوسط فارغاً باستثناء ثلاثة أو أربعة مقاعد يشغلها الآن رئيس جمعيه إيرلندا – أمريكا، السيد جون هيوستن المنتج والمخرج والسينمائي المعروف، والدكتور كوليس، وتجلس في الخلف فتاة تبهر الأبصار، توقعت أنها نجمة سينمائية، وجماهير حاشدة من البشر الذين لا أعرفهم. ثم رأيت منظراً ساحراً من خلال الباب الصغير في جانب المسرح. لقد كان رجلاً، لكن كل ما كنت أستطيع رؤيته في البداية أنه كان يرتدي صديرياً ذهبياً كبيراً وبنطالاً أخضر، ثم ظهر بقية ما يلبسه. شعرت لحظتها بأنني لم أر شيئاً بهذه الضخامة واللمعان من قبل. لم يكن مجرد حجم الرجل بل طوله أيضاً. لا بد أنه كان يقف على ارتفاع ستة أقدام وأنه يزن أكثر من 280 رطلاً، له وجه قمري مبتسم وعينان صغيرتان ولحية محددة، ويحمل الغيتار على أحد كتفيه. لقد كان مذهلاً كعملاق خرج من قصة جنيات ليقف وسط حشود من البشر العاديين. كان ذلك هو بيرل إيفز. في اللحظة التي تلتها ارتفعت الستارة وابتدأ العرض فأمسكت بجانب الكرسي وحاولت أن أبقي نفسي ثابتاً. كل ما كنت أستطيع رؤيته هو شيء من وجوه

ضبابية تحدق بي، فشعرت بالحرارة والبرودة تتناوبان على جسدي، وكنت منتبهاً لكل حركة لا إرادية أقوم بها بغض النظر عن ضآلتها، ووعيي الداخلي بتلك الحركات جعلها تتضخم لتصبح ألماً واضح المعالم. شعرت وكأنني كنت وحدي على المسرح مع ضوء شرس ساطع يضرب وجهي، وكأنما كنت تحت عدسة مجهر بحيث لا يمكن لحركة واحدة أن تهرب من التعقب، وشعرت بألف عين ترقبني، وأحسست بالهلع القديم يعلو صوته في داخلي. ثم بدا بيرل إيفز بالغناء. كان صوته رائعاً ناعماً شجياً، وبنقلات متناغمة، وطريقة في الغناء ممتلئة بالحس الفني. فأغلقت عيني وجلست أستمع إلى أغانيه وتناسيت نصف رهاب المسرح. سريعاً ما بدأت في الضحك وأنا استمع إليه يغني كما فعل الآخرون أغنية «ذبابة بذيل أزرق» وأغنية «السيد ضفدع ذهب للمغازلة» و«المنزل الذي كانت تقيم فيه جدتي»، ثم لم يلبث أن جعل الجميع يغنّون معه:

– كانت هناك امرأة عجوز ابتلعت ذبابة

– ولا أعلم لماذا بلعت الذبابة

– ربما ستموت.

وجدت نفسي أغني مثل أي شخص آخر في الصالة. ضحكت كثيرا حتى أنني نسيت كل شيء. ثم توقف فجأة ومشى خارج المسرح بعد عدة إعادات لما غناه، ثم انسحب أخيراً. بعدها أعلن رئيس الجمعية أن الدكتور كوليس سيخاطب الجمهور باسم اتحاد الشلل الدماغي، فنهض الدكتور ومشى إلى مكبر الصوت والجماهير مازالت في مزاج مرح، تضحك وتتحدث ولم يكن من السهل إثارة

اهتمامها. أخذ الدكتور أوراقي ووضعها على القائم أمامه ثم قال:

– لن ألقي خطبة ولن أقوم حتى بأية مناشدة، فقط سوف أقرأ لكم شيئاً سيمكنكم من إلقاء نظرة إلى داخل إنسان أعاقه الشلل الدماغي. أول فصلين من السيرة الذاتية لكريستي براون، هنا.

ثم قدمني بيده مشيراً:

– كتبها بقدمه اليسرى.

بعد ذلك شرع الدكتور كوليس في القراءة. في الدقائق الأولى كان هناك قدر هائل من الضجيج في أوساط الجمهور، الناس يحولون اهتمامهم ويسعلون، ورأيت رجلاً يقرأ في جريدة الصباح. من الواضح أنه جاء للاستمتاع بالعرض وليس للاستماع إلى محاضرة عن المعاقين. على أي حال، توقفت الحركة والضجيج تدريجياً في أثناء قراءة الدكتور، وساد صمت كامل. فنظرت أمامي إلى الوجوه. لقد تجاوزت التساؤل والتحديق وأصبحت وجوهاً ودودة تبدي الاهتمام والتركيز ولم أعد أشعر بأنها تنظر إلي، وإنما تركز على الدكتور وهو ماض في قراءة فصليّ. لقد كانوا يستمعون، أما أنا فمازلت قلقاً مشدوداً كسلك البرقيات. أجلس مكشوفاً على المسرح. لكن بعد فترة بدأت أنا أيضاً في الاستماع. وبمجرد أن فعلت ذلك غادرني قلقي ونسيت يدي الغريبتين المعقوفتين المجدولتين في حضني ونسيت فمي الملتوي ورأسي المرتعش.

– استمعت...

– هل هذا حقيقي؟ أنا أجلس على المسرح مع أمي وأبي أمام هذه الجماهير المحتشدة، يستمعون إلى وصف لطفولتي؟ هل صحيح

أنني كتبت كل هذا؟ هل صحيح أن هذا كله خرج من ذهني أنا؟ لقد بدا لي كل شيء وكأنه حلم.

– استمعت...

وتذكرت ذلك اليوم؛ ذلك اليوم الديسمبري، عندما كتبت فيه الحرف (A) بقطعة من طبشور أصفر في قدمي اليسرى وأمي راكعة إلى جواري على أرضية المطبخ الخشبية تحثّني على ألا أستسلم.

أتذكر إخوتي، وذلك اليوم الذي عراني فيه توني خلف الشجرة ووضع عليّ سترة جيم الضخمة، في حين كان جيم يبكي ويقول:

– سوف يغرق... أخبرتك.

أتذكر ذلك اليوم البشع عندما اكتشفت حقيقتي... والرعب الذي انتابني عندما علمت أنني سأبقى مشلولاً طوال حياتي... ثم أيام الرسم والليالي الوحيدة في سريري... وشخير بيتر الهادئ في الظلام... تذكرت لوورد ووميض الشموع أمام الغار... وشيلا وهي قادمة إلى العيادة في صباح من صباحات ديسمبر... شعرها الأشقر تبعثره الريح وحبات المطر على وجهها.

فجأة، انتبهت إلى أن الدكتور قد توقف عن الكلام، في حين حلّ صمت مطبق في الصالة. رأيت شخصاً في الصف الأول وقد أخذ يبكي. وألقيت نظرة إلى أمي، كانت تجلس منتصبة وعيناها تتلألآن. نظرت إلى أبي وقد ثنى قبعته بين يديه وأخذ ينظر إلي بطريقة جديدة، فيما كان الصمت يلف أرجاء المسرح. مشى الدكتور كوليس عابراً المسرح، فوضع يده على كتفي وساعدني في الوقوف على قدمي، ثم انفجر الهتاف الذي استمر طويلاً وطويلاً حتى بدا وكأنه سيغطينا

كأمواج البحر. فجأة قام شخص من الجمهور وتقدم إلينا بباقة من الورد، فوقف الدكتور وأخذها منه ثم مشى حيث وقفت أمي، ورفع يده ليوقف الهتاف وقال للجماهير:

– أعتقد أنكم ستوافقون... هناك شيء واحد عليكم فعله.

ورود حمراء للسيدة براون، لك ياسيدتي.

أعطاها باقة الورد وهو ينحني، فعاد الهتاف من جديد. أستطيع أن أرى مجموعة من إخوتي في مؤخره الصالة، جيم وفرانسيس وبادي وبيتر وشون، يهتفون ويصرخون بجنون. أخذت أمي باقة الورد كما تفعل «الملكة الأم»، كما لو كانت معتادة على الورد في كل يوم من أيام حياتها، إلا أنني أعتقد أن وجهها احمر في تلك اللحظة. لكني لا أدري أكان الورد أم معطف الفرو من يقف إلى جوارها. كتفا أبي منخفضان ورأسه الأصلع منحنٍ إلى الأمام. وضعت أمي الورد تحت ذراعها ثم رفعت صوتها في همسة عالية من زاوية فمها:

– تهذب يا بادي، ألا تستطيع ذلك؟!

انزعج أبي قليلاً لذلك، لكنه أسقط قبعته فالتقطتها بيغي. ثم إن بيرل إيفز خرج من جديد وبدأ يغني شيئاً من أغانينا الإيرلندية الشعبية، وتلك الأغنية الشهيرة التي عنوانها: السيدة الإسبانية.

الآن أستطيع أن أسترخي وأستمتع بكل شيء. لقد وصلت إلى السلام الداخلي. أصبحت سعيداً مسترخياً في مقعدي، في حين كانت قدمي اليسرى القديمة تهزم الزمن مع إيقاع الأغنية.

قدمي اليسرى

يفتتح الكاتب: كريستي براون سيرته باكتشاف عائلته أنه يعاني من الشلل الدماغي، وكيف مرت سنوات طويلة والجميع يعتقد أنه مشلول كلية، حتى جاءت اللحظة التي أعلنت فيه قدمه اليسرى عن حياتها بأن كتبت حرفاً بطبشور أمام دهشة أفراد أسرته. أما الأم فهي بحق بطلة هذه السيرة، وثناؤه على والدته وموقفها العظيم في قصته لا ينتهي.

إنها بحق سيرة شائقة، ومثيرة للاهتمام، دافعة القارئ إلى المضي في قراءتها دون توقف.

المعارف العامة
الفلسفة وعلم النفس
الديانات
العلوم الاجتماعية
اللغات
العلوم الطبيعية والدقيقة / التطبيقية
الفنون والألعاب الرياضية
الأدب
التاريخ والجغرافيا وكتب السيرة






9789948170686